موسوعة
ما فرطنا في الكتاب من شيء
(٢)

المعارف الطبية في ضوء القرآن والسنة

الدكتور
أحمد شوقي إبراهيم
عضو كلية الأطباء الملكية بلندن
استشاري الأمراض الباطنية والقلب
عضو اللجنة الوطنية للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)
رئيس لجنة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥ و٣٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾ [نوح]

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

[النحل]

٢١٤,٦١ أحمد شوقى إبراهيم.
أح أط أطوار الخلق وحواس الإنسان / أحمد شوقى إبراهيم..ط١ ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٢م.
٢٠٣ ص ؛ ٢٤ سم. ـ (موسوعة ما فرطنا فى الكتاب من شىء؛ ٢. المعارف الطبية فى ضوء القرآن والسنة؛ ١)
تدمك: ٦ ـ ١٥١٧ ـ ١٠ ـ ٩٧٧.
١ ـ الإسلام والطب. ٢ ـ الحواس. أ ـ العنوان. ب ـ السلسلة.

التصميم والإخراج الفنى
الأستاذ/ محيى الدين فتحى الشلودى

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

سلسلة الفكر العربي للإعجاز العلمي للقرآن والسنة

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله. أما بعد،

فإن المعطيات العلمية والمعارف الطبية هى أوجه متعددة ومتنوعة لحقيقة واحدة كبرى هى سنة الله تعالى فى خلقه، وتقديره فى ملكوته. وليس فى حقائق العلوم شىء إلا وله فى القرآن العظيم أصل، وله فى السنة النبوية المشرفة أساس. قال تعالى: ﴿ ...**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ... ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام].

وقال الإمام الشافعى رحمه الله: (جميع ما يقوله البشر من حق، تفسير للسنة النبوية المشرفة، وجميع ما تقوله السنة النبوية المشرفة شرح كما هو موجود فى القرآن الكريم)، أى أن كل حقيقة علمية ثابتة هى فى أصلها حقيقة قرآنية. ولقد يسّر الوحى الإلهى فى القرآن والسنة تفسير الظواهر الكونية والمعارف العلمية والطبية لاجتهاد المتخصصين من العلماء على مر العصور.. ففى كل عصر من العصور يكتشف الناس علما جديدا لم يكن معروفا لمن سبقوهم فى عصور مضت. وسيظل القرآن العظيم والسنة المشرفة رسالة من الله ورسوله، متجددة للبشرية كلها منذ نزول الوحى على سيدنا رسول الله ﷺ وإلى يوم القيامة.

قال الله عز وجل: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ** ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام].. وبذلك نفهم أن فطرة الخلق فى كل خلق قرنت بالقرآن العظيم. وهذا يفتح للباحثين بابا من العلم واسعا، لو نظروا إليه وتدبروه لوجدوا تطابقا بين الكتاب والدين وبين فطرة الخلق، كما قال الله عز وجل: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم]. ففطرة الخلق فى آيات الله الكونية تتطابق مع الدين القيم.. بل إنهما شىء واحد فالدين هو فطرة الخلق، وفطرة الخلق هى الدين كما بينت الآية الكريمة.

ولقد ذكر القرآن الكثير من الحقائق العلمية مجملة وترك تفسيرها وتوضيحها للسنة النبوية المشرفة، وترك بعضها الآخر لاجتهاد البشر فى مجالات العلوم البشرية عبر العصور..وهو اجتهاد لا يخرج عن الحقائق التى أجملها القرآن الكريم فى كلمات.

ولما كانت جميع آيات القرآن تقصد قصدا مطلقا تبيانا للدين وتعريفا بالله عز وجل ووحدانيته وقدرته وحكمته، فإن المجمل فى الحقائق فى القرآن الكريم محمول على المقصود. نفهم هذا مما رواه ابن مسعود رضى الله عنه كان يقول: مالى لا ألعن من لعنه الله فى كتابه -

يعنى الواشمة والمستوشـمة. وسألته امرأة قالت يا ابن مسعود. لقد تلـوت كتاب الله فما وجدت فيه لعنا للواشـمـة والمستوشمة. فقـال:؟ لو تلوتيه لوجدتيه. فقـد قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، ومما نهى رسول الله عنه الواشـمة والمستوشمة.

إذن القـرآن العظيم أنزله الله تعـالى بالحق مـحكمـا ومفـصـلا، وجامـعـا لكل الأحكام والتكاليف، ولكل الشرعيات والمعاملات ولكل حقـائق العلوم كل ذلك بهدف هداية دينية جامعة هى لخيـر الإنسان فى الدنيا والآخرة. والذى يتـحدث عن الإعجاز العلمى فى أى آية قـرآنية أو حديث نبـوى لا يجب أن يتحدث عن الحـقيقـة العلمية مـجردة، أو يقتطعـهـا من الآية الكريمة ويفصلهـا عنها، وإنما يجب أن يدرس كل ارتباطاتهـا بكلمات الآية الكريمة كلها.. فـما ذكرت الحقائق العلمـية فى الآيات القرآنية لمجرد السـرد العلمى أو لتكون مرجعا علميـا لفرع من فروع العلم. وإنما ليستـدل بها قارئ الآية القرآنيـة على الهداية الدينية التى تضمنتـها الآية، أو يستنبط منها الدليل على قدرة الله وحكمته المطلقة ووحدانيته أو يستدل بها على ما تعقب به الآية القرآنية من حقيقة غـيبية مثل حقيقة البـعث بعد الموت، وبذلك يستقر الإيمان بالحقيقـة الغيبية فى القلب عن طريق العقل وهذا أفضل الإيمان مـثل قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الروم: ١٩]. ومن ذلك نفهم أن بيان الإعجاز العلـمى فى أى آية قرآنية أو حديث نبوى لا نربطه بالهداية الدينيـة التى تعقب بها الآية أو الحديث، يكون بحثا ناقصا أو بيانا غير مكتمل.

وفى تناولنا لموضوعات المعـارف الطبية فى ضوء القرآن والسنة حـاولنا أن نتكلم فى إيجاز لا يخل بالمعنى ولا يطيل فى الشرح، حـيث لا يحسن التطويل، كما راعينا أن نسـتعمل أسلوبا سهلا يسهل فهمه للناس جميعـا على اختلاف مستوياتهم الفكرية، فالمهم هو توصيل ما نريد من معلومات إليهم بأيسر سـبيل.. وراعينا دائما قول الله عز وجل: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات]، وقول الله عز وجل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ.. ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت].

وقد ألفنا ثمانية كتب، استقر الرأى على أن تكون فى أربعة كتب فقط تعميما للفائدة:

فالكتاب الأول يتضمن كتابين: أطوار الخلق، وحواس الإنسان.

والكتاب الثانى يتضـمن ثلاثة كتب مجتمعة وهى: الشـفاء النفسى، وأسرار النوم، وعلم الجمال.

والكتاب الثالث يتضمن كتابين: المحرمات وصحة الإنسان، والطب الوقائى.

والكتاب الرابع يتضمن كتابا واحدا: فلينظر الإنسان إلى طعامه.

ونرجو أن نكون قد أضفنا شيئا إلى المكتبة الإسلامية، والله ولى التوفيق.

الدكتور أحمد شوقى إبراهيم

الجزء الأول

أطوار الخلق

فى تاريخ الإنسان

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ، وبعد.

أطوار خلق أى إنسان أطوار عديدة تبدأ فى خلقه فى صلب آدم، وتنتهى فى حياته فى الدار الآخرة، ولقد تحدثنا فى هذا الكتاب عن كل طور من أطوار خلق الإنسان، وعن بعض النظريات العلمية التى تحدثت فى هذا الموضوع، وبينا الخطأ فيها والصواب، ثم كان الحديث عن أطوار خلق آدم وزوجه وتاريخ حياتهما. وما حدث فيها من أحداث، وبعد ذلك تحدثنا عن أطوار خلق كل إنسان فى هذه الحياة الدنيا، ابتداءً من خلقه فى بطن أمه، وما يحدث للأجنة من أطوار عديدة فى الخلق، وما يحدث فى كل طور منها من أحداث، ثم كان الحديث بعد ذلك عن أطوار خلق كل إنسان منها فى حياته الدنيا، ثم عن تاريخه وما يحدث له بعد الحياة الدنيا من أطوار فى الخلق، معتمدين فى ذلك على ما ذكره القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف.

إن تاريخ الإنسان تاريخ طويل جدا، ويشمل دورات من الموت والحياة ثم الموت والحياة، إلى أن ينتهى الإنسان إلى حياة لا موت بعدها أبدًا، وما فترة حياته فى الدنيا إلا مرحلة قصيرة من مراحل تاريخه الطويل فى هذا الوجود، وكثير من أطوار خلق الإنسان من الغيبيات، ولا مجال لاجتهاد علم الإنسان فيها، وليس هناك مصدر للعلم فيها إلا الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى؛ لذلك كان اعتمادنا فى معرفة تاريخ الإنسان المطوى فى صفحات الغيب على المصدر العلمى الوحيد عنه.

ونقرأ فى الكتاب كيف بدأ تاريخ خلق الإنسان بخلق آدم، وكيف خلق الله تعالى الجنس البشرى كله فى جسد آدم، وعما جاء عن كل ذلك فى القرآن العظيم والحديث النبوى الشريف.

ولعل علم الإنسان بتاريخ وجوده وأطوار خلقه يوقظه من غفلته فى الحياة الدنيا، فلا ينكب عليها ولا يجعلها كل همه، فما حياته فى الدنيا إلا كعابر سبيل، ويجد لزاما عليه أن يعمل لأطوار حياته القادمة وتاريخه فى المستقبل، ويستعد لتحمل مسئولياته الكبيرة فيها، فلا يوقع نفسه فى حياته الدنيا فى أخطاء تعود عليه بالضرر فى حياته فى الآخرة، تلك الحياة الخالدة التى لا يموت بعدها أبدا، ويحيا خالدا إما فى جنة وإما فى نار.

والسلام على من اتبع الهدى

الدكتور أحمد شوقى إبراهيم

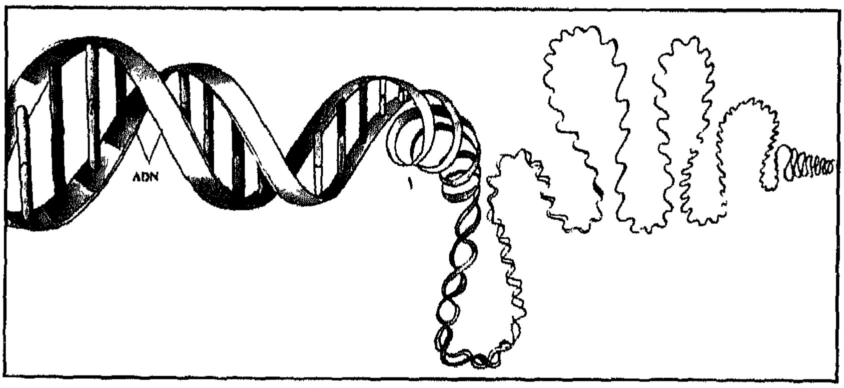
دورة الموت والحياة
فى الخلائق

قـدَّر الله تعـالى الموت والحيـاة فى الخلائق جميعا، فالموت تعـقبه حياة، والحياة يعقبها موت، ثم حياةٌ، ثم موت، ثم حياة، وهكذا، إنها دورة مستمرة للموت والحياة فى كل نوع من الخلق فى الحياة الدنيا.

وفى داخل جسم كل كائن حى نجد أن الموت والحياة يـحدثان معا ويسيـران جنبا إلى جنب، فـالحـياة تخـرج من الموت. والموت يخرج من الحـياة، ونجد أمـثلة على ذلك فى عمليـتى الهدم والبناء، الهـدم موت، والبناء حياة. **وخروج الحى من الميت** نراه فى خروج الخلايا الحـية من الخـلايا الميتـة، وفى خروج النبتة الحية النامية من النواة الجافة التى لا نرى نحن فـيهـا أثرا للحـركة والنمـو. **وخروج الميت من الحى** نراه فى خـروج البذرة الجـافة التى لا نرى فـيها أثـرا لنشاط أو حـياة، من النبات الحى المتـحرك النامى، كمـا نراه أيضا فى خـروج الخلايـا الميتـة من جـسم الكائن الحى.

وقـد يكون ذلك من بعض المعـانى فى سورة الأنعام فى قول الله عز وجل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ** ﴿٩٥﴾﴾.

والموت ضرورى للحياة. كما أن الحياة ضروريـة للموت. فكيف كـان ذلك؟ إننا لو افـترضنا أن الله تعـالى لم يقـدِّر الموت على الخـلائق فى الحـيـاة الدنيـا، لحـدثت نتـائج تستحيل معـها الحياة على هذه الأرض. نأخذ مثلا على ذلك فى الإنسـان. . تنقسم الخلايا



١ - إن جزيئ حمض ADN الممثلة هنا بشكل مختزل تتألف من سلسلتين طويلتين جدا، ملتويتين بشكل حلزونى وتتصلان ببعضهما بواسطة أزواج من القواعد الممتزجة الممثلة هنا بقضبان يتألف كل منها من عنصرين مختلفى اللون. تتمثل عناصر السلسلتين الطويلتين بشريطين متوازيين، وإن لم يكن هذا هو شكلهما الحقيقى.

جسم الإنسان كل لحظة من اللحظات. فلو لم تمت الخلايا القديمة واستمرت حية مع الخلايا الحية الجديدة، فسيكبر جسم الإنسان كل يوم أكثر من اليوم الذى سبقه، ويأتى عليه زمن يبلغ جسمه حجما بالغ الضخامة تستحيل معه الحياة للناس فى هذه الأرض.

والأمر نفسه بالنسبة لسائر الحيوان، وسائر النبات، وأنواع الخلائق الأخرى. لذلك قدّر الله تعالى الموت والحياة لتستمر الحياة فى هذه الأرض.

واستمرار دورة الموت والحياة مرتبطة بالتناسل والتكاثر. فتموت أفراد وأجيال، وتحيا أفراد وأجيال أخرى، وتستمر الحياة إلى ما شاء الله. وهذا يعطى الحياة معنى ورونقا وجمالا. وكيف يكون ذلك؟

حتى نفهم ذلك، نفترض أن الأفراد لا تموت، ماذا يحدث حينئذ؟.. لن يكون للتناسل والتكاثر أى ضرورة، ولا أى معنى. ولن يطلبه أحد، ولن يسعى إليه إنسان. فتصاب الحياة بالركود، وتصاب الأفكار بالجمود، ويتوقف النشاط فى كل مجتمع، ويتوقف العمل فى الحياة، وقد صارت بدون هدف. وبذلك تفقد الحياة معناها ورونقها وجمالها.

لذلك كان تقدير الله تعالى أن يموت القديم ويحيا الجديد، ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى. وذلك يعطى الحياة معناها، ويحدد أهدافها، ويرسم معالمها، ويبث فى الأحياء الدافع للحركة، والحافز للنشاط؛ لأنهم لو كانوا فى الحياة الدنيا خالدين، ما قاموا لعمل من الأعمال، وما تحركوا لبلوغ هدف من الأهداف، وما اهتموا بنسل وأولاد من أصلابهم، ولصارت الحياة بلا معنى وبلا هدف، وبلا مبرر.

إن دورة الموت والحياة حقيقة فى كل خلق من المخلوقات، من أول الفيروس إلى الإنسان، ومن أول الذرة إلى المجرة.

وإذا نظرنا إلى الكائنات الحية، لوجدنا أن دورة الموت والحياة فى جسم كل مخلوق حى، تقوم على نظام محدد، وقانون عام واحد، تمثله العوامل الوراثية الموجودة فى أنوية خلايا الأجسام. ولكل نوع من الخلق نظام وراثى مميز له، وخاص به، وهو نظام فى كل الأنواع لا يتغير أبدا. وينتقل من جيل إلى جيل بدون تفاوت، وبدون اختلاف.

وتحدث طفرات وراثية تغير بعض الصفات الخِلْقية فى أفراد النوع، ولكنها لا تغيّر النوع مطلقا. الطفرات الوراثية قد تغير الطول أو تغير اللون أو تغير الملامح، أو تسبب بعض الأمراض. ولكنها لا تغير نوع المخلوق نفسه أبدا. والطفرات الوراثية من آيات الله تعالى فى خلقه، ومن إبداعه فى صنعه؛ لأنها تضفى على أفراد كل نوع من الخلائق ملامح مميزة له، ومعنى جديدا، ورونقا وجمالا، ولو كان الناس جميعا صورة طبق الأصل فى كل الملامح والصفات والطباع والخصائص، لفقدت الحياة الإنسانية معناها ورونقها وجمالها، وقد يكون كل ذلك من بعض المعانى فى سورة الروم فى قول الله عز وجل:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

وكل خلية فى الجسم تحمل شفرتها الوراثية التى تجدد كلٌّ معالمها وزمنها البيولوچى الذى تحيا فيه وتموت. ولكل خلية حية عمر بيولوچى معين، يختلف عن الأعمار البيولوچية فى الخلايا الأخرى فى الجسم.

والعوامل الوراثية المسئولة عن الصفات الخلقية فى الجسم، قد تصل إلى مائة ألف عامل وراثى فى جسم كل إنسان. وهى محمولة على الشريط الحلزونى للحامض النووى، والحامض النووى يكوّن الكروموزومات أو الصبغيات الموجودة فى نواة كل خلية، وبالرغم من أن النظام الوراثى واحد فى الخلائق جميعا. إلا أن العوامل الوراثية تختلف فى نوع من الخلائق عن النوع الآخر، فهناك وحدة فى نظام الخلق. ولكن تختلف الصفات والخصائص لكل نوع من الخلق، وتميزه عن غيره. تمام التميز، وتختلف الصفات الوراثية فى كل نوع عن الصفات الوراثية فى النوع الآخر تمام الاختلاف. ولا يتغير النظام الوراثى فى نوع من الخلق أبدا، ويظل ينتقل من جيل إلى جيل يحمل نفس النظام الوراثى المميز للنوع، ونفس الصفات الوراثية الخاصة به دون سواه.

ولكل كائن حى دورة موت وحياة، من النملة إلى الفيل، ومن الحشرة إلى الإنسان، ومن حيوان البحر إلى الطير فى السماء. ولكل خلق من الجماد أيضًا دورة موت وحياة. فالجبال التى نراها الآن على سطح الأرض، لم تكن كما نراها اليوم منذ عشرات الملايين من السنين، فالجبال لها دورة حياة وموت كل ستين مليونا من السنين. جبال تظهر وجبال تختفى، وهكذا وجه الأرض فى حركة دائمة وتغير مستمر، لا ثبات فيه لشىء ولا دوام. والأمر نفسه بالنسبة للكواكب والنجوم والمجرات، فتموت نجوم وتتحول إلى سديم كونى، ويخلق الله تعالى فيها نجوما جديدة، وكواكب وليدة. وبعض النجوم تنتهى حياتها إلى ثقوب سوداء تبتلع مادتها، وتبتلع النجوم التى حولها إلى سماء أخرى لا نعلم عنها شيئا، وتنتهى من السماء التى نراها ولا تعود أبدا. لا دوام لشىء فى هذا الوجود إلا لله تبارك وتعالى الذى خلق هذا الوجود. ونقرأ فى سورة العنكبوت قوله الله عز وجل:

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

وجاء فى تفسير القرطبى أن المعنى: أو لم يروا كيف يُبدئ الله الثمار فتحيا ثم تفنى، ثم يعيدها، وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولدا، وخلق من الولد ولدا، وكذلك سائر الحيوان. فإذا رأيتم قدرته على الإبداء والإيجاد فى الدنيا، لآمنتم بقدرته على الإعادة فى الآخرة.

إن أى إنسان ذى عقل سليم، ليدرك تماما أن فى بدء الخلق وإعادته فى الدنيا فيما نرى وفيما نعلم، برهانا أكيدا على قدرة الله تعالى على إعادة الخلق فيما لا نرى وفيما لا نعلم، ولله الخلق والأمر، إن الله على كل شىء قدير.

دورة الموت والحياة
فى الإنسان

إن دورة الموت والحياة حقيقة فى كل الخلائق الحية من الفيروس إلى الإنسان والحشرة، إلى الحصان إلى الجمل، ومن الحيوان فى أعماق البحار إلى الطيور فى جو السماء، كل الخلائق تموت وتحيا ثم تموت وتحيا فى الحياة الدنيا، والله تعالى يبدئ الخلق ثم يعيده، ونقرأ فى سورة يونس (٣١-٣٤)، يقول عز وجل:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١)﴾، إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤)﴾. فالخلائق يخلقها الله عز وجل وتعيش ثم تموت، ثم يخلق بعدها خلقا جديدا، وفى سورة النمل يقول الله جل جلاله:

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤)﴾.

ويجب أن نفهم أن القدرة على الإبداء والإيجاد تستلزم القدرة على الإعادة. وإذا كان هذا يحدث فى الدنيا فيما نرى ونعلم، فبالاستدلال العلمى والقياس، نصدق ونؤمن بحدوثه فى الآخرة فيما لا نرى؛ ولأن الله تعالى أخبرنا بذلك، ومن أصدق من الله حديثا؟!.

وعن تاريخ الإنسان وأطوار خلقه، ودورات موته وحياته، نقرأ فى سورة غافر قول الله عز وجل: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١)﴾.

نفهم فى الآية الكريمة أن الإنسان يموت موتتين ويحيا حياتين. وبدأت الآية بذكر أطوار الموت الأولى، وانتهت بذكر الحياة الثانية. فلا بد إذن أن يكون بدء تاريخ الإنسان بالموت، ونهايته بالحياة التى لا موت بعدها. وقال ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما فى معنى الآية الكريمة: كان الناس أمواتا فى أصلاب آبائهم، ثم أحياهم الله فى الدنيا، ثم أماتهم، ثم أحياهم للبعث والقيامة. فهاتان موتتان وحياتان. وفى نفس المعنى جاء فى سورة البقرة قول الله عز وجل:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)﴾، إن دورات الموت والحياة الاثنتين، دليل عند كل ذى عقل، على حدوث البعث بعد الموت فى الحياة الآخرة.

ولقد كان الإنسان الأول على هذه الأرض آدم عليه السلام. وجعل الله تعالى فى خلايا بدنه الشفرة الوراثية، والنظام الوراثى المميز لجنس البشر. ثم جعل من ذريته أمما وشعوبا وقبائل انتشروا فى الأرض وعمروها.

وجعل الله تعالى لكل إنسان أجلا فيه يخرج إلى الدنيا، وأجلا فيه يموت، ويترك الدنيا، ليحيا فى عالم آخر، ويبعث يوم القيامة. حينئذ يكون من الخالدين، لا يذوق الموت بعد ذلك أبدًا. ويحيا إما فى جنة وإما فى نار.

إن تاريخ الإنسان تاريخ طويل، ويدل خلقه فى دورات وأطوار يتبع بعضها بعضا. لا نرى الأطوار الأولى فى الخلق قبل أن يخرج إلى الدنيا، ولا نرى الأطوار الأخيرة بعد أن يبعث فى الحياة الآخرة، ولكننا نرى جانبا قصيرا جدا منها فى هذه الحياة الدنيا.

إن تاريخ الإنسان تاريخ طويل، ولا تستغرق أطوار حياته فى هذه الدنيا إلا زمنا قصيرا جدا من تاريخ حياته الطويل، وأن مثل حياته فى الدنيا مثل عابر سبيل.

روى الأئمة البخارى والترمذى وأحمد عن مجاهد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى وقال: **«يا عبد الله كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»**.

روى الإمام الترمذى والإمام ابن ماجه عن علقمة عن عبد الله قال: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثّر فى جنبه، فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً. فقال: **«مالى وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب راحلة استظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها»**.

لقد بيّن الحديث النبوى الشريف أن تاريخ الإنسان فى هذه الدنيا ساعة، وإن تاريخه ابتدأ قبلها، وسيستمر بعدها أيضا.

لقد بدأ خلق البشر بآدم عليه السلام وزوجه. ولا يمكن عقلا أن يكون هناك احتمال آخر. ولا يمكن من الناحية العلمية أيضا أن يكون غير ذلك. إن أى مخلوق حى إنما جاء من أب وأم. وكل منهما جاء من أب وأم، وكل منهما جاء من أب وأم. فإذا سلسلنا الأمر ملايين السنين إلى الوراء، لوقفنا عند أب وأم، لا أب ولا أم لأى منهما. ولا يمكن أن يكون خلق الإنسان قد تطور من نوع آخر من الخلق، فعلم الوراثة يرفض هذا الاحتمال.

ومن البديهى أن يكون خلق أجسام آدم وزوجه من مادة هذه الأرض، وهى الماء والتراب، وهذا الاستدلال صحيح. ودليل صحته أنه وافق ما جاء بالقرآن والسنة من حق وصدق ويقين. ففى سورة الفرقان يقول الله عز وجل:

﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾. فالله حدد مادة الخلق وهو الماء، وحدد المخلوق وهو آدم وذريته، وكان ربك قديرا. وفى سورة آل عمران قال الله عز وجل:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾. وروى

الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب».

الحديث الشريف من جملتين اثنتين. كل منها مكون من ثلاث كلمات، ولكنها مع قلة عدد كلماتها، تحمل حقائق كثيرة جدا، تكتب فى صفحات أكثر عددا. (الناس كلهم بنو آدم) إنها جملة تقرر واقعا، وتقرر حقيقة علمية ثابتة. وفى نفس الوقت ترفض رفضا جازما كلَّ نظريات أصل الأنواع المخطئة. والتى تزعم أن الناس كلهم ليسوا بنى آدم. فَصدرُ الحديث الشريف يرفض كل تلك النظريات الضالة. ويقرر أن كل إنسان إنما هو من بنى آدم، ويرجع نسبه إلى الإنسان الأول وهو آدم.

وعقب الحديث بالقول: (وآدم من تراب)، إنها حقيقة علمية لا شك فيها. ونلاحظ أن هذه الحقيقة ذكرت فى القرآن والحديث النبوى. وجاء لفظ «تراب» غير معرّف بأداة التعريف، فلم يقل (خلق من التراب). ولكنه قال: (خلق من تراب) فهو لم يخلق من تراب معين، ولكنه من بعض تراب هذه الأرض. وهذه حقيقة علمية اكتشفها العلماء فى عصور العلم الحديثة، فلقد وجدوا أن كل مكونات جسم الإنسان موجودة فى تراب هذه الأرض، ولا يوجد عنصر فى جسم الإنسان، إلا وهو موجود فى تراب الأرض. فلا بد إذن أن يكون خلق جسم الإنسان من تراب هذه الأرض. كما أخبرنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله.

ذكر القرآن الكريم فى سورة الفرقان أن الإنسان خلق من ماء. وذكر فى سورة آل عمران أنه خلق من تراب. وإذا اختلط الماء بالتراب تكون الطين. فلا بد أن يكون بدء خلق الإنسان من طين. نجد هذه الحقيقة فى سورة الأنعام فى قول الله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً**﴾. وفى سورة المؤمنون يقول الله عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ** ۝١٢﴾، وفى سورة السجدة يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ** ۝٧﴾.

فى القرنين الماضيين ظهرت كثير من
ت والافتراضات التى حاول أصحابها
لوا بها على كيفية نشأة الإنسان على
لأرض. ونقول ابتداء، أن أحدًا من
لم يشهد خلق الإنسان الأول. ولا
آثار أكيدة تدل على كيفية نشأة آدم.
'خبرنا الله تعالى فى سورة الكهف فقال
جل:

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
ْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا
﴾ الآية الكريمة تعنى الجن، ويتسع
فيها للبشر أيضا.

من هذا نفهم أن تلك النظريات التى
ث عن بدء خلق الإنسان، لا تزيد على
ا افتراضات وظنون، لا ترقى أبدًا إلى
نوى الحقيقة العلمية. ومن تلك
راضات ما يطلق عليه اسم «نظريات
ء والارتقاء» «ونظريات التطور وأصل
ع».

إنها مجرد فروض ظنية، ويطلق عليها
«نظرية علمية» تجاوزا، ومعلوم أن أى
علمية مهما كانت قوتها، تصيب حينا
ئ أحيانًا، وما كان يعنينا أن نناقش مثل
لنظريات - التى أثبت العلم الحديث
ا - إلا لأنها تتعرض لنشأة خلق
ان على هذه الأرض، ولأنها تنطلق
أساسا من فكر إلحادى، ولأن بعض الناس - حتى فى عصرنا هذا الذى ثبت فيه خطأ تلك النظريات - لا زالوا يتحدثون عنها بل ويتحمسون لها. وما يفعل ذلك إلا الذين يحاربون الدين. فإذا أراد بعض الناس أن يحاربوا الدين، وينكروا وجود الله تعالى، اتخذوا من تلكم الأفكار الضالة والظنون المخططة ذريعة لما يهدفون إليه. وما دليلنا نحن على ضلال فكرهم وخطأ ظنونهم؟ دليلنا على هذا أنهم يناقشون موضوع خلق الإنسان بدون منهج علمى صحيح، وراحوا يتخبطون فى فكر خاطئ. فالمنهج العلمى الصحيح فى أى مناقشة علمية صحيحة، هو وضع جميع الاحتمالات المتعلقة بموضوع البحث، تحت الدراسة. ووضع الآراء المتفقة والمعارضة لموضوع البحث على سواء، فى محاولة التوصل إلى الصحيح منها بدون تحيز لرأى من الآراء، وبدون تعصب لنظرية من النظريات. وهذا المنهج العلمى الصحيح فى البحث العلمى يسمى: (الاستقراء التام). وهو المنهج العلمى الصحيح الذى استقر عليه العلماء فى عصور العلم، والذى جاء به القرآن العظيم وعلمنا إياه من قديم، وذلك فى سورة آل عمران آية ٦٤ فى قول الله عز وجل:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾، فالمنهج العلمى الصحيح فى البحث

العلمى، يضع الرأيين المختلفين على سواء على بساط البحث والدراسة، أما أصحاب نظريات النشوء والارتقاء والتطور وأصل الأنواع، فإنهم تجاهلوا الاحتمالات الموضوعية التى لا رغبة لهم فيها، وأبعدوها تماما عن بساط البحث، وتجاهلوا مناقشتها ودراستها. فحقيقة نشأة الإنسان فى هذه الأرض كإنسان تام الخلقة فى خلق آدم، بغير أب ولا أم، وبغير إنسان سابق عليه، هذه الحقيقة التى ذكرها القرآن الكريم مرارا لم يناقشوها، ولم يضعوها حتى كفرض علمى فى البحث، ولا حتى كاحتمال من الاحتمالات التى اختاروها للبحث والدراسة. وهذا ما يسميه العلماء «الاستقراء الناقص»، وهو منهج غير صحيح فى البحث العلمى. من هذا نفهم أن أساس فكر أصحاب نظريات النشوء والارتقاء ونظريات التطور وأصل الأنواع وأساس نظرياتهم عن بدء خلق الإنسان، أساس علمى مخطئ، ولا يقوم رأى صحيح على أساس مخطئ.

وهناك أمر آخر، أنه لا يثبت رأى علمى إلا بدليل علمى أكيد وبرهان صحيح. وبذلك يصير الفرض العلمى أو النظرية العلمية حقيقة علمية. وأى رأى يخضع للعلم التجريبى ولا يستند إلى برهان علمى أكيد، لا يرتقى أبدًا إلى مستوى الحقيقة العلمية. وهذا من أهم مبادئ البحث العلمى الصحيح الذى توصل إليه علماء البحث العلمى فى القرن الثامن عشر. ولكننا نجده فى القرآن الكريم مبينا ومذكورا فى سورة الأنبياء فى قول الله عز وجل: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وعن نفس المنهج الصحيح فى الفكر الإنسانى نقرأ فى سورة النمل قول الله تعالى:

﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

من هنا نفهم أن الشروط اللازمة للمناقشة العلمية الصحيحة والبحث العلمى الصحيح، لم تتوفر لدى أصحاب تلك النظريات. وأنهم كانوا يحاولون نشر أفكارهم وظنونهم بغير أساس علمى سليم، وبدون دليل وبرهان واضح. من كل ذلك نفهم أنها نظريات أسست لمحاربة الدين، وإنكار وجود الله تعالى. وأصحاب تلك النظريات والافتراءات كثيرون. وما أكثر أعداء الدين عددا.

ولما طالبهم الناس بالدليل على صدق نظرياتهم أنشأوا نظريات أخرى وظنونا جديدة. ومن تلك الظنون التى حاولوا بها تفسير بدء الخلق، ما تسمى نظرية النشوء الذاتى التلقائى Spontaneous generation فقد افترضوا أن جو الأرض البدائى كان مكونا من غازات الأمونيا والنيتروجين والميثين وبخار الماء. وافترضوا أن من هذه الغازات تكونت الأحماض الأمينية، والتى منها تكونت المواد البروتوبلازمية والتى منها نشأت الكائنات الحية وحيدة الخلية، ثم عديدة الخلايا بعد ذلك. وقاموا بتجربة فى المعمل،

قام بها ستانلى ميللر، فجمع تلك الغازات فى قارورة بها ماء. ثم مرّر عليها شحنة كهربائية مستمرة لمدة أسبوع. وبعد أسبوع وجد ميللر فى ماء القارورة بعض الأحماض الأمينية التى تكونت نتيجة التفاعل الكيميائى. واعتبروا أن فى ذلك الدليل على أن بدء الخلق نشأ تلقائيا على هذه الأرض، وذلك بوجود تلك الغازات فى جو الأرض البدائى، ووجود شرارات البرق والصواعق الكثيرة، التى كانت موجودة فى الأرض وغلافها الجوى البدائى.

وهناك ثلاثة اعتراضات على تلك النظريات:

أولا: لماذا لم يسألوا أنفسهم من خلق الغازات وبخار الماء، والشرارات الكهربائية؟ أخلقت نفسها هى الأخرى تلقائيا وبدون خالق؟.. لم يناقشوا هذا الموضوع الهام، ولم يبحثوه.

ثانيا: اكتشف علماء الفضاء فى عصرنا هذا وجود غازات الميثين والنشادر والنتروجين فى جو كوكب المشترى والزهرة وغيرهما من الكواكب. وقد خلقت تلك الكواكب مع خلق الأرض. فلماذا لم تنشأ فيها الحياة؟ ولماذا لم تنشأ فيها الكائنات الحية كما نشأت على الأرض؟

إنهم لم يناقشوا ذلك، ولم يبحثوه.

ثالثا: الأحماض الأمينية التى تكونت فى تجربة ستانلى ميللر، تدل على تفاعل كيميائى بين تلك الغازات بوجود الطاقة الكهربائية، فالأحماض الأمينية لم تخلق من عدم، فضلا عن أن تلك الأحماض الأمينية التى نتجت عن تلك التجربة كانت أحماضا ميتة لا حياة فيها. ولا يمكن أن تنشأ مخلوقات حية تلقائيا من مواد ميتة. فالحياة لا بد أن تنشأ من حياة. فمن بث الحياة فى الكائنات الحية على الأرض؟

إنها ثلاثة أسئلة لم يستطع أصحاب تلك النظرية أن يجيبوا عليها، وأى نظرية تفشل فى الإجابة على أسئلة تتعلق بموضوع البحث، لا يمكن أن تكون صحيحة أبدًا.

اعتقد بعض الفلاسفة منذ عصر الإغريق أن الحياة نشأت فى الأرض تلقائيًا، وبرهنوا على زعمهم هذا باعتقاد علمى مخطئ، وهو نشأة الذباب من المواد المتحللة تلقائيا، وقالوا: إن ما حدث لنشأة الذباب حدث لنشأة كل الأحياء على الأرض.

وظل هذا الاعتقاد المخطئ فى نظر المفكرين والعلماء صحيحا عشرين قرنا من الزمان، من القرن الثالث ق م إلى القرن السابع عشر الميلادى. حتى توصل العالم الإيطالى ردى Redi فى القرن السابع عشر، إلى اكتشاف دورة حياة الذباب، وأن الذباب لا ينشأ تلقائيا من المواد المتحللة، ولكن الذباب يضع بيضه بين المواد المتحللة فيفقس البيض وتخرج منه اليرقات. ومن اليرقات تخرج الحشرات، التى تتزاوج وتضع الإناث بيضها بين المواد المتحللة. وهكذا تستمر دورة حياة الذباب. وثبت للعلماء بعد القرن السابع عشر أن الحياة لابد أن تنشأ من حياة.

لذلك فكر العلماء فى نظرية جديدة تكشف سر نشأة الكائنات الحية البدائية. فخرجوا بما سموه «النظرية الكونية» Cosmic theory وهى نظرية تزعم أن الحياة نشأت على الأرض. من جراثيم حية وصلت إلى الأرض من كواكب أخرى، بثت الروح فى المواد العضوية فى البحار البدائية. ومن ذلك نشأت أنواع الخلائق الأخرى. وواضح لكل ذى عقل سليم أن هذه النظرية ضرب من الخيال. فالجراثيم الحية لا تبث الروح فى الأجسام الميتة فتحييها. ولا يعقل ذلك الوهم مطلقا. وإنما تحدث الجراثيم عمليات التعفن والتحلل فى الأجسام الميتة.

وفضلا عن كل ذلك، فالإشعاعات الكونية والاختلافات الهائلة فى الضغط والحرارة فى الفضاء الكونى، لا تسمح أبدا لأى جراثيم حية بالمرور من كوكب إلى كوكب آخر. ولم يفسروا لنا أيضًا نشأة تلك الجراثيم الحية المزعومة، الآتية من تلك الكواكب المجهولة.

ولما ثبت فشل تلك النظريات عن بدء الخلق، فكروا فى ظنون أخرى بهدف إثبات نشأة الخلق بدون خالق. فافترضوا أن الحياة نشأت فى البحار البدائية، من مركبات عضوية نشأت هى الأخرى تلقائيا وعشوائيا، ثم ما لبثت أن تحولت إلى مواد بروتوبلازمية، ثم دبت فيها الحياة تلقائيا أيضا. ثم تتالت صور الحياة على الأرض بعد ذلك.

ومن الواضح أن كل تلك الظنون لا أساس لها من الصحة. ولا يفكر فيها ويحاول عبثا إثبات صحتها إلا أعداء الدين. تدفعهم عقدة نفسية مرضية، هى عقدة الهروب من الله، ويخبرنا الله تعالى عنهم فى سورة الجن عن لسان الجن أنفسهم يقول الله

عـز وجل: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾، ولقد أخبرنا الله تعالى، عن أولئك الضالين المضلين الذين ينكرون نشأة الخلق بأمر الله تعالى ويتحدثون عن نشأة الخلق بغير عـلم وفهم، وبغير هدى ومشاهدة.

نقـرأ عن ذلك فى سورة الكهف قـول الله عز وجل: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ: الضمير يعـود على إبليـس وذريتــه، وقـيل ترجـع على منـكرى البـعـث ومنكرى وجــود الله تعالى، وكـلا الرأيين صحيـح. فذرية إبليس من شياطين الجن، ومنكـرو البعث بعد الموت من شيــاطين الإنس. ووصـفتــهم الآية بالمضلين.

وفى القرنين الماضيين، ظهر العديد من المفكرين أعداء الدين، ممن حاولوا إثبات نشأة الخلق على أساس الصـدفة والعشـوائية بدون خالق، ومن هؤلاء تشارلز داروين، ولم يكن ذلك الرجل أول من فكر فـى تلك النظريات الإلحادية، فـقد سبـقه الكثيـرون، كان منهم كانـت Kant الألمانى سـنة ١٧٨٦م الذى ألف كـتابا عنـوانه «الأسس الميتـافـيزيقـيـة للعلم الطبيعى»، واستـعرض فى كتابه تلك الظنون والافتراضات، بدون دليل علمى أكيد.

وفـى سـنـة ١٧٩٦م ناقـش المـفـكـر «لاپلاس» نشـأة الخلق من السـديم الكونى، وفى سنة ١٨٣٠م نشر أرازموس داروين وهو جـد تشـارلز داروين كـتابا عـنوانه «معـبـد الطبيعـة» تحدث فيه عن الافتراضـات العلمية عن نشأة الحياة ذاتيا بدون خالق.

وفى أوائل القـرن الماضى ظهـر بيفـون Buffon ولامـارك Lamark وغـيــرهـمـا، وتحدثوا عن النظريات الضالة المخطئة، وكأنها حقائق علميـة، وهـم فى ذلك مخطئون، فلا تكون الحقائق العلمية الثابتة بدون دليل علمى وبرهان صـحـيح، وفى النـصف الثـانى من القرن الماضـى ظهر تشارلز داروين، فى جو مشحـون بكل تلك النظريات الإلحادية، التى تحـارب الدين ورجـال الكهنوت فى أوربا فى تلك العصور، ولعل ذلك كان ردًّ فعل طبيعى لاضطهاد رجال الـكهنوت للعلم والعلماء فى أوربا فى العصور الوسطى.

ولقد ألف هـاركورت بريس Harcourt Brace كـتابه عن تشـالز داروين كـان عنوانه (سيـرة حيـاة داروين) نسب فيـه إلى داروين قوله: (إن العهد القديم عرض تاريخى زائف للعلم وأحـداثه)، وفى ذلـك الدليل على أن داروين كـان ملحـدا، ودليل ذلك أيضـا أنه درس اللاهوت فى جامـعة كامـبردج ليصـير قسيـسا، ولكنه ترك الجامعة بعـد قضاء ثلاثة أعـوام ونسب إليـه قوله: (إنهـا ثلاثة أعـوام ضاعت من عمرى فى دراسة أمور مخطئة من نسج الخيال).

شارل داروين

ولد شارل روبير داروين فى شروبورى فى بريطانيا سنة ١٨٠٩. نال الإجازة فى العلوم الطبيعية سنة ١٨٣١ والتحق فى السنة نفسها ببعثة السفينة الشراعية العلمية بيغل التى توقفت على شواطئ أمريكا الجنوبية ونيوزيلاندا وأستراليا والغالاباغوس. جمع فى أثناء هذه الرحلة قسما من المعطيات التى أتاحت له بعد ذلك بسنين عديدة (١٨٥٩) نشر مؤلفه المشهور «منشأ الأجناس بطريقة الانتقاء الطبيعى» الذى يعرض فيه بدقة ومراجع غنية جدا نظريته عن النشوء والارتقاء.



وفى مؤتمر عقد فى أوربا سنة ١٨٧٩م تحدث هكسلى، وكان من أكبر دعاة نظريات نشأة الخلق تلقائيا، وواجهه بعض الحاضرين بأسئلة لم يستطع أن يرد عليها فقيل له: أنت تقول: إن الغازات والعناصر التى تجمعت تلقائيا نشأت منها الكائنات الأولية، فمن بعث فيها الحياة؟.. ومن أوجد الطاقة؟.. ومن خلق تلك العناصر؟

فبهت هكسلى وأعلن أنه لا يستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة، ولكنه يعتقد أن كل أنواع الخلق نشأت فى البحار البدائية نوعا واحدا من الكائنات البدائية ثم تطورت بعد ذلك إلى أنواع أخرى.

وما قيمة اعتقاده هذا، إن لم يكن مستندا إلى دليل علمى ثابت، وبرهان علمى صحيح.

نظرية الصراع
من أجل البقاء للأقوى

معظم النظريات القديمة عن بدء الخلق، تؤكد أن الحياة ابتدأت فى البحار البدائية من مواد بروتوبلازمية، ولا ندرى على أى دليل بنوا هذا التأكيد، وفى رأينا أن تلك النظريات عن نشأة الحياة فى الماء مجرد ظن لا يرتقى حتى إلى مستوى النظرية العلمية. والصحيح أن الحياة لم تخلق فى الماء، وإنما خلقت من ماء. وحدثت كل العمليات الحيوية من ماء. فالخلق من ماء وليس فى الماء.

نقرأ عن هذه الحقيقة (سورة النور] فى قول الله عز وجل:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

وفى [سورة الفرقان] يقول الله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ فالخلق كان من الماء وليس فى الماء كما كان الفلاسفة فى العصور الماضية يعتقدون، وكما يعتقد من ينقل عنهم فى زمننا هذا أيضا، لقد ذكر القرآن الكريم أن خلق الدواب وخلق الإنسان من الماء، ولم يبدأ الخلق فى الماء، وورد ذلك فى الحديث النبوى أيضا، فقد روى الإمام أحمد عن قتادة عن أبى ميمونة أن أبا هريرة - رضى الله عنه - قال: يا رسول الله أنبئنى عن كل شيء فقال رسول الله ﷺ: «**كل شيء خلقه الله عز وجل من ماء**».

وفى سنة ١٨٥٩م نشر داروين كتابه عن أصل الأنواع، وجعل أساس نظريته فكرة الصراع من أجل البقاء للأقوى، وزعم أن ظروف البيئة القاسية تقضى على الأجناس الضعيفة، ويظل الجنس الأقوى، واتخذ من تجارب الانتخاب الاصطناعى على الحيوانات والنباتات دليلا على صحة نظريته، وما دامت أجناس حيوانية قد نشأت من تجارب الانتخاب الاصطناعى فقد استنتج أن نفس الشيء يحدث فى الأحياء الأخرى بالانتخاب الطبيعى أيضا، ومن قبل كان المفكر الفرنسى جان لامارك الذى نشر سنة ١٨٠٩م كتابه (فلسفة علم الحيوان) وذكر فيه أن الإنسان لم يكن إنسانا فى بدء الخلق، وإنما كان نوعا آخر أحط منه فى عالم الحيوان، ثم تطور خلقه بعد ذلك فصار إنسانا، وفى نفس هذه الأفكار كتب هربوت سبنسر سنة ١٨٥٢م، واقتنع أولئك الناس بصحة فكرة الصراع من أجل البقاء للأقوى، وساقوها دليلا على صحة نظريات النشوء والارتقاء والتطور وأصل الأنواع.

وعندما تقدم العلم بعد ذلك، توصل العلماء إلى أنه لا يوجد صراع من أجل البقاء للأقوى، ولكنه توازن حيوى فى البيئات

الحيوية، ونضرب لهذا مثلا بالبكتريا، إنها تتكاثر بمعدل سريع جدا، ولو أنها تركت تتكاثر دون أن تموت شهرا واحدا، لغطت سطح الكرة الأرضية كلها بعمق عشرات الأمتار، وبالتالى ما بقى لأى كائن حى غيرها أى فرصة للحياة على هذه الأرض. ولكن الله تعالى قيض للبكتريا مخلوقا آخر يقتلها هو ڤيروس صغير جدا يسمى البكتريوفاج، يخترق البكتريا ويتكاثر داخلها بالمئات فتموت البكتريا وتنفجر، وتنطلق منها مئات الڤيروسات، التى تهاجم البكتريا الأخرى وتهلكها بسرعة تتناسب مع سرعة تكاثرها. وبذلك يظل التوازن الحيوى قائما فى عالم البكتريا وعالم الڤيروسات وعالم الكائنات الحية الأخرى.

ومثال آخر حيوان وحيد الخلية فى البحار هو والباراميسيوم، يعيش على افتراس براغيث البحر، فإذا زاد عدد الباراميسيوم، افترست براغيث البحر فيقل عددها، حينئذ لا تجد الباراميسيوم غذاء لها فيموت معظمها، وهذا يعطى الفرصة لبراغيث البحر للتكاثر مرة أخرى فتزداد عددا، فتجد الباراميسيوم غذاء وفيرا فتتكاثر ويزداد عددها. وهكذا يحدث توازن حيوى بين براغيث البحر والباراميسيوم، إذا زاد عدد هذا قل عدد ذاك، وإذا زاد عدد ذاك قل عدد هذا. ونفس الشىء يحدث بين الثعالب والأرانب فى المراعى البرية. إذا زاد عدد الثعالب، افترست الأرانب، فيقل عددها، حينئذ لا تجد الثعالب غذاء كافيا فيموت معظمها. فتأتى الفرصة للأرانب للتكاثر مرة أخرى. فتجد الثعالب الغذاء وفيرا وتتكاثر عددا، وتفترس الأرانب فيقل عددها، وهكذا. إنه توازن حيوى بين أنواع الحيوانات جميعا، بحيث لا يزيد نوع منها على حساب نوع آخر، ولا يطغى نوع منها على نوع.

والحيوانات وحيدة الخلية أو عديدة الخلايا، أو الأرانب والثعالب، أو غيرها من سائر الحيوان، لا تعى ولا تفكر، ولا ترى فى فريستها إلا طعاما لها. فالافتراس لديها فطرة وغريزة لتناول الطعام، تماما كما نرى نحن فى لحم الدجاج طعاما لنا، وليس معنى ذلك أننا دخلنا مع الدجاج فى صراع من أجل البقاء للأقوى.

إن فكرة الصراع من أجل البقاء للأقوى، فكرة لا وجود لها فى عالم الخلائق جميعا، ولا توجد هذه الفكرة، إلا فى ذهن مخلوق واحد فقط، مُنح العقل والاختيار من دون الخلائق جميعا، وهو الإنسان. وقد يمارس الإنسان الصراع من أجل البقاء ليس فى افتراس الدجاج والخراف طعاما له، ولكن فى دخول الحروب ضد الغير، وسلب حقوق الغير، والاستئثار بها. أما ما عدا الإنسان من خلائق، فهى لا تفكر ولا تعقل، وإنما تقودها الغريزة وتوجهها الفطرة، وفطرة الخلق لم تؤسس على الصراع من أجل البقاء بين الخلائق، وإنما هو توازن حيوى فى فطرة الخلق لا تستقيم الحياة إلا به، ولا تستمر بدونه، ومن غير المعقول أن يكون الصراع من أجل البقاء للأقوى، هو الحافز للجراثيم مع غيرها من الكائنات ولا للحشرات مع غيرها

من الخلائق، فهى لاتعقل شيئا، وليس لديها طاقة اختيار، إنما هو توازن حيوى، قدره الله تعالى لتستمر فرص الحياة، لجميع الخلائق، وتستمر الأنواع، ولا تنقرض وتنتهى.

ولقد تأثر معظم المفكرين فى القرن الماضى بفكرة الصراع من أجل البقاء للأقوى. حتى أنها أثرت على العلوم الأخرى. فنجد سيجموند فرويد مثلا، قد أسس فكرة العلاج بالتحليل النفسى، على اعتقاده أن الأمراض النفسية إنما تنشأ من الصراع بين الشعور واللاشعور، وظهرت أيديولوچيات سياسية واقتصادية مثل النظريات المادية الجدلية، وقد أسست على فكرة الصراع بين الطبقات فى المجتمع، واعتقد الناس أن الوجود كله إنما بنى على الصراع من أجل البقاء، وهذا ظن مخطئ، فالوجود ليس قائما على الصراع، ولكن على توازن دقيق بين الخلائق وبيئاتها جميعا.

ولم تأت كلمة «صراع» فى القرآن، ولا فى الحديث النبوى، فى سياق الحديث عن حقائق الخلق. وإنما جاءت كلمة «الوزن»، «الميزان»، «الموزون». فالخلق كله، وفطرة الخلق جميعها، ليست قائمة على الصراع، ولكن على التعادل والتوازن، كما أخبرنا الله تعالى فى سورة الحجر فى قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾.

إن أى نوع من الخلق، إنما هو من توازن محكم. ومن هنا كان خطأ المفكرين فى هذا الموضوع، وخطأ أصحاب نظريات النشوء والارتقاء والتطور وأصل الأنواع. ومن هذا الخطأ فى الفكر، دخلوا فى متاهات أخرى من الأخطاء، وخرجوا بأفكار ليس لها من الصحة أى نصيب.

التطور فى خلق الإنسان

اعتقد علماء التطور، بناء على احتمالات وافتراضات بدون دليل علمي ثابت وأكيد، اعتقدوا أن التطور الذى حدث فى خلق الإنسان استغرق ستة عشر مليونا من السنين.

وزعموا أن الإنسان الحالى، انحدر من نوع من القرود أقل منه تطورا فى الماضى البعيد، وقال عالم هولندى يدعى ديبوا أن الإنسان القرد عاش فى جاوة، وأنه اكتشف أحفورة له هناك سنة ١٨٩١م، واكتشف كنجز ڤالد Koenigs wald أحافير أخرى للإنسان القرد فى جاوة أيضا. وأطلق عليه اسم «الرجل القرد الثانى» وافترض أنه الحلقة المفقودة بين الإنسان الحديث، والنسانيس الموجودة الآن، ولاحظ العلماء فى الأحافير فى صخور الأرض تطورا فى صورة الأجسام، فظنوا أن الخلائق جميعا نشأت من نوع واحد، ثم ما لبثت أن تطورت أنواعا مختلفة، وسلالات شتى. وإننا لا نتفق مع أولئك الناس. فلا تُبنى حقائق العلم إلا على أدلة ثابتة، ولا تبنى على افتراض، ولا تؤسس على ظن. والذى يتحدث عن التطور فى الخلق، ينبغى عليه أن يضع حقائق علم الوراثة حكما وفيصلا.

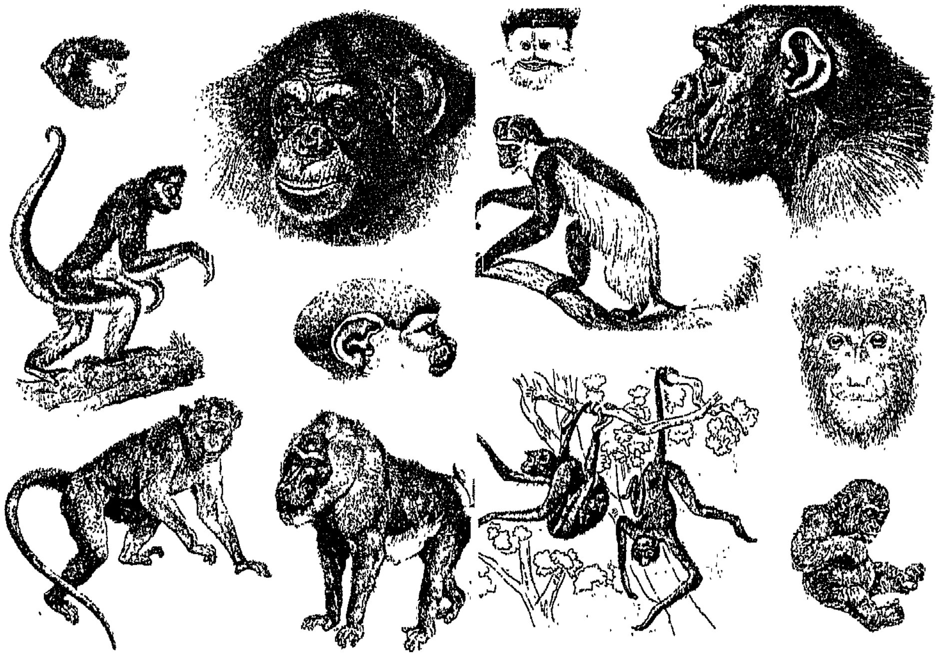
ولم يكتشف العلماء حقائق علم الوراثة على الحيوان إلا فى أوائل هذا القرن ولم تكتشف تلك الحقائق فى خلايا الإنسان، إلا فى مطلع النصف الثانى من هذا القرن، منذ نحو أربعين سنة فقط، فأى حديث عن التطور الذى لحق بالإنسان قبل ذلك التاريخ إنما هو حديث ظنى، غير مبنى على أى حقيقة علمية، وإنما على افتراضات أو مشاهدات لا ترتقى إلى درجة الدليل العلمى الأكيد.

ولقد اعتمد علماء التطور فى نظرياتهم على الأحافير، والأحافير هى تحول المواد العضوية في الأجسام الميتة المطمورة تحت التربة، إلى مواد صخرية أو معدنية. وقد تظهر عدة أحافير تختلف حجما وشكلا لنوع واحد من المخلوقات ماتت جميعا فى زمن واحد، وإنما يرجع الاختلاف فى أحجامها وأشكالها إلى الاختلاف فى أعمارها عند موتها، فقد نشاهد أحفورتين كانتا لرجل وابنه، فهما تختلفان حجما وشكلا. ونخطئ إذا قلنا أن فى هاتين الأحفورتين الدليل على التطور الذى حدث للإنسان. صحيح أن العلماء فى استطاعتهم تحديد عمر الأحفورة. ولكن لا يمكن الاعتماد على مشاهدة الأحافير فى إقامة حقائق علمية فى مجال التطور وأصل الأنواع.. إذن فنظريات أصل الأنواع لا ترتقى إلى درجة الحقيقة العلمية.

ولقد تحدث كثير من المفكرين فى موضوع التطور فى الخلق، وخاصة تطور

خلق الإنسان. ولقد عارضه البعض وتحمَّس له البعض الآخر. وقال المعارضون: إن التطور فى الخلق ليس حقيقة علمية، وما زال الحديث فيها فى طور النظريات التى تحتمل الخطأ والصواب، ولسوف يثبت العلم مستقبلا أنها كانت على خطأ. وقال آخرون: إن نظريات التطور تتعارض مع الدين. وإن القرآن يرفضها جملة وتفصيلا. أما المتحمسون لهذه النظريات فيقولون: إنه من الخطأ أن ننكر التطور فى الخلق، فقد أثبتته الأحافير وعلم طبقات الأرض، وعلم الإنسان، وعلم الأحياء. ولا يخلو كتاب علمى فى الأحياء من الإشارة إلى التطور فى الخلق. ويقولون: إن الذين يقحمون الدين وينسبون إليه معارضته للتطور فى الخلق، إنما يضعون الدين فى حرج، ويضعون القرآن الكريم فى حرج أيضا، فمن المحتمل جدا أن تكتشف فى المستقبل أدلة قاطعة، وبراهين أكيدة، تثبت حقيقة التطور، فيكونون بذلك قد نسبوا إلى الدين وإلى القرآن العظيم، ما هو برىء منه.

واختلط الأمر على بعض المفكرين، فظنوا أن الفكر الوجودى لنشأة الخلق نظرية واحدة. والواقع أنها نظريات مختلفة، منها نظرية نشأة الخلق بطريق الصدفة فى البحار البدائية، ومنها نظرية أصل الأنواع التى تزعم أن المخلوقات الحية جميعا نشأت من الكائنات الحية البدائية فى البحار الأولى، ومنها نظريات التطور المبنية على المشاهدات



أنواع القردة فى العصر الحالى، والتى اعتقد علماء التطور أن الإنسان نشأ منها... وكان ذلك خطأ فادحا وقعوا فيه.. وأثبت علم الوراثة الحديث أن الإنسان نشأ إنسانا وسيظل إنسانا، وأن القرد نشأ قردا وسيظل قردا.. وهكذا باقى المخلوقات.

القـرآن يرفـضـهـا جملـة وتفصـيـلا. أمـا المتحـمسون لهـذه النظريات فيـقولون:إنه من الخطأ أن ننكر التطور فى الخلق، فـقد أثبتـته الأحـافـيـر وعلم طـبـقـات الأرض، وعلم الإنسـان، وعلم الأحيـاء. ولا يخلو كتـاب علمى فى الأحياء من الإشارة إلى التطور فى الخلق. ويقـولون:إن الذين يقـحمـون الدين وينسبون إليه معارضته للتطور فى الخلق، إنما يضعـون الدين فى حـرج، ويضعون الـقرآن الكريم فى حرج أيضا، فمن المحتمل جدا أن تكتـشف فى المستقبل أدلة قاطعـة، وبراهين أكيدة، تثبت حقـيقة التطور، فيكونون بذلك قد نسـبوا إلى الدين وإلى القـرآن العظيم، ما هو برىء منه.

واخـتلط الأمر عـلى بعض المفكرين، فظنوا أن الفكر الوجـودى لنشـأة الخلق نظرية واحدة. والواقع أنهـا نظريات مختلفـة، منها نظرية نشأة الخلـق بطريق الصدفة فى البـحار البدائية، ومنها نظرية أصل الأنواع التى تزعم أن المخلوقات الحية جميعا نشأت من الكائنات الحيـة البدائيـة فى البـحـار الأولى، ومنهـا نظريـات التطور المبـنيـة على المشـاهدات والاسـتنتـاجـات. ويقـول علمـاء التطور:إن الإنسان ابـتدأ فى التطور منذ أكـثر من سـتة عشـر مليـونا من السنين، ابتداء من الإنسـان القرد، وأن الإنـسان الحالى ليس هـو الصورة النهائيـة للإنسان، فـسوف تستـمر عـمليات التطور فيـه، وأنه بمرور مـلايين السنين قـد يصير خلقا آخر، يختلف كـثيرا عما هو عليه الآن.

وفى رأينا بنـاءً على دراسـة الحـقـائق العلميـة فى مختلف فـروع العلم، وبناء على ما استجد من حـقائق علم الوراثة فى عصرنا هذا مما لم يكن معروفـا من قبل، وبناءً على فـهـمنا لبـعض مـا فى الآيات القـرآنيـة والأحـاديث النبـوية من علم، نقـول:إنه بناءً على كل ذلك، لا نعترض على قضية التطور فى الخلق. ونقول:إن التطور فى خلق الإنسان حقيـقة ثابتة لا شك فيـها. إلا أننا لا نوافق أصـحـاب تلك النظريـات على تفـسـيـرهـم المخطئ لهـا، وفهـمهم للتطور على أسـاس نظرية أصل الأنواع.

إن التطور تحكمه قـوانين ثابتة فى علم الوراثة، لم تكتـشف إلا فـى النصف الثـانى من هذا القرن. ولا يمكن أن تكون الحيوانات جميـعا قد نشأت فى بدء الخلـق، من حيوان وحيـد الخلية، فى البـحار البدائيـة كالأميـبا البـارامـيسـيـوم واليـوجلينا، ولو كـان هذا صحـيحـا، فمـا بال الأميـبا الـبارامـيسـيوم واليوجلينا ما زالت فى البـحار والأنهار حتى يومنا هذا، لم تتغير ولم تتطور إلى نوع آخر من الخلق؟ ولقد افـترضوا افـتراضات تفـسر هذا على أسـاس الطفرات الوراثيـة، إلا أنها افتـراضات لا تقنع عالما؛ لأنـها لا تزيد على كونهـا ظنا، وقالوا:إن الإنسان كـان من قبل قـردا منذ مـلايين السنين، وإذا كـان هذا صحيحا، فمـا بال القرود مازالت قرودا حتى يومنا هذا ولم تتحول إلى أناسى؟

لابد أن للأمـر وجها آخـر، لم يفطن إليه علماء النشوء والارتقاء.

إن التطور فـى الخلق لا ينكره إنسـان عالم، فـهو حقـيقة فى خلق الكائنات الحـية

جميعا، وهو حقيقة فى خلق الإنسان نفسه، ومما لا شك فيه أن الإنسان بدأ خلقه إنسانا عملاقا كما بينت أحافير جاوة التى اكتشفها ديبسوا Debois سنة ١٨٩١، ثم تطور شكله الخارجى وتطورت ملامحه، وتطور من الطول إلى القصر، حتى صار إلى ما هو عليه الآن.

إن التطور فى خلق الإنسان - كما حدث فى خلق أى كائن حى آخر - هو تطور فى الشكل الخارجى، وفى اللون، أو الملامح، أو الطول، أو القصر.. فالإنسان قد تطور شكله عبر مئات الألوف من السنين، وذلك بسبب طفرات فى العوامل الوراثية، كانت هى المسئولة على التغير الذى حدث فى بعض الصفات الخلقية فى الجسم، ولكنها لم تغير نوع الخلق قط، ودليل صحة اعتقادنا هذا ما اكتشفه علم الوراثة فى عصرنا هذا، وما جاء فى الحديث النبوى، الذى رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال:

«خلق الله عز وجل آدم عليه السلام على صورته طوله ستون ذراعا» إلى قوله ﷺ: **«فكل من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله ستون ذراعا فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن»** على صورته: الضمير عائد إلى آدم، وجاء فى التفسير أن المراد أن الله خلق آدم على الصورة التى كان عليها فى الأرض وكان طوله ستين ذراعا، وكانت صورته فى الجنة هى صورته على الأرض لم تتغير.

ونفهم من الحديث النبوى أن الإنسان خلق إنسانًا من غير مثال سابق، وأنه كان ستين ذراعا فى الطول ومازال ينقص فى الطول حتى صار الآن ذراعين تقريبا، وربما كانت أحافير جاوة العملاقة التى اكتشفها ديبسوا سنة ١٨٩١ لإنسان بدائى ولم تكن للإنسان القرد كما ظن، ولا يمكن أن نقطع بنوع المخلوق إلا بعد دراسة خلاياه من الناحية الوراثية، وهذا لا يتأتى أبدًا فى دراسة الأحافير الصخرية. إن التطور فى الشكل الخارجى، وفى الصفات الخلقية حقيقة لا شك فيها. فالإنسان فى وسط أفريقيا، يختلف شكلا وطولا ولونا عن إنسان أوربا، وهذان يختلفان كثيرا عن إنسان شرق آسيا، أو إنسان من الإسكيمو، إذن فهناك ثبات فى خصائص الخلق مع تطور فى الصفات الخارجية، وبعض الصفات الخلقية الأخرى، وكان ذلك الاختلاف فى الصفات بسبب الطفرات الوراثية التى تسبب التغير فى الصفات الخلقية، ولكنها لا تسبب أبدا التغير فى نوع المخلوق مهما طال الزمن، ومهما مرت السنوات.

ومن هنا نشأت السلالات الخمس الكبرى للجنس البشرى، وهى السلالات القوقازية والزنجية والمغولية والهندية الأمريكية والأسترالية. وإننا إذا نظرنا إلى أى إنسان من أى سلالة من هذه السلالات البشرية، لوجدناه مختلفا كثيرا عن أى إنسان من أى سلالة أخرى، وكأنهما نوعان مختلفان من المخلوقات لا يمتان بصلة إلى نوع واحد. إلا

أن الاختلاف ظاهرى. فهم جميعا من نوع واحد من الخلق هو نوع الإنسان. وإذا أخذنا خلية من إنسان فى كل سلالة من السلالات الخمس وفحصناها وراثيا، لوجدنا أن النظام الوراثى والشفرة الوراثية متطابقة فى الجميع، لا تفاوت بينها ولا اختلاف، اللهم إلا فى بعض الصفات الوراثية، الموجودة على الشفرة الوراثية فلم يحدث أى تطور فى النظام الوراثى فى خلق الإنسان كنوع من الأنواع، وإنما الذى حدث هو تغيرات فى بعض العوامل الوراثية أو الجينات، وذلك بسبب ظروف بيئية أو طبيعية أو جغرافية، وبذلك يتوافق الإنسان مع بيئته التى يعيش فيها، ويتفق معها.

البشر جميعا من نوع واحد فى الخلق، منذ آدم إلى اليوم. ولم يخلق الله تعالى آدم على مثال سابق، أو من نوع آخر من الخلق، كما زعم أصحاب نظريات أصل الأنواع والنشوء والارتقاء. ولو اطلعوا على حقائق الوراثة كما نعرفها نحن اليوم، لغيروا آراءهم تماما، ولرجعوا عما كانوا يعتقدون.



حيوانات وحيدة الخلية (الأوليات) فى البحار والتى ظن علماء التطور قديما أن كل المخلوقات الحية نشأت منها.. وقد أثبت علم الوراثة الحديث خطأ تلك الظنون.. ولازالت تلك الأوليات موجودة حتى اليوم، ولم تتطور فى خلقها منذ ملايين السنين.

خلق آدم

فى تاريخ كل إنسان، أب وأم، ما عدا ثلاثة من البشر: آدم، وزوجه، والمسيح عيسى ابن مريم، لم يكن للمسيح أب، ولم يكن لزوج آدم أم، ولم يكن لآدم أم ولا أب. ويبتدئ خلق الإنسان فى الدنيا نطفة فى رحم أمه، وتحمل خلايا هذه النطفة عوامل الوراثة من كل من الأب والأم. ففى كل البويضة من الأم، والحيوان المنوى من الأب، ثلاثة وعشرون كروموسوما تحمل عوامل الوراثة ويتحدان معا، ويكونان النطفة التى تحمل ستة وأربعين كروموسوما يحمل عوامل الوراثة من كل من الأب والأم.

وتظل العوامل الوراثية - التى تتحكم فى الصفات الوراثية الخلقية فى الجسم - تنتقل من جيل إلى جيل، وقد تحدث طفرات وراثية - أى تغيرات فى عوامل الوراثة - فى أحد الناس - لسبب أو لآخر - فتظهر صفة خلقية جديدة لم تكن موجودة فى الجيل السابق، ولكنها تورث للجيل اللاحق. ومهما ظهرت من طفرات وراثية فإن النظام الوراثى والشفرة الوراثية فى نواة كل خلية بالجسم، تظل ثابتةً ومميزةً للنوع، ولا تكون فى نوع آخر من المخلوقات، ولا تتطور إلى سواه.

نأخذ مثلا صفة لون الجلد، أو لون الشعر، أو لون قزحية العين، أو طول الجسم أو قصره أو شكل الأنف أو الشفتين، إنها جميعا صفات وراثية، تختلف من جنس من البشر إلى جنس آخر، أو أنها تختلف حتى بين الأفراد فى الجنس الواحد، وذلك بسبب حدوث طفرات وراثية، حدثت فى جيل من الأجيال، ثم توارثتها الأجيال من بعد ذلك، واختلاف صفة من الصفات الوراثية فى نفس النوع، من أعجب أسرار الخلق، ومن أكثرها إعجازا، ونقرأ عن ذلك فى سورة الروم فى قوله الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ فهى من آيات الله، التى لا يدرك ملامح الإعجاز فيها إلا العلماء.

ولا تتماثل العوامل الوراثية فى نوع الخلق، مع العوامل الوراثية فى نوع آخر من الخلق. فكل نوع من الخلائق يحمل عوامل وراثية يتميز بها، وليست موجودة فى نوع آخر. وبهذا النظام الوراثى المحكم تحتفظ الأنواع بخصائصها العامة، ولا تتطور إلى نوع آخر من الخلق أبدا.

ومع اختلاف النظم الوراثية فى أنواع الخلائق، إلا أنها جميعا مؤسسة على نفس التصميم البنائى، ونفس الفطرة، ووحدة النظام والفطرة فى الخلائق جميعا، يدل على وحدانية الخالق تعالى.

مما سبق نفهم أن فى كل جسم بشرى خلايا، وفى كل خلية شفرة وراثية مميزة للنوع البشرى كله، ولا يمكن مهما حدث فيها من طفرات وراثية - أن تكون قد تطورت من نوع آخر من الخلق، ولا يمكن أيضا أن تتطور فى مستقبل الزمن، إلى نوع آخر من الخلق، فالإنسان خُلق إنسانًا وسيظل إنسانا، والقرد خلق قردًا وسيظل قردًا، والحصان خلق حصانًا وسيظل حصانًا، وكذلك باقى الخلائق، وقد تختلف الصفات الخلقية فى البشر على مر الآلاف من السنين، فتختلف بعض ملامح الجسم فى الإنسان القديم عن الإنسان الجديد، ولكن لا يختلف النوع أبدًا، فذلك مستحيل علميًّا.

ومادام كل إنسان يحمل فى خلايا جسمه شفرة وراثية بشرية، انتقلت إليه وراثيًّا من آبائه وأجداده، فإننا إذا عدنا إلى الماضى البعيد جدًّا، وقفنا عند رجل وامرأة لم يكن قبلهما أب ولا أم، وليس هناك احتمال علمى آخر.

والله تعالى يخبرنا بأن آدم أول إنسان على هذه الأرض، وفى سورة البقرة يقص علينا الله - عز وجل - قصة خلق الإنسان الأول فيقول جل جلاله:

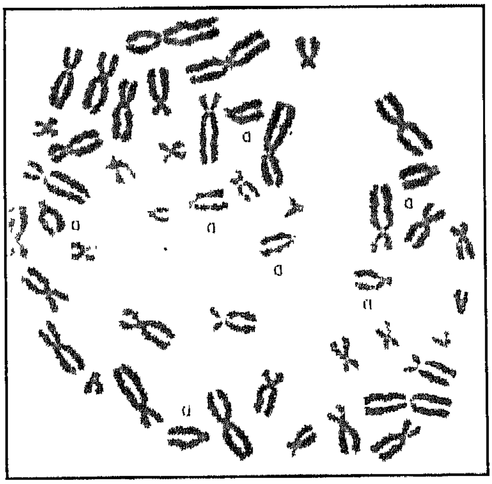
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾، وتتحدث الآيات بعد ذلك عن قصة خلق آدم، ودخوله الجنة، ما حدث له فيها من أحداث.

وروى الترمذى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله خلق آدم من قبضة من جميع الأرض**»، إلى آخر الحديث الشريف.

وقال رسول الله ﷺ أيضا: «**كلكم لآدم وآدم من تراب**».

و«آدم» اسم مشتق من أديم الأرض، فسُمى آدم بما خلق منه. وشاءت إرادة الله تعالى أن يخلق جسم آدم طورًا بعد طور، ولم يخلقه فى لمح البصر، والله عز وجل قادر على ذلك فهو القائل: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر]، فكان خلق آدم أطوارًا من التسوية يعقب بعضها بعضا، ولم يشهد أحد من البشر خلق السماوات والأرض ولا خلق آدم، فينبغى إذن على أى إنسان يتحدث عن خلق آدم، أن يتحدث من خلال مصدر العلم الوحيد عنه، وهو الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى، وليس هناك مصدر آخر للعلم عن ذلك مطلقا.

ولقد أخبرنا القرآن العظيم عن مراحل خلق آدم وأطوار تسوية جسمه. خلق أولا



من تراب ثم من ماء فكان الطين.. كما قال الله تعالى في سورة السجدة: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ وتُرك الطين أجلا معلوما حتى صار طينا لازبا - أي شديد التماسك - كما أخبرنا الله تعالى في سورة الصافات ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴿١١﴾﴾.

وتُرك جسد آدم زمنًا معلومًا حتى صار صلصالا من حمأ مسنون، والحمأ: الطين الذي تغير لونه واسودّ، والمسنون: المصبوب ليبس، ويقال سَنّ الشيء؛ أي صبّه، نقرأ عن ذلك في سورة الحجر في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾.

وبعد هذا الطور من الخلق، مضى أجل مسمى عند الله تعالى، حتى صار الحمأ المسنون صلصالا كالفخار، نقرأ عن هذه الحقيقة في سورة الرحمن في قول الله عز وجل: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

وبعد تمام تسوية جسد آدم، واكتمال أطوار خلقه، نفخ الله تعالى الروح فيه، فصار بذلك بشرًا سويًا، نقرأ عن هذه الحقيقة في سورة الحجر في قول الله - جل جلاله -: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾. وسُبق فعل نفخ الروح بحرف الواو فقال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، والواو تدل على التتابع مع التراخي في الزمن، ونفهم من ذلك، أن زمنًا طويلا قد مضى بعد تمام تسوية جسد آدم إلى نفخ الروح فيه، وإلى سجود الملائكة له.

وكان سجود الملائكة لآدم بعد نفخ الروح فيه، تكريما من الله تعالى للروح وتشريفًا لها. فسجود الملائكة لآدم كان سجود تكريم لا سجود عبادة.

وفي سورة الأعراف يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴿١١﴾﴾.

تخبرنا الآية الكريمة، أن الله تعالى خلقنا جميعا وصورنا في صلب آدم، وبعد نفخ الروح في جسم آدم صار بشرًا سويًا. حينئذ أمر الله تعالى ملائكته بالسجود لآدم، تكريما للروح التي نفخها فيه.

ولابد أن يكون خلق جسم آدم من خلايا، وفي كل خلية شفرة وراثية بشرية، فيها كل خصائص الجنس البشري، وليس هناك احتمال علمي آخر. ونلاحظ أن ضمير المخاطب في الآية، يعود علينا نحن بني آدم، فالله تعالى يخاطبنا بالقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ ثم يقول بعد ذلك: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾، وفي ذلك الدليل على أن الله تعالى أودع كل خلقنا نحن البشر - والمخاطبين في الآية - في جسم آدم الذي أسجد الملائكة له.

ولقد كان آدم عليه السلام نبيًا، ولم يذكر القرآن الكريم آدم بهذه الصفة. ولكنه يخبرنا أن الله تعالى خاطب آدم وتحدث معه، وفي ذلك دليل نبوته. ولقد ذكرت السنة النبوية نبوة آدم. فقد روى أبو ذر رضي الله

عنه قال: قلت يا رسول الله أكان آدم نبيًّا مرسلا قال: نعم.

إذن فآدم كان نبيا مرسلا، ودليل نبوته أن الله تعالى خاطبه وأمره ونهاه. ودليل نبوته الحديث النبوى الذى ذكرناه. ودليل نبوته أيضا أن الله تعالى علمه الأسماء كلها وأعطاه منهج الدين القيم. وقد يقال: وكيف يكون آدم نبيا رسولا، ولم يكن إنسان غيره على الأرض؟

نقول: إن الله تعالى لم يجعله نبيا إلا بعد أن أخرجه من الجنة إلى الأرض مع زوجه وتلقى من ربه كلمات، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴿٣٨﴾ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴿٣٩﴾ ﴾.

وأين خلق الله تعالى آدم؟.. الحديث النبوى الشريف يخبرنا أنه خلقه من تراب هذه الأرض، فآدم خلق فى الأرض، ولكن فى أى مكان فى هذا العالم؟ يقول بعض المفكرين: إنه خلق فى الهند، وقال آخرون فى بلاد النهرين، ولكن كل هذه ظنون؟. والحقيقة أن أحدًا من الناس لم يشهد خلق آدم، فكيف يتحدث إنسان فيما لم يشاهده، ويخبرنا الحديث النبوى أن الله تعالى خلق آدم على جبل عرفات، وذلك فيما رواه الإمام أحمد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعنى عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قائلا: ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**».

وهذا الحديث النبوى الشريف تفسير لقول الله عز وجل فى سورة الأعراف: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** ﴿١٧٢﴾ ﴾.

فعلى جبل عرفات حدث هذا الحدث العظيم، حدث خلق آدم وإخراجُ كل ذريته - أى الجنس البشرى كله - ونَشْرهم بين يدى الله عز وجل كالذر. وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى. فردت الملائكة قائلين: شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين.

وقد يقول إنسان: إننى لا أذكر ذلك أبدا، ونقول له: وهل تذكر ما حدث لك وأنت فى بطن أمك جنينًا؟ فإذا كنت لا تذكر ما حدث لك وأنت حى، فى بطن أمك جنينًا، فليس بعجيب ألا تذكر ما حدث لك يوم خُلق آدم على عرفة. وإن كان الإنسان ينسى ذلك، فإن فطرة خلقه لا تنسى. فمعرفة الإنسان بربه وشهادته بذلك هى من فطرة خلقه التى فطر الله خلقه عليها.

لماذا لم يسجد إبليس لآدم؟

خلق الله تعالى آدم من تراب هذه الأرض، وخلقه أطوارًا. وبعد أن سواه ونفخ فيه من روحه، أمر الملائكة بالسجود له، سجود تكريم للروح التى نفخها فيه لا سجود عبادة، فانصاعوا جميعا لأمر ربهم إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه، كما فى سورة الكهف الآية ٥٠ فى قول الله عز وجل:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾.

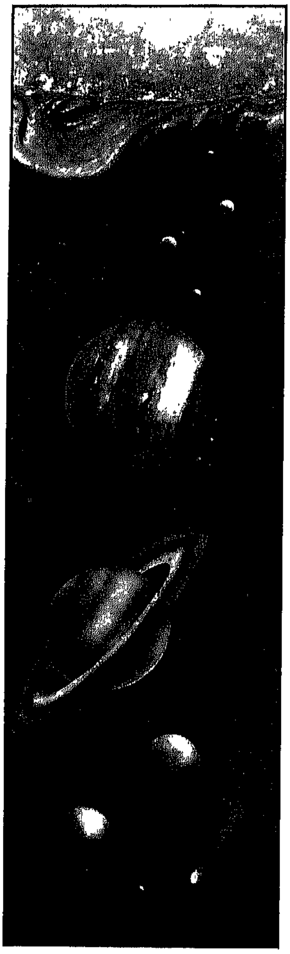
قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، كلام مستأنف، يجرى معنى التعليل بعد استثناء إبليس من الساجدين لآدم، فهو جواب لسؤال: ما له لم يسجد إذ أمره ربه؟

فكان الجواب: كان من الجن ففسق عن أمر ربه، لأنه لو كان ملكًا ما عصى ربه أبدًا، لأن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم.

ولماذا لم يسجد إبليس لآدم إذ أمره ربه؟ نجد الجواب على ذلك أيضا فى سورة الإسراء الآية ٦١ فى قول الله عز وجل:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾، ونجد الجواب أيضا فى سورة الحجر الآيتان ٣٢، ٣٣ فى قول الله تعالى:

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾.



الشمس وكواكبها

ونقرأ من سورة الأعراف قول الله جل جلاله:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (11) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (12)﴾.

نفهم من الآيات الكريمة أن سبب رفض إبليس أن يسجد لآدم، كان بسبب مادة خلق آدم من طين، واعتقاده أنه خُلق من مادة أفضل منها وهى النار.

فما هو الطين الذى خلق منه آدم، ومم يتكون؟ إنه يتكون من ذرات، والذرات متناهية فى الصغر، ولكنها ليست مصمتة، كما كان الناس يعتقدون فى القرنين الماضيين، بل إن الذرة فى حقيقتها فراغ، فالمادة فيها بالنسبة لحجمها $\frac{1}{10 \text{ بلايين}}$ فالذرة تشبه المجموعة الشمسية. فالمجموعة الشمسية مكونة من الشمس وكواكبها فيها فراغ كونى شاسع رحيب، ونسبة المادة الصلبة فى المجموعة الشمسية بالنسبة إلى حجم الفضاء الشمسى كله أكثر من $\frac{1}{10 \text{ بلايين}}$، أى أن المجموعة الشمسية فى حقيقتها فراغ. وإذا شبهنا حجم الذرة بحجم عمارة من عشرة طوابق مثلا، لكانت نواة الذرة فى وسط العمارة فى حجم حبة من الفول، ولكانت الإلكترونات كذرات من الهباء تدور حول العمارة، وإذا افترضنا جدلا أن الإلكترونات انجذبت إلى النواة لصار حجم أى جسم $\frac{1}{10 \text{ بلايين}}$ من حجمه، فلا يكاد يرى.

فالذرة فى حقيقتها فراغ أو غالبيتها العظمى فراغ، وبالتالى فإن جسم الإنسان الذى خلق من طين غالبيته العظمى فراغ، هذه حقيقة لا شك فيها، لذلك كان احتجاج إبليس بسبب مادة خلق جسم آدم وهى الطين، وأن جسم آدم فى حقيقته فراغ أجوف.

ونقرأ فى الحديث النبوى فى ذلك علمًا، فقد روى مسلم عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يُطيف به ينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنه خُلق خلقًا لا يتمالك**»، أى خلقًا ضعيفًا.

فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو: قال أهل اللغة: طاف بالشيء يطوف طوفا أو طوافا، وهو يطيف به إذا استدار حواليه ينظر ما هو.

وقال المفسرون: فلما رآه أجوف: الأجوف صاحب الجوف الذى داخله خالٍ.

وروى الإمام أحمد عن حماد بن ثابت عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لما خلق الله - عز وجل - آدم تركه ما شاء الله أن يدعه فجعل إبليس يطيف به ينظر إليه، فلما رآه أجوف عرف أنه خُلق خلقا لا يتمالك**».

وقال بعض المفسرين: المعنى أن إبليس لما رأى آدم صاحب جوف عرف أنه خلق خلقا ضعيفًا، إلا أننا لا نرى هذا الرأى، فلا توجد علاقة بين جوف الإنسان وضعف

خلقـه، وهل لو خلق الإنسـان بدون جـوف كـان خلقـه أقوى؟ وكـيف عـرف إبليس أن جسم آدم أجوف وهو لم يدخل داخله، وإنما طاف حوله ينظر ما هو. كـما قال رسول الله ﷺ:

«فجعل إبـليس يطيف به ينظر ما هو»،

وعلم إبليـس مـادة الخلق وعـرف، أنهـا من ذرات جـوفاء، وأنه خلقـه كله أجـوف، فى غـالبـيتـه العظمى فـراغ، وأنه خلق خلقًـا ضعيفًا؛ لذلك رفض السجود له محتجًا بمادة خلقه فقال لربه: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾، وقال الله تعـالى أيضا: ﴿قَـالَ أَنَا خَيْـرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾.

ولقد كان إبليس جاهلا بأسرار الخلق، فما كان يعلم أن كل خلق السماوات والأرض من ذرات، والذرات جـوفاء، فكل الوجـود أجوف، واعتقد جهلا منه بالحق أن الخلق من النار أفضل من الخلق من الطين، وما علم أن النار مكـونة من ذرات جــوفـاء أيضـا، لا تختلف عن الذرات التى تكوّن الطين، فساقه جهله وعناده إلى الكفر والضياع.

ولقد غاب عن إبليس أشياء، وارتكب الكثـير من الخطايا، فـفضلا عن جـهله بمادة جسم آدم، ومـادة خلق جسمـه هو، فإن الله تعالى ما أمره بالسجود لآدم كجسد من طين، ولكن أمـره بالسجـود للنفـخة الربانيـة التى أودعها فى جسد آدم، نقرأ عن ذلك فى قول الله تعالى فى سورة الحجر:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣)﴾.

فالله تعـالى أمره بالـسجود لسـبب من الأسبـاب، فرفض السجود لسـبب آخر، ثم نظر إلى مـادة خلق آدم وعـرف أنهـا خلق أجـوف، ولم ينظر إلى مادة خلقـه هو، ولو عرفـها لعلم أنهـا خلق أجوف كـذلك، ولما قال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦)﴾، وأخطأ فى حق ربه وعصى أمـره، وبذلك حق عليـه قول الله تعـالى فى سورة الحجر:

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣)﴾.

أين خلق الله تعالى آدم؟.. ومتى أسكنه الجنة؟.. وما هى الجنة التى أسكنه إياها؟. ولم أسكنه الجنة وأخرجه منها؟. وماذا حدث له في الجنة وبعد خروجه منها؟ لا يستطيع إنسان أن يجيب عن كل هذه الأسئلة.. فلا علم لأحد من الناس بها، فإن الله تعالى لم يُشهد أحدًا من خلقه، خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، كما فى سورة الكهف فى قول الله عز وجل:

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾.

ونجد الإجابة عن هذه الأسئلة فى القرآن والحديث النبوى مجملة تارة ومفصلة تارة أخرى، بما يهم الإنسان فى دينه ودنياه، من أخذ العبرة والدرس، عما حدث بين أول إنسان وبين إبليس؛ لأنها أحداث تحدث كل يوم، من أول آدم وإلى أن تنتهى الأرض ومن عليها، تحدث بين كل إنسان من ذرية آدم، من ذرية آدم، وبين الشيطان من ذرية إبليس. فيطلعنا الله تعالى على قصة آدم، لنأخذ الدرس منها ونستوعبه، ونأخذ العبرة ونتعلم منها ما ينبغى أن نفعله فى تعامل الشيطان معنا، نقرأ عن قصة بدء خلق آدم فى سورة البقرة فى قول الله عز وجل:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا...﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ﴾ «إذ» و«إذا» حرفا توقيت، إذ للماضى، وإذا للمستقبل، فقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾﴾، أى يجيء مستقبلا، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ﴾، أى حين حدث هذا قديمًا.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ جاعل هنا بمعنى خالق، وخليفة: أى البشر من بنى آدم يخلف بعضهم بعضا.

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، قيل: إن الله تعالى أعلم الملائكة

أنه إذا جعل فى الأرض خلقًا أفسدوا وسفكوا الدماء، لذلك سألوه حين قال لهم:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، فالملائكة لا تعلم إلا ما أعلمت به ولا تعلم الغيب، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، أى علمه كل شيء في هذه الأرض وسمى له كل شيء باسمه.

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ لا خلاف أن الله تعالى أخرج إبليس عند كفره من الجنة وأبعده عنها، وبعد إخراجه قال لآدم: اسكن أنت وزوجك الجنة، وقوله:﴿اسْكُنْ﴾ تنبيه على الخروج، لأن السكنى لا تكون ملكا، وقال بعض العارفين: السكنى تكون إلى مدة ثم تنقطع، فدخولهما الجنة كان دخول سكنى لا دخول ملك وإقامة دائمة ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أى صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية.

وفى سورة الأعراف يقول الله تعالى:

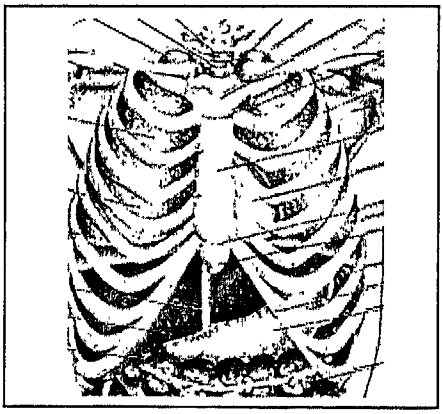
﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ...﴾.

لقد أباح الله تعالى لآدم وزوجه كل ثمار الجنة والأرزاق فيها، إلا شجرة واحدة حرمها عليهما، وحذرهما من الاقتراب منها. ولعل الله تعالى أراد لهذه الشجرة أن تكون رمزًا لكل ما نهى عنه فى الدنيا. فبغير الممنوع عمله والمحظور إتيانه، لا توضع الإرادة موضع التجربة، ولا يمتحن الاختيار فى الإنسان، ويُعرف مدى صبره وطاعته وإيمانه ولا يعنينا نوع هذه الشجرة وثمرها، فالله تعالى جعل منها أداة لاختبار طاعة آدم وعزمه. والله تعالى أعلم، ولكنه أراد أن يقيم الحجة على عباده من أفعالهم.. واستمع آدم إلى وسوسة الشيطان، ونسى أمر الله له، فأزلهما الشيطان عنها، وفى سورة طه يقول الله تعالى عن آدم: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾.

ولقد خلق الله تعالى آدم من تراب الأرض، وبدأ خلقه من طين، ثم صار حمأ مسنونًا، ثم صار صلصالا كالفخار، ثم سواه الله تعالى ونفخ فيه الروح بعد ذلك، ثم أمر الملائكة بالسجود له تكريما للروح التى نفخها فيه، وتشريفًا لها.

وأين خلق الله تعالى آدم؟ إنه خلق فى هذه الأرض، ولم يخلق فى الجنة، ودليل ذلك ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعنى



صورة الضلوع وهى منحنية الشكل لتحافظ على القلب والرئتين

عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها ونثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قائلا: ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين».

فآدم خُلق فى عرفة أو بالقرب منها، وأسجد الله تعالى له الملائكة على هذا الجبل، ثم أسكنه الجنة بعد أن خلق له زوجه، فلم يدخل الجنة وحده، وإنما دخلها وزوجه معه، وجاءت حقيقة إسكان آدم وزوجه الجنة فى موضعين فى القرآن الكريم، فى سورة الأعراف والبقرة.

إذن فحواء خلقت من جسم آدم، فكلاهما من نفس واحدة، وجعل منها زوجها ليسكن إليها، هذا ما أخبرنا به القرآن الكريم، وأخبرنا الحديث النبوى أيضًا شيئًا من التفصيل فى هذه القضية، فأخبرنا أن حواء خلقت من ضلع، ولم يكن هناك من دليل علمى يدل على أن حواء خلقت من جسم آدم، حتى جاء علم الوراثة حديثًا بالدليل؛ فالشفرة الوراثية واحدة ومتماثلة فى كل من الرجل والمرأة، مما يدل على أنهما من أصل واحد، ومن نفس واحدة، وجاء علم الأحياء أيضًا بدليل من خلق كائنات حية من جسم كائنات حية مماثلة لها تمامًا، فبعض الكائنات الرقيقة كالباراميسيوم تتكاثر تكاثرًا انقساميًا، ويكوّن زوجًا له من جسمه مطابقًا له فى كل شىء ولا ينقص منه شيئًا، وحيوان الهيدرا فى الماء يكوِّن أزواجًا مماثلة له فى كل شىء بطريق التبرعم. ولا تنقص من جسمه شيئًا، فالحامض النووى الذى يحمل عوامل الوراثة ينشطر إلى نصفين، كل نصف يكمل نصفه الآخر، ويعود كما كان فى كل من الجسمين. وخلق حواء من ضلع آدم لا ينقص آدم ضلعًا من أضلاعه؛ ولا ينقص من جسمه شيئًا.

وفى سورة البقرة الآية ٣٥ يقول الله عز وجل:

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾، ولقد خلق الله حواء فى الأرض، خلق الله آدم أولا، ثم خلق الله زوجه من جسمه، وقد يكون ذلك من بعض المعانى فى سورة الأعراف الآية ١٨٩ فى قوله تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾.

وقال جمهور المفسرين: إن المراد بالنفس الواحدة آدم، وجعل منها زوجها، أى حواء، فخلق الله تعالى حواء من جسم آدم ليسكن إليها، وبيّن الحديث النبوى أنها خلقت من ضلع.

وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال:

«استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا».

وفى رواية مسلم أن رسول الله ﷺ قال:

«إن المرأه كالضلع إذا ذهبت تقيمها كسرتها، وإن تركتها استمتعت بها وفيها عوج».

وقيل فى التفسير: إن حواء أخرجت كما تخرج النخلة من النواة.

وقال القرطبى: يحتمل أن يكون المعنى أن المرأة خلقت من مبلغ ضلع فهى كالضلع.

ولكن الله - عز وجل - قدر أن يخلق الإنسان فى أحسن تقويم، كما قال عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين].

فكيف يخلق الله تعالى نصف البشر فى خلق معوج، والاعوجاج فى الخلق يتناقض مع حسن التقويم؟ وفى رأينا أن المفسرين للحديث لم يتوصلوا إلى التفسير الصحيح، ولم يدركوا المعنى المقصود، ولقد ساعدنا العلم فى عصرنا هذا على فهم المغزى العلمى الصحيح فى الحديث النبوى.

الرئتان والقلب فى جسم الإنسان أهم الأعضاء فيه، ولا بد من حمايتهما وإلا هلك الإنسان، وحماية الرئتين والقلب لا تتم أبدًا إلا باعوجاج الأضلاع وانحنائها، فاعوجاج الضلوع يجعلها تحيط بالرئتين والقلب وتحميها من كل اتجاه، فوصف خَلْقِ المرأة من ضلع أعوج، لا يتنافى مع حسن التقويم فى خلقها. فإن اعوجاج الضلوع من تمام الفطرة التى فطر الله خلقه عليها. فاعوجاج الضلع استقامته على الفطرة السليمة. ولو خلقت المرأة بنفس صفات الرجل وفطرته على البأس والقوة والشدة والصلابة، ما سكن الرجل إليها، وما استمتع بحنانها، وما شعر أنها تكمله وتحنو عليه، ولما تحملت هى نفسها تربية الأجيال، الأمر الذى يستلزم وجود العطف والصبر والحنان، الذى يفتقر إليه خَلْق الرجال، والمرأة مثلها مثل الضلع الأعوج، ولو خلقت مستقيمة ما صلحت فى الجسم لأى وظيفة، وما أدت عملا مفيدا، وما استفاد الجسم منها شيئا. ولو حاولنا جعل الضلع مستقيما لكسرناه ولأفسدنا فطرة خلقه التى فطره الله تعالى عليها، ولأصاب الضرر البدن كله. فاعوجاج الضلع هو استقامته على فطرته السليمة، وفى ذلك كمال الخلق وإتقانه وجماله وبهائه، وما ينبغى أن نغير من كمال الخلق وبهائه شيئا، وإلا أفسدنا كل شىء. هذا فى رأينا المغزى العلمى فى حديث سيدنا رسول الله ﷺ: «**استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً**».

ولقد خلق الله تعالى حواء من خلايا جسم آدم؛ لذلك كانت خلايا جسمها صورة مطابقة لخلايا جسم آدم. والعوامل الوراثية فيها هى نفسها الموجودة فى خلايا جسم آدم، إذا استثنينا العوامل الوراثية المسئولة عن صفات الأنوثة فى المرأة.

وسميت حواء؛ لأنها خلقت من حى، وما أن خلق الله حواء حتى سكن آدم إلى حواء وسكنت هى إليه لأنها من نفسه، وجعل الله تعالى بينهما المودة والرحمة، كما قال الله تعالى فى سورة الروم:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

وسوسة الشيطان لآدم

جاءت قصة وسوسة الشيطان لآدم فى القرآن الكريم، وجاء ذكرها أيضًا فى تراجم العهد القديم فى سفر التكوين. وزعم أعداء الإسلام أن النبى محمدًا ﷺ نقل القرآن عن تراجم العهد القديم. كما فى سورة الفرقان فى قول الله عز وجل:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

ولو كان الرسول ﷺ نقل كما يزعمون عن تراجم العهد القديم، لذكر القرآن مثل ما ذكرت تلك التراجم. ولكننا نجد اختلافا كبيرا بين ما ذكره القرآن من الحق، وبين ما ذكرته تلك التراجم من أحاديث. ومن أمثلة ذلك ما ذكر فى سفر التكوين عن قصة آدم وحواء، وما حدث لهما مع الشيطان، تقول تلك التراجم: (نهى الربُّ آدم عن أكل شجرة المعرفة. وأن الشيطان كان على شكل حية نصب شركا لحواء، فلما أكلت حواء من الشجرة، أغوت آدم فأكل منها).

وذكر فى سفر التكوين أيضًا (ولأن آدم وحواء كانا عرايا فى الجنة فقد اختبأ آدم وحواء عندما سمعا أقدام الرب وهو ماشٍ فى الجنة).

وتطاولوا على الله عز وجل أكثر وأكثر، فذكر فى سفر التكوين أيضا افتراء على الله تعالى وكفرا وضلالا، كتبوا ما يأتى: (ولم يعرف الرب مكانهما فنادى الرب يا آدم أين أنت؟ فقال آدم أنا هنا: قال الرب: لماذا أنت تختبئ؟ فقال آدم: سمعت صوتك فخشيت لأنى عريان فاختبأت منك).

هذه أمثلة لبعض ما كتب المترجمون فى سفر التكوين فى العهد القديم، ولن نعلق على ذلك؛ لأن الكذب والافتراء والتطاول على الله عز وجل ظاهر، لا يحتاج إلى بيان. ولكننا نقول:إن ما ذكره القرآن الكريم من حق وصدق، كان مختلفا تماما عن تلك الأكاذيب:

أولا: لم يذكر القرآن الكريم أن الشيطان كان على شكل حية. وإنما ذكر إبليس.

ثانيا: لم يذكر القرآن أن إبليس وسوس لحواء فأكلت من الشجرة وأغوت آدم فأكل معها.

كل ذلك لم يحدث، والذى حدث أن الشيطان وسوس لآدم، وأن آدم هو الذى عصى ربه، نقرأ عن ذلك فى سورة طه فى قول الله تعالى:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

نفهم من الآيات الكريمة فى سورة طه: أن الشيطان وسوس لآدم أولا، وما أكلت

حواء من الشجرة المحرمة، إلا بعد أن رأت آدم يأكل منها. كما قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾. شأنها فى ذلك شأن أى امرأة تفعل ما يفعل زوجها. فيقع العصيان أولا على آدم وليس على حواء، كما قال الله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

ثالثا: ذكر فى سفر التكوين فى تراجم التوراة أن آدم وحواء فى الجنة كانا عرايا، ولكن القرآن الكريم حدثنا بالحق، فآدم وزوجه لم يكونا عرايا، بل كانا يلبسان ملابس قبل أن يأكلا من الشجرة المحرمة، ويقول الله تعالى فى سورة الأعراف:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾.

رابعا: تتحدث تراجم التوراة عن قصة حواء والشيطان الذى كان على شكل حية فأغواها فعصت ربها، فأكل آدم منها. ولكن الحقيقة مختلفة تماما، بل على عكس ما ذكرت تراجم التوراة، فاقرأ الحق فى سورة طه:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾.

تتحدث الآيات الكريمة عن عصيان آدم وحده، وعن نسيانه وأنه لم يكن له عزم ولم يأت ذكر لزوجه فى ذلك.

خامسا: يقول الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾﴾. فتحذير الله كان لآدم وحده، والضمير فى قوله تعالى: ﴿فتشقى﴾ يعود على آدم وحده، فإذا خرج آدم وزوجه من الجنة، فإن الشقاء خارج الجنة ينتظر آدم وحده. وقال الله تعالى: ﴿فتشقى﴾ مع تحديد مطالب الحياة الأربعة الأساسية، التى كفلها الله تعالى له فى الجنة بدون أى سعى منه لها. ولكنه وفرها له فى الدنيا. ولكن دون ذلك الجهد منه والشقاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ فذكر المطالب الأربعة الأساسية لحياة الإنسان الطعام والكساء والشراب والسكن.

فالله تعالى أناط بآدم مسئولية السعى فى الحصول على مطالب الحياة له ولأسرته فى الدنيا، وأعفى حواء منها، وكذلك الأمر فى ذريتهما من بعدهما.

وما هو دور المرأة منذ بدء الخليقة إلى الآن، وقد حمل آدم المسئولية كلها؟ إن دور المرأة دور جليل، إنه استمرار النوع واستمرار الحياة على هذه الأرض، وعليها تقع مسئولية أكبر أهمية من مسئولية الرجل، إنها مسئولية تربية الأجيال، وإضفاء السكينة والحب والمودة والرحمة على البشرية جمعاء، إنها الأخت والزوج والابنة، وهى الأم أولا وأخيرًا. ولها

عند أبنائها وزوجها ووالديها تقدير كبير. ولها عند خالقها مكانة أعظم. فقد أخرج الإمام ابن ماجه والإمام أحمد أن النبى ﷺ قال: «**الجنة تحت أقدام الأمهات**»، وروى الطبرانى عن طلحة بن معاوية السننى رضى الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله: أريد الجهاد فى سبيل الله، قال: «**أمك حية؟**»، قلت: نعم، قال ﷺ: «**الزم رجلها فثم الجنة**».

وظن بعض الناس تعارضا بين هذا الحديث النبوى وحديث نبوى آخر، رواه البخارى عن عمران بن حصين أن النبى ﷺ قال: «**اطلعت على الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت على النار فرأيت أكثر أهلها النساء**» فكيف يكون الأمر كذلك والجنة تحت أقدام الأمهات؟

إنه لا تعارض بين الحديثين الشريفين. فإذا كان أكثر أهل النار من النساء فذلك هو حسابهم عند ربهم تبارك وتعالى، وتلك هى علاقة العبد بربه يوم الحساب. ولكن الله تعالى جعل الجنة للإنسان تحت أقدام الأمهات، فتلك هى علاقة العبد بالعبد فى الحياة الدنيا، تنتهى بانتهاء هذه الحياة، وهى علاقة تختلف تماما عن علاقة العبد بربه فى الحياة الآخرة، فلا تعارض بين الحديثين الشريفين إذن، وعندما أهبط الله آدم وحواء إلى الأرض لم يجعل لآدم مع الجنة صلة، ولم يجعل للرجال من ذريته مع الجنة صلة، إلا عن طريق حواء فى شخص أمهاتهم، وعوض حواء وبناتها عن حرمانهن من الجنة بسبب خطأ ارتكبه آدم، فجعل بينهن وبين الجنة فى الدنيا اتصالا. وجعل الرفق بهن من قبل أبنائهن وخفضهم جناح الذل لهن من الرحمة، طريقا للناس جميعا إلى الجنة، وسبيلا إلى مغفرة الله ورضوانه. وجعل الله تعالى سعى زوجها إلى رضاها وسعادتها؛ سعيا عند الله مشكورًا، وطاعة لرسول الله ﷺ الذى قال: «**فاستوصوا بالنساء خيرًا**».

الجنة التى أسكن الله فيها آدم وزوجه

فى سورة البقرة قال الله تعالى:

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾.

وقد خلقت حواء من جسم آدم قبل دخوله الجنة، فهى خلقت مثله على هذه الأرض، وما أن خلقا معًا حتى أدخلهما الله تعالى الجنة وأسكنهما فيها. وما هى الجنة التى أسكن الله آدم وحواء فيها؟ وأين كانت؟

لقد أعد الله تعالى لعباده الصالحين بعد هذه الحياة الدنيا جنات كثيرة، وصفها الله تعالى فقال عنها: **﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾** [الحديد: ٢١]، فهى إذن ليست فى هذه السماوات والأرض، ولكنها ملكوت آخر أو ملكوتات أخرى يعلمها الله تعالى. والجنات أنواع، منها جنات عدن، وجنة الفردوس، وجنة المأوى، والجنة العالية، والجنة التى تجرى من تحتها الأنهار.

وما هى الجنة التى أسكن إليها فيها آدم وزوجه؟

إنه خلق وزوجه على الأرض لا شك فى ذلك، فهل صعد الله تعالى به وبزوجه فى السماء وأسكنه إحدى جناته؟

اختلف العلماء فى ذلك، فقال بعضهم إنها كانت فى الأرض، وقال آخرون: إنها كانت فى ملكوت الجنة. ونرجح أنها كانت فى الأرض. فآدم خلق من تراب هذه الأرض. ولم تذكر آية قرآنية أو حديث نبوى أن الله صعد بهما إلى السماء.

أولا: وفى سورة البقرة يقول الله عز وجل:

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

قال بعض المفسرين: قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾، يدل على أنها جنة فى السماء، وقال آخرون - ونحن نرجح هذا الرأى - قوله تعالى لا يدل على أن تلك الجنة كانت فى السماء؛ لأن الفعل «هبط» فى اللغة بمعنى «اتجه» أو «انتقل»، كما قال الله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أى انتقلوا إلى مصر، فإن مصر فيها ما سألتم. وقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا﴾ أى انتقل إلى مكان آخر فى الأرض.

ثانيا: جنة الخلد الموعودة ليست دار تكليف، والله كلّف آدم وحواء ألا يأكلا من الشجرة، وذلك يدل على أن تلك الجنة كانت فى الأرض.

ثالثا: لو كانت هى جنة الخلد، ما قال إبليس لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه]، فكيف يدله على شجرة الخلد، وهو فى جنة الخلد وملك لا يبلى؟ فلا بد أنه كان في جنة لا خُلد فيها، والجنة التى لا خلد فيها تكون فى الأرض.

رابعا: الجنة الموعودة فى الدار الآخرة من يدخلها لا يخرج منها، كما قال الله تعالى فى سورة الحجر (الآية: ٤٨): ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾، والله تعالى جعل الخلود لأصحاب الجنة فقال: ﴿خالدين فيها أبدا﴾ بينما أخرج آدم من الجنة، فلا بد أن الجنة التى أسكن آدم فيها وأخرجه منها كانت فى الأرض.

خامسا: لو كانت الجنة التى أسكن الله فيها آدم وزوجه جنة الخلد، ما وسوس الشيطان فيها لآدم، فالشيطان لا يسمح له بدخول الجنة أبدًا، ولا مكان له فيها قط. وهناك من الآراء ما ينص على أنها كانت جنة الخلد، فقد قال أبو أمامة: إن أهل السنة مجمعون على أن جنة الخلد هى التى أهبط الله منها آدم، واعتمدوا فى ذلك على دليلين.

الأول: لدخول أداة التعريف عليها، ولو كانت بستانا فى الأرض لذكرت نكرة، ولكن القرآن العظيم ذكرها معرفة بأداة التعريف قال: ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ ولو كانت

فى الأرض لنكّرها وقال اسكن أنت وزوجك جنة.

الثانى: لا يمكن لآدم أن يطلب شجرة الخلد وهو يعلم أنه فى دار الفناء، ولقد كان آدم أرجح الخلق عقلا، وقد علمه الله الأسماء كلها، فدل ذلك على أنها لم تكن فى الأرض.

وسواء كانت الجنة التى أسكن الله آدم وزوجه فيها فى الأرض أو فى السماء، فلقد كانت تجربة لابد منها لهما ولذريتهما، وإلى يوم القيامة، وذلك فى المعركة اليومية بين الإنسان والشيطان، وبين الخير والشر فى الحياة الدنيا، فيستعمل الإنسان عقله فيما يعود عليه بانتصاره على الشر، وانتصاره على الشيطان، وليتذكر جيدًا أن الشيطان أكبر أعدائه فى هذه الحياة الدنيا، كما قال الله تعالى لنا فى سورة الكهف: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف].

وحذرنا الله تعالى فى سورة الأعراف فى قوله تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

ولقد أجمل الله تعالى قصة آدم وزوجه، وما حدث لهما فى الجنة مع الشيطان، فى أربع آيات فى سورة البقرة فى قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

هذا ما حدث فى بداية خلق الإنسان، وكيف جعله الله خليفة فى هذه الأرض، وكيف علمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة. وكيف أمر الملائكة بالسجود لآدم بعد نفخ الروح فيه. فسجدوا جميعا ورفض إبليس السجود. وكيف أدخل الله آدم وزوجه الجنة، وكيف أزلهما الشيطان عنها وأخرجهما مما كانا فيه. إنها قصة البشرية الأولى. والدرس الأول والأكبر للمعركة بين الخير والشر، بين الإنسان والشيطان. وهى معركة

دائمة دائبة ما دام الإنسان والشيطان على هذه الأرض، ونلاحظ فى قصة خلق آدم وزوجه وما حدث بينهما وبين الشيطان، نلاحظ الاختلاف الكبير بين ما ورد فى تراجم العهد القديم وبين ما جاء بالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف. ولقد زعم أعداء الإسلام أن النبى ﷺ نقل عن تراجم الكتب السابقة، وأساطير الأولين، كما جاء فى سورة الفرقان فى قول الله عز وجل:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

ولو كان الرسول ﷺ نقل كما يزعمون ظلما وزورا عما كتب فى تراجم الكتب السابقة، لذكر القرآن والحديث النبوى ما ذكرت تلك التراجم والأساطير، ولكننا نجد اختلافا كبيرا بينهما، وكما فى قصة خلق آدم وحواء مثلا.

وهنا كلمة لابد منها، نوجهها للكتاب والمفكرين الذى يكتبون فى مثل هذه الأمور: إنه ليس من منهج الفكر الإسلامى الهجوم على العقائد الأخرى وكشف أخطاء ما ذكر فى كتبها وتراجمها وليس من التصرف الإسلامى الصحيح أن نكذب أهل العقائد الأخرى فيما يعتقدون ويقولون، أو أن نُعرض عن الاستماع إليهم. فالرسول ﷺ علمنا أن نتحدث مع أهل الكتاب - إلا فيما يختص بالشرعيات والأحكام - ولكن لا نصدقهم ولا نكذبهم - فيما سكت عنه القرآن والسنة.

وروى الأئمة البخارى ومسلم وأحمد والترمذى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن حبرا من أحبار اليهود جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السماوات على أصبع والأرضين على أصبع، والشجر على أصبع، والماء والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، فيقول أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه. فلم يعرض عن الاستماع إليه، ولا أعلن تكذيبه له، ولكنه ضحك حتى بدت نواجذه، مع أن الحبر كان مخطئا؛ لأن الشجر والماء والثرى كله على الأرضين، فإذا كانت الأرضين على أصبع، فالشجر والماء والثرى على نفس الأصبع، وليس كل منها على أصابع مختلفة، ومع ذلك لم يكذبه رسول الله ﷺ وتبسم فى وجهه، ولكنه نطق بالحق، وقرأ قول الله عز وجل فى سورة الزمر:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ فالرسول ﷺ علمنا ألا نُسَفِّه معتقدات أهل الكتاب، وألا نحاول إثبات خطأ معتقداتهم، فهذا ليس من المنهج الإسلامى الصحيح، ونذكر هنا قول الله عز وجل عن أهل الكتاب: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

الخلق فى الأجنة

خلق الله تعالى البشر جميعا يوم خلق آدم، وأودعهم جميعا فيه، ويوم الميثاق بعرفة نثرهم الله تعالى بين يديه كالذر وأشهدهم على أنفسهم قائلا ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا أنا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين.

وجعل الله تعالى لكل إنسان أجلا يخرج فيه إلى الحياة الدنيا، من أب وأم قدرهما له، فالله تعالى خلق ونسب، كما قال الله عز وجل، فى سورة الفرقان:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

فجعله نسبا وصهرا فهما رباط كل قربى بين البشر، وكلمة «صهر» اشتقت من صهر الشىء أى خلطه، فكل واحد من الصهرين قد خالط صاحبه، فسميت المناكح صهرا؛ لاختلاط الناس بها.

ولا يكون النسب للإنسان إلا فى الحياة الدنيا، أما فى الحياة الآخرة فلا ينتسب الإنسان لأحد، كما فى سورة المؤمنون الآية ١٠١ فى قول الله عز وجل:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

وهذا موضوع له حديث آخر.

ومنذ خلق الإنسان على هذه الأرض، وهو يفكر كيف خلق فى بطن أمه؟ وظل يفكر فى ذلك قرونا وقرونا، وظل يدرس ويبحث. وخَلْقُ الإنسان فى بطن أمه يخضع للعلم التجريبى. وما دام الأمر كذلك، فهو فرع من فروع العلم، هو فى مجال الفكر الإنسانى فى البحث والدراسة.

إلا أن أى عالم من العلماء إذا توصل إلى شىء من العلم فى موضوع خلق الأجنة - أو فى أى موضوع آخر - لن يكون علمه صحيحا إلا إذا وافق ما جاء بالقرآن والحديث النبوى، أما إذا خالفهما فلا يكون صحيحا، ذلك أنهما وحى الله تعالى الذى خلق الإنسان، وهو أعلم بخلقه. وكم من النظريات العلمية آمن بها العلماء قرونا طويلة، وخالفت ما جاء به الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى، وجاء الزمن بعد ذلك الذى اكتشف الإنسان فيه أن تلك النظريات لم تكن صحيحة، وأن ما وافق القرآن والحديث النبوى كان هو الصحيح، وكان هو الحق.

ولم يكن علم ما فى الأرحام معروفا للعلماء فى عصر نزول القرآن وما قبله من العصور معرفة صحيحة، وظل علم الإنسان قاصرا عن إدراك العلم الصحيح، حتى بعد نزول القرآن بعشرة قرون، وكان قصارى ما يعلم الإنسان فى تلك العصور الطويلة، إن الجنين يخلق فى رحم أمه من نقطة دم حيض، يصلها ماء الرجل، الذى اعتقدوا أنه يحمل سرّ الحياة. فما إن يختلط ماء الرجل بنقطة الدم، حتى تدب فيها الحياة، وتصير نطفة، فجنينًا حيًا.

وكانت هذه نظرية أرسطو الذى عاش فى القرن الثالث ق م، وظل العلماء يعتقدون فى صحة هذه النظرية عشرين قرنا من الزمان، فلم يكتشف العلماء بعض الحقائق العلمية عن الأجنة - على أساس علمى صحيح - إلا بعد القرن السابع عشر الميلادى. ولماذا لم يتوصل العلماء إلى اكتشاف بعض الحقائق العلمية الصحيحة عن

الأجنة قبل ذلك التاريخ؟؛ ذلك لأن معظم الحقائق العلمية عن الأجنة لا ترى بالعين المجردة، ولا تعرف إلا بالميكروسكوب، فلم يكن من سبيل إلى معرفتها إلا بعد القرن السابع عشر بعد اختراع الميكروسكوب.

لذلك كان للعلماء فى العصور السابقة على القرن السابع عشر العذر فى جهلهم بحقائق علم الأجنة، لذلك كانت أفكارهم مجرد افتراضات علمية، ولا تزيد على ذلك شيئا. وفى وسط ذلك الجهل التام بحقائق علم ما فى الأرحام نزل القرآن الكريم، ونزل الوحى على رسول الله ﷺ بالحديث النبوى. وجاء فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف كل الحقائق الكلية عن تكوّن الأجنة فى الأرحام، والأسرار الكبرى فى خلقها وتسويتها. وذكرت بعض الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الكثير من التفاصيل أيضا فى خلق الأجنة؛ لأن أكثر ما يهم الإنسان خلق نفسه هو؛ لذلك جاء فى الوحى الإلهى الكثير من التفاصيل العلمية فى هذا الموضوع.

ولو كان القرآن من عند بشر، ولو كان الحديث النبوى ليس وحيا من الله لرسوله كما يزعم أعداء الدين، لجاء الحديث فى كل من القرآن والحديث النبوى فى موضوع خلق الأجنة، بما كان الناس يعتقدون فى تلك العصور من أفكار وافتراضات وظنون، أثبت العلم فى عصرنا هذا أنها كانت مخطئة تماما، أما أن يرفض الوحى فى القرآن والسنة كل هذه الأخطاء والظنون، ويذكر الحقائق العلمية الثابتة والتى لم يكتشف العلم بعضا منها إلا فى عصرنا هذا بعد نزول القرآن بخمسة عشر قرنا من الزمان، وبعد اختراع الميكروسكوب بأكثر من ثلاثة قرون، فإن ذلك يضع كل إنسان أمام حقيقة لا شك فيها، وهى أن خالق الأجنة وخالق الإنسان، وهو منزل هذا القرآن على رسوله محمد ﷺ. ولما كانت حقائق الأجنة لا تعرف إلا بالميكروسكوب، فإن علم الأجنة لم يبتدئ كعلم صحيح إلا بعد القرن السابع عشر، واكتشف العلماء شيئا فشيئا بعض أسرار خلق الأجنة، وفى عصرنا هذا اخترع العلماء الكثير من الآلات العلمية التى ساعدتهم على التعرف على المزيد من حقائق العلم، فاستطاع العلماء مشاهدة الأجنة فى الأرحام بأعينهم بواسطة الأشعة والسونار ومنظار الرحم، بل إن علم الوراثة فى عصرنا هذا تقدم تقدما عظيما، واستطاع علماء الوراثة أن يعلموا على وجه اليقين، إن كان الجنين ذكرا أم أنثى بعد فحص خلية من خلايا الجنين، بل ويعرفون أكثر من ذلك من الحقائق، فيشخصون أحد الأمراض الوراثية إذا كان الجنين مصابا بها، ويعلمون إن كان سليما أم مريضا وهو لا يزال فى رحم أمه. ولقد زاد التقدم العلمى المؤمنين إيمانا فوق إيمانهم، وزاد غير المؤمنين غرورًا حتى قال بعضهم: إن الإنسان صار الآن يعلم ما فى الأرحام. وهذا قول يدعو إلى السخرية أكثر مما يدعو إلى العجب، إنهم يريدون أن يتحدوا قول الله تعالى: ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾، وكأنهم يقولون: (ونحن أيضا نعلم ما فى الأرحام)، إن من يقول ذلك جاهل وضال:

جاهل؛ لأنه يجهل الحقائق العلمية فى علم الأجنة والتى تدل على أن علم الإنسان فيها بجانب علم الله تعالى لا يعد شيئا مذكورًا، وأن العلماء ما إن يصلوا إلى أى حقيقة منها ويمعنوا فى البحث فيها، حتى يجدوا أنفسهم فى النهاية مازالوا على شاطئ العلم فيها.

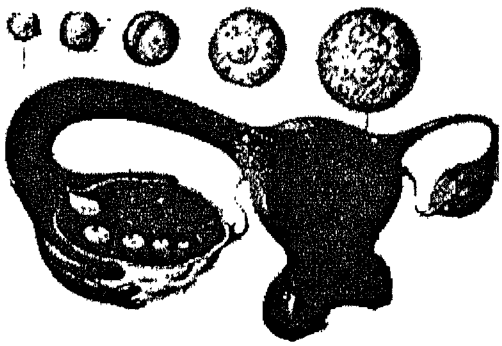
وضال؛ لأنه ليس بعد الحق إلا الضلال.

أسرار خلق النطفة

لم يكن علم ما فى الأرحام، وسر خلق النطفة معـروفا فى عصر نزول القرآن وقبله بقرون وبعده بقرون كـذلك، ولم يكتشف العلماء شيئا من حقـائق العلم فى علم الأجنة إلا ابتداء من القرن الماضى وبداية القرن الحالى، ومازال العلم يكتشف الجديد من الحقائق العلمية.

البيضة أو اللاقحة:

يولد كل إنسان من خلية واحـدة صغيرة جـدا، هى البيـضة أو اللاقـحة الحـاصلة من اتحاد خليتين من نوع خاص همـا المشيجان: أحـدهمـا الحيـوان المنوى (مـصـدره الأب) والآخـر هو البـويضـة (ومـصـدرها الأم)، معظم الكائنات الحية الباقيـة تولد أيضا من لاقحة تتكون باتحاد مشيجين.



فى سورة لقمان يقول الله عز وجل:

﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)﴾.

قوله تـعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [آل عمـران: ٢٩]، ولا نجد قـرينة فى قـول الله عـز وجـل تدل على أن الله لم يُطلع أحـدا من خلقـه على بـعض أسـرار خلقـه. فعلم مـا فى الأرحـام ليس كله فى حكم الغيب، وقد أطلع الله تعالى خلقه على بعض العلـم فـيـه، فـقـول الله عـز وجل:

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾، يشير إلى علم الله تعالى، الذى هو عـلـم شامل كامل ومـحيط بكل شىء جملة وتفصيلا.

أما مجال علم الإنسـان فيه فنجده فى قوله تعالى: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وفى قوله تـعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] وفى قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣].

وكـانت أفكار فـلاسفـة الإغـريق عن خلق الأجنة مخطئـة تماما، ومن تلك الأفكار

أن منى الرجل يأتى من الدم، وما إن يصل إلى نقطة دم من الحيض فى الرحم حتى تدب فيها الحياة ويخلق جنين حى، واعتقدوا أن الدم فى جسم الإنسان ساكن لا يتحرك فى الأوعية الدموية إلى أن ظهر الطبيب العربى ابن النفيس فى القرن الثانى عشر الميلادى، واكتشف الدورة الدموية الصغرى بين القلب والرئتين، وجاء بعده العالم البريطانى وليم هارفى فى القرن السابع عشر، واكتشف الدورة الدموية الكبرى، ونشر كتابه عن الدورة الدموية سنة ١٦٢٨م، وكان مكونا من اثنتين وسبعين صفحة وفيه شرح الدورة الدموية وكيف أن القلب يضخ الدم إلى الشرايين إلى أنحاء الجسم ويعود الدم إلى القلب عن طريق الأوردة.

ونسب علماء الغرب اكتشاف الدورة الدموية إلى هارفى وتناسوا العالم العربى ابن النفيس الذى اكتشف الدورة الصغرى قبل هارفى بخمسة قرون، وبعد اكتشاف الدورة الدموية الكبرى فى القرن السابع عشر، تأكد العلماء أن منى الرجل لا يأتى من الدم مباشرة كما اعتقد علماء الإغريق من قبل، ولكنه يأتى من الغدد التناسلية فى جسم الرجل، كذلك اكتشف العلماء أن الجنين لا ينشأ من دم الحيض، ولكنه ينشأ من تلقيح بويضة من الأم، بحيوان منوى من الأب، وبذلك تنشأ النطفة التى سرعان ما تنمو وتكبر فى رحم الأم.

ولاحظ العلماء أن تكوّن الجنين فى كل نوع من الكائنات الحية، من حيوان وطير وحشرة ونبات، كلها بنفس النظام المحكم، مما يدل على وحدة نظام الخلق فى هذا الوجود الذى يقوم دليلا واضحا على وحدانية الخالق سبحانه وتعالى.

والحيوانات المنوية ليست حيوانات، ولكنها أنصاف خلايا من الناحية الوراثية، فهى خلايا بشرية من نوع خاص، صمم الخالق سبحانه وتعالى خلقها بحيث تتحرك من مكان إلى مكان بواسطة ذيل طويل نسبيا، فهى خلية تشبه أحد الحيوانات، ومن هنا أطلقوا عليها قديما اسم «الحيوان المنوى»، وله رأس مستطيل كمثرى الشكل، وعنق قصير وذيل طويل، ويتحرك بواسطة الرأس والذيل معًا حركة نشطة جدا، والحيوان المنوى دقيق الحجم جدا، فرأسه لا يزيد على ٤ من المليون من المللى متر وذيله لا يزيد على ٤٠ من المليون من المللى متر، لذلك كان من المستحيل اكتشافه ورؤيته قبل اختراع الميكروسكوب، وتطور الاختراع إلى الميكروسكوبات القوية فى مطلع هذا القرن، من هنا كان جهل العلماء القدامى واعتقادهم المخطئ، أن منى الرجل سائل لا أثر فيه لحياة، ولكن فيه سرًّا غامضًا يمنح الحياة.

أما فى الأنثى، فإن البويضات تتكون فى المبيض من حويصلات خاصة، كل حويصلة تنمو وبداخلها بويضة، وما إن

تنضج حتى تصل إلى سطح المبيض، وتنفجر الحويصلة وتخرج منها البويضة فى مواعيد محددة إلى التجويف البريتونى، فتستقبلها أحد قناتى الرحم، وكان أول من اكتشف البويضة عالم يدعى ريجنيير دى جراف، وذلك فى القرن السابع عشر، وأطلق اسمه على حويصلات المبيض: Graffian Folli-cles، والبويضة كروية الشكل لا يزيد قطرها على $\frac{١}{١٠٠}$ من المللى متر فهى أكبر كثيرا جدا من الحيوان المنوى، وتحتوى على نصف عدد الصبغيات أو الكروموسومات، وذلك بسبب الانقسام الاختزالى فى الخلايا التناسلية، والتى من شأنها أن جعل كلا من الحيوان المنوى فى الرجل والبويضة فى المرأة أنصاف خلايا من الناحية الوراثية، ويسميها العلماء «الأمشاج»، وباتحاد الأمشاج تتكون النطفة الأولى، ولم يكن ذلك معروفا قط قبل القرن الثامن عشر، ولكن القرآن الكريم ذكر هذه الحقيقة التى لا تعرف إلا بالميكروسكوب، قبل اختراع الميكروسكوب بأكثر من أحد عشر قرنا من الزمان، وذلك فى سورة الإنسان فى قول الله عز وجل:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ ﴾

نزلت هذه الآية الكريمة تتحدى علم الإنسان، فى زمن كان الاعتقاد فيه أن الجنين يخلق من نقطة دم حيض، إنها آية كريمة تعلن للإنسان بحقيقة خلقه، قبل أن يعلم الإنسان شيئا صحيحا عنها، بأكثر من ألف ومائتى عام، وفى أول سورة الإنسان يقص القرآن الكريم علينا قصة الإنسان كلها فى آيات ثلاث، وذلك فى قول الله عز وجل:

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ ﴾ [الإنسان].

هذه مرحلة تتبعها مرحلة أخرى فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ ﴾.

ثم تأتى المرحلة الثالثة فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾.

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ ﴾: أسلوب تقريرى فى صورة استفهام، وقوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ ﴾، للتقرير والتقريب، والمعنى قد أتى على الإنسان قبل زمن قريب، حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورا، فقد خلق جسم الإنسان من تراب هذه الأرض.

ولكن أين كان هذا التراب قبل خلق الأرض، إنه كان فى السماء الدخانية الأولى فى الفضاء الكونى. إن الآية الكريمة تحكى تاريخ الإنسان قبل خلقه جنينا فى بطن أمه. وتتحدث الآية التالية عن حقيقة خلقه فى

هذه الدنيا من نطفة أمشاج، وجعل له من الحواس ما يستطيع بها أن يفرق بين الصحيح والخطأ. وتقدير القول إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج فجعلناه سمعيا بصيرا لنبتليه، وتتحدث الآية الثالثة عن مصير الإنسان فى حياته الدنيا فى قول الله عز وجل:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾

وعن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه إما شاكرا وإما كفورا»، ومرحلة وجود الإنسان قبل حياته الدنيا من الغيبيات، التى لا نعرف عنها إلا ما أخبرنا الله تعالى عنها فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، كما فى خلق آدم، وما حدث فى يوم الميثاق.

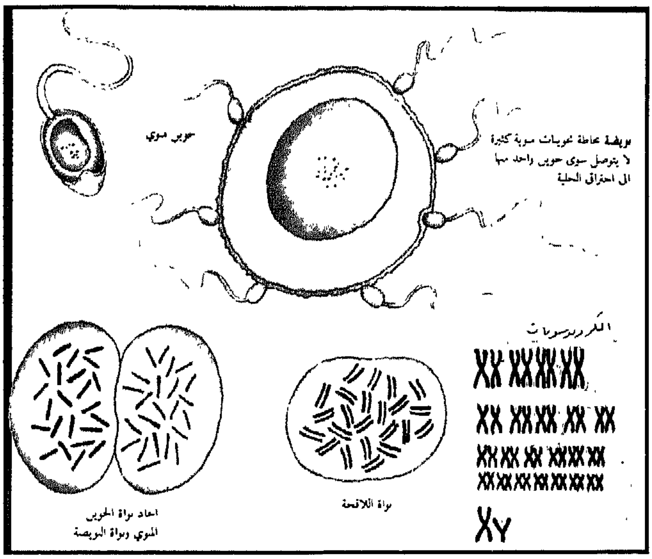
أما مرحلة خلق الإنسان جنينا فى بطن أمه، فهى مرحلة نراها ونعيشها وندرسها وتخضع للعلم التجريبى. وذكر الله تعالى لنا عنها كثيرا من الحقائق والتفاصيل فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف.

ويبتدئ خلق الإنسان فى بطن أمه نطفة لا يزيد قطرها على $\frac{1}{5}$ مللى متر، وهى خلية بشرية كاملة لا ترى إلا بالميكروسكوب، وهكذا بدأ خلق الإنسان فى رحم أمه كائنا مجهرى الحجم، ولكنه فى صنع متقن، وخلق فى أحسن تقويم.

أطوار خلق الأجنة

يتجلى الإعجاز فى الخلق، فى الأمشاج الذكرية. وهى خلايا لها رأس صغير، وعنق قصير، وذيل طويل، والعجيب أنها جميعا فى مجموعات كبيرة، تعد بمئات الملايين تتجه فى اتجاه واحد، وإلى هدف واحد. والهدف بعيد عنها، وهو البويضة. وهى تتحرك بأقصى سرعتها، ولن تقطع الرحلة إلى أنبوبتى الرحم وهى نحو عشرة سنتيمترات، إلا بعد ساعة ونصف الساعة، ولا نعلم لماذا تتحرك الخلايا الذكرية فى ذلك الاتجاه، ولا لماذا لا تضل طريقها أبدًا، ولا تخطئ هدفها مطلقًا؟

وما إن يصل ذلك الجيش من الحيوانات المنوية إلى البويضة فى إحدى قناتى الرحم، حتى يتجمع حولها من كل اتجاه، حينئذ تدور البويضة حول نفسها، أو أن الحيوانات المنوية تديرها، لا ندرى، وينجح حيوان منوى واحد فى اقتحام البويضة، وما إن يحدث ذلك ويتحد بالبويضة حتى تتكون البويضة الملقحة، ويحدث تغير هائل بها، ونشاط سريع وانقسام بها إلى خليتين، والخليتان إلى أربع، والأربع إلى ثمان وهكذا، وتكبر النطفة شيئا فشيئًا، وتصير فى حاجة إلى غذاء من دم الأم، ولا سبيل إلى ذلك إلا باختراق جدار الرحم والتعلق به حيث تتصل بدم الأم اتصالا غير مباشر، ولا يختلط دم الأم بدم النطفة، ولكن المواد الغذائية فى دم الأم تصل إلى دم النطفة



وتغـذيها، ومـا إن تتـعلق النطفة بجـدار الرحم حتى تصير علقة.

ونقـــــرأ عـــن هذه الحقائق العلمـية فى المرحلة الأولى فى خلق الأجنة فى سـورة العلق فى قـول الله عز وجل:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

وسـورة الـعلـق أول سـورة نـزلت من القـرآن الكريم على رسول الله ﷺ، ابتـدأت بالأمر بالقراءة والتعلم، فأول كلمة أنزلت من القرآن كلمة ﴿اقرأ﴾، وجاءت كلمة ﴿اقرأ﴾ مرتين ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾، ﴿اقْـرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣﴾، وذكـر الخلق مـرتين أيضا، وذكـر العلم ثلاث مـرات .. واسـتهلت السـورة بالأمر بالقـراءة ﴿اقرأ﴾ واخـتـتـمـت بالعلم ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾، وبين القراءة والعلم كان الخلق كله (الذى خلق) دلالة على أن الخلق كله إنما بنى على العلم فالاستـهلال كان بجملة الخلق ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ وبعـد الجـملة ذكرت المفـردات ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾. وذكـر خلق الإنسـان كأحـد مفـردات الخلق؛ لأن الإنسان هـو المخاطب، وأول ما يهم المخاطب خلق نفسه هو.

والعلق: جـــمع علـقـة، والعــلق فى اللغـة، دود فى المـاء يمتص الدم، ومـفـرده علقة، وقيل فى الأثر: خير الدواء العلق.

والعلق كـل شىء تعلق بشىء آخـــر، وقد تعود كلمة علق على الحيوان المنوى الذى يشبه دود العلق حـركة ومنظرًا، فجاء تشـبيه الحيـوان المنوى بالعلق، وحذفت أداة التشبـيه إشارة إلى أن المشبه عين المشبه به، وقد يكون «علق» جـمع علقة وهى النطفـة التى تعلقت بالرحم، وهى أولى مـراحل خلق الجنين فى الرحم؛ لأن الـنطفـــة تموت إذا لم تـتـــعلق بالرحم، وما يبتدئ التخلق فى النطفة إلا بعد أن تصير علقة.

وجاءت كلمة (علقة) فى خمس آيات، وفى كل آية ارتبطت بمعنـى جديد وبقـضيـة جـديدة، نزلت بتـرتـيب النزول فى سـور: القـيامـة ثم غافـر ثم المؤمنون مـرتين ثم فى سورة الحج.

ذكرت أولا فى سورة القيامة فى سياق الحديث عن تسوية خلق الإنسان فى قول الله عز وجل:

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾.

ثم ذكرت فى سورة غافر فى الحديث عن تاريخ الإنسان كله وأطوار خلقه جميعا فى قول الله عز وجل:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

ثم ذكرت فى سياق الحديث عن أطوار خلق جنين الإنسان فى رحم أمه فى سورة المؤمنون فى قول الله عز وجل:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

ثم ذكرت أخيرا فى سورة الحج الآية ٥ فى الحديث عن تاريخ الإنسان فى الدنيا فى قول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾

نلاحظ فى كتب التفاسير، أن معظم المفسرين القدامى فسروا كلمة «علقة» أنها نقطة دم جامد، وذلك تأثرا بما كان عليه اعتقاد الناس قديما أن الجنين خلق من نقطة دم، ولقد استمر هذا الاعتقاد حتى نهاية القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر.

وجاء ذكر علقة فى كثير من الأحاديث النبوية، فى سياق الحديث عن أطوار خلق جنين الإنسان فى رحم أمه، كما فى الصحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله قد وكَّل بالرحم ملكا فيقول أى رب نطفة، أى رب علقة، أى رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضى خلقا قال الملك أى رب ذكر أو أنثى، شقى أو سعيد، فما الرزق، فما الأجل فيكتب كذلك فى بطن أمه»**.

وفى الصحيح أيضا عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح»**، إلى آخر الحديث الشريف، والجنين مخلوق رقيق جدا، وخاصة فى مراحل خلقه الأولى، فكيف حفظه خالقه تعالى وحماه من أى إصابة خارجية؟ لقد حفظه الله تعالى فى مكان أمين وقرار مكين، بحيث لا تصل إليه أى إصابة من الخارج، فهو فى أكثر أماكن الجسم حماية له، وأقلها حركة، وفى مكان محاط بعظام قوية من كل اتجاه، هى عظام الحوض، وعظام الحوض فى مركز الجسم. والرحم فى مركز الحوض. والجنين فى مركز الرحم، وبهذا كان الجنين فى مكان أمين، ليس أكثر منه أمانا، وقرار مكين ليس أمكن منه قرارا.

ولقد بيّن الله تعالى هذه الحقيقة العلمية فى سورة المؤمنون فى قوله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾، وذكرت هذه الحقيقة أيضا فى سورة المرسلات يقول الله تبارك وتعالى:

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

وذكرت كلمة (أجنة) فى القرآن الكريم فى آية واحدة، وذلك فى سورة النجم فى قول الله تعالى:

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

لقد خلق الله تعالى جنين الإنسان فى بطن أمه طورا من بعد طور، نطفة، ثم علقة ثم مضغة، ثم أطوارا أخرى، يعقب بعضها بعضا، وخلق النطفة يختلف عن خلق باقى أطوار خلق الجنين. فخلق النطفة ينتج من اتحاد أمشاج الذكر بأمشاج الأنثى؛ لذلك وصفها الله تعالى بالقول: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، وأمشاج الذكر وأمشاج الأنثى كانتا من قبل منفصلتين إحداهما عن الأخرى: البويضة فى جسم، والحيوان المنوى فى جسم آخر، ثم تلاقتا واتحدتا، وكونتا البويضة الملقحة أو النطفة أما خلق العلقة وخلق المضغة، فهى أطوار من الخلق يعقب بعضها بعضا فى نفس الجنين. ولا يختلف أحدها عن الآخر إلا فى درجة التسوية فى الخلق، إذن فهناك فرق واضح بين خلق النطفة من أمشاج متفرقة ثم تجمعت، وبين خلق كل من العلقة والمضغة بعد ذلك، ونجد ذلك فى التعبير القرآنى فى بالغ الدقة العلمية فى قوله تعالى:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾، إلى آخر الآية الكريمة. والجعل أشمل من الخلق، فالجعل يعنى الجمع والخلق والأمر والحكم، ولم تقل الآية ثُمَّ خَلَقْنَاهُ نُطْفَةً فى قرار مَّكين، ولكن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ لأن الله خلق النطفة من مصادر كانت متفرقة وجمعها وخلطها وأخرج منها النطفة، وهذا النمط فى خلق النطفة، لم يكن فى خلق العلقة والمضغة، لذلك وصف طور خلق النطفة بالجعل، ووصف طور خلق كل من العلقة والمضغة بالخلق، وبين مرحلة خلق الإنسان من سلالة من طين فى خلق آدم. وبين مرحلة جعله نطفة فى خلق ذرية آدم، خطوات كثيرة من الخلق، ومراحل عديدة، وأطوار مختلفة، وعصور وأزمان طويلة. لذلك جاء الحرف (ثم) الذى يفيد الترتيب مع التراخى فى الزمن، بين الخلق من سلالة من طين وبين جعل النطفة، أما مراحل خلق العلقة والمضغة واللحم والعظام، فهذه مراحل يتبع بعضها بعضا، ويعقب بعضها بعضا، فى أيام وأسابيع؛ لذلك سبق ذكر تلك المراحل

بالحرف (فاء) الذى يفيد اشتراك المعطوف والمعطوف عليه فى وصف واحد، مع التعقيب الزمنى. أما تسوية الجنين خلقا آخر، فلا تأتى بعد أيام أو أسابيع، وإنما بعد أربعة أشهر؛ لذلك سُبق ذكر هذا الطور من خلق الجنين بالحرف (ثم) وليس بالحرف (فاء). نجد كل ذلك فى آية سورة المؤمنون فى قول الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

ولماذا سبق الحرف «ثم» خلق العلقة من النطفة، ولا يستغرق ذلك إلا أياما قليلة؟ ولم يقل فخلقنا النطفة علقة؟ صحيح أنه هناك تعقيب زمنى بين خلق النطفة والعلقة، ولكن ليس هناك تتابعا فى نفس المكان، ونفس الخلق، فالنطفة تكون فى إحدى أنابيب الرحم من خلية واحدة، ثم تنقسم حتى ست عشرة خلية، وقد لا تتعلق بجدار الرحم فتهوى مع السوائل الرحمية إلى خارج الجسم وتموت، وقد يقدر الله تعالى لها أن تتعلق بجدار الرحم فتصير علقة. وبين تكوّن النطفة، وتكون العلقة مسافة طويلة، وبعد فى المكان، فالنطفة كما قلنا تتكون فى إحدى أنابيب الرحم، وتدفعها حركة الأهداب إلى اتجاه الرحم، وبعد أيام قليلة تصل الى تجويف الرحم، وقد تسقط إذا قدر الله عليها السقوط، وقد يوحى الله تعالى إليها أن تخترق جدار الرحم، وتتعلق به، وتصير علقة، إذا أراد الله تعالى لها الحياة، وبسبب كل هذه الاختلافات فى المكان والوظيفة والحركة، لم يسبق حرف (الفاء) طور خلق العلقة من المضغة وإنما ذكر الحرف (ثم) فى قوله تعالى:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ إلى آخر الآية الكريمة.

ويلاحظ قارئ الآية الكريمة قمة الدقة العلمية فى التعبير القرآنى عن حقائق أطوار خلق جنين الإنسان فى رحم أمه، ونزلت آية سورة المؤمنون فى مكة المكرمة. وهى من أواخر السور التى نزلت فى مكة، فقد نزل فى مكة قبلها ثلاث وسبعون سورة، ولم ينزل بعدها إلا اثنتا عشرة سورة فقط، ونزلت فى عصر كان العلماء والناس جميعا، يعتقدون بصحة نظريات الإغريق التى كانت تقول أن الجنين يخلق فى دم حيض، وهى آية من آيات التحدى فى القرآن الكريم، ولم يستطع أعداء الدين أن يكذبوا ما جاء بالآية من حق، فلم يكن لديهم أى دليل على ما يزعمون، ولم يكن لديهم أى برهان علمى، يتعارض مع ما جاء بالقرآن الكريم من حق، ولم يدرك العلماء المغزى العلمى من الآية الكريمة إلا بعد أزمان طويلة، إلى أن جاء عصر العلم بعد منتصف القرن التاسع عشر، ووجدوا أن الناس فى عصر نزول القرآن كانوا على جهل كبير، وأن ما جاء به القرآن هو الحق والصدق واليقين.

ولو كان القرآن الكريم من تأليف إنسان، مهما بلغ ذلك الإنسان من العلم والفهم والذكاء، لتحدث فى سياق الحديث عن خلق الأجنة بما كان العلماء يعتقدون فى عصره، أما إن يرفض القرآن كل النظريات المخطئة التى كانت سائدة بين الناس جميعا، ويقرر حقائق علمية لا تعرف ولا ترى إلا بالميكروسكوب، ويذكرها تفصيلا وتحديا قبل أن يعرف الناس الميكروسكوب العلمى بأكثر من ألف عام، وأما إن يقرر حقائق علمية ويؤكدها فى آيات كثيرة، ويذكر تفاصيلها، فإن ذلك دليل لا يقبل أى جدل، على أن هذا القرآن لا يمكن أبدًا أن يكون من عند بشر، بل إن ذلك يقدم دليلا واضحا، وبرهانا ساطعا، على أن منزل هذا القرآن على عبده ورسوله هو خالق هذا الإنسان.

ثم أنشأناه خلقا آخر

يبدأ خلق النطفة باتحاد أمشاج الذكر والأنثى مصداقا لقول الله عز وجل فى سورة الإنسان: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، وتنقسم خلايا النطفة أزواجا أزواجا، وتُدفع من قناة فالوب إلى تجويف الرحم. وبعد ذلك تتعلق وتخترق جدار الرحم وتصير بذلك علقة، تتغذى من الغذاء الموجود فى دم الأم. وبعد طور العلقة يأتى طور آخر هو طور المضغة.

بعد عشرة أيام يكون الجنين مكونًا من ثلاث طبقات من الخلايا، كل طبقة تكون فى المستقبل أعضاء خاصة فى جسم الإنسان. ويصير طول الجنين مللى متر واحد فى اليوم الثانى عشر. وفى الأسبوع الثالث يتكون القلب الذى ينبض فى أول الأمر بغير انتظام، ثم تنتظم ضرباته بعد الأسبوع السادس، ويكون طول الجنين $1\frac{1}{2}$ سنتيمتر، وفى الأسبوع السابع يصل طوله إلى سنتيمترين، وتتكون فيه الأعضاء المختلفة، ولسنا فى مجال الحديث عن تفاصيل خلق الجنين من الناحية التشريحية؛ لأن ذلك يستغرق كتابا آخر، وإنما نقتصر فى حديثنا عن أطوار خلق الجنين بصفة عامة، ولا ندخل فى تفصيلات تُخرجنا عن موضوع البحث فى هذا الكتاب.

فى الأربعين يوما الأولى، يكون الجنين فى مرحلة العلقة، وفى الأربعين يوما الثانية يدخل الجنين مرحلة أخرى متقدمة هى مرحلة المضغة، وفى هذه المرحلة لا توجد فى الجنين خلايا عظمية أو خلايا عضلية، وقديما فسر المفسرون كلمة (مضغة) أنها تشبه اللحم الممضوغ، وهذا صحيح شكلا، ولكنه ليس صحيحا موضوعا، فليس فى المضغة خلية لحم واحدة، والمقصود باللحم هنا العضلات. وتظهر الخلايا العضلية بعد الأربعين يوما الثانية. وتظهر أول ما تظهر بجوار فقرات العمود الفقرى فى الجسم، وتظهر العظام أولا، ثم تظهر العضلات بعد ذلك؛ لأن العضلات لابد أن تتصل بالعظام، فلا معنى لوجودها إلا بوجود العظام، لذلك يخلق الله تعالى العظام أولا، ثم يخلق بعد ذلك العضلات، تظهر عضلات الذراعين بجوار فقرات العنق، وبعد ذلك تهاجر تلك

العضلات إلى عظام العضد والذراع والكف والأصابع، وتكسو العظام من كل اتجاه، وتسحب معها الأوعية الدموية والأعصاب الخاصة بها. لذلك نجد أن الأوعية الدموية والأعصاب التى تغذى عضلات اليد مثلا فى الإنسان البالغ، تأتى من منطقة الرقبة، وعضلات الساقين تتكون فى الجنين بجوار فقرات الظهر، ثم تهاجر إلى عظام الساقين بعد ذلك، وتكسوها من كل اتجاه. كل عضلة فى موضعها الذى خلقت من أجله، وتستقر حول العظام فى الأمكنة المخصصة لها تماما، وتسحب معها الأوعية الدموية، والأعصاب التى تغذيها من منطقة تكونها فى أسفل الظهر. لذلك نجد فى الإنسان البالغ أن عضلات قدمه تتغذى من أوعية دموية تتفرع من أوعية دموية عند أسفل الظهر. وكذلك أعصاب القدم، تأتى من بين الفقرات القطنية أسفل الظهر.

إذن فالعظام تكونت أولا بالفقرات الظهرية، ثم تكونت العضلات على جانبيها، ثم ظهرت عظام الأطراف، فهاجرت العضلات إليها وكستها من كل اتجاه، ولا يمكن أن يُخلق اللحم قبل العظم فى الجنين. لأن وظيفة العضلة الحركية، هى أن ترتبط بعظمتين بينهما مفصل، إذا انقبضت أو انبسطت تحرك ذلك المفصل، فإذا لم تكن العظام موجودة فلا معنى لوجود العضلات. وقديما كان العلماء يعتقدون أن الجنين خُلق أولا قطعة من اللحم ثم ظهر العظم بعد ذلك، وكان هذا الاعتقاد غير صحيح ولكن الصحيح ما ذكره القرآن الكريم فى قول الله عز وجل: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾.

إنها حقيقة لم يكتشفها علماء الأجنة إلا فى القرن الحالى فقط.

وذكر الله تعالى حقائق خلق الأجنة فى سورة المؤمنون فى قوله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾.

فبعد طور خلق العظام واللحم فى الجنين قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ فما هو المغزى العلمى فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾.

إن الجنين ينشأ بعد ذلك خلقا آخر شكلا وموضوعا.

فكيف ينشأ الجنين خلقا آخر من ناحية الشكل والمظهر الخارجى؟

إن الأجنة فى الفقاريات جميعا – بعد المرحلة الأولى فى خلق العظام واللحم، تكون متشابهة في المظهر الخارجى إلى حد بعيد، ولا يستطيع أىُّ عالم أن يفرق فى هذه المرحلة من خلق الجنين، بين جنين سمكة، أو جنين أرنب، أو جنين دجاجة، أو جنين إنسان. فكلها أجنة تشبه بعضها بعضا فى المظهر الخارجى. وكان ڤون بير عالما ألمانيا يبحث فى علم الأجنة وتوصَّل إلى قانون يحمل اسم (قانون ڤون بير) به عدة حقائق:

أولا: إن الأطوار المبكرة فى أجنة الحيوانات يشبه بعضها بعضا.

ثانيا: بعد أن يكبر الجنين ينشأ خلقا آخر خاصا بنوعه ويبتعد أكثر وأكثر عن شكل بقية الحيوانات.

وقال ڤون بير فى وصفه لهذه الظاهرة العلمية فى تطور خلق الأجنة: إنه أثناء تكون جنين الدجاجة مثلا، يوجد طور فى الخلق يستطيع العالم - بالمظهر الخارجى للجنين - أن يجزم أنه جنين لأحد الفقاريات، ولوجود العظام والعضلات فيه، ولكنه لا يستطيع أن يجزم بتحديد نوع المخلوق.

ولقد حصل ڤون بير على عدد من الأجنة فى طور خلقها بعد تكون العظام والعضلات مباشرة، لعدد من الفقاريات، وحفظ تلك الأجنة فى الكحول، ثم عرضها على العلماء فلم يتعرف واحد منهم على نوع أى جنين منها، فكلها متشابهة فى الشكل الخارجى، وبعد ذلك الطور من الخلق يدخل كل جنين منها فى طور آخر، ويكون فى شكل مختلف مميز لنوع خلقه، وكل ذلك نجده فى قوله تعالى:

﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

ولكن ليس معنى تشابه الأجنة فى الشكل الخارجى، أنها تتشابه أيضا فى عواملها الوراثية، فإن لكل نوع من أنواع



الجنين بعد إتمام خلق العظام وكسوتها باللحم ويشاهد متصلا بالمشيمة بواسطة الحبل السرى

الخلق عوامل وراثية خاصة به لا يشترك غيره معه فيها، فخلية جنين الدجاجة لا تشترك فى عواملها الوراثية مع خلية جنين سمكة، وجنين حصان أو جنين إنسان، فإذا كان الشكل الخارجى فى الأجنة يتماثل فإن الشفرة الوراثية فيها تختلف.

وكما ينشأ الجنين خلقا آخر شكلا، فإنه ينشأ خلقا آخر موضوعا أيضا: فتغير الشكل الخارجى للجنين فى الإنسان يواكبه تطور آخر فى الخلق، وهو اكتمال صفته البشرية بنفخ الروح فيه، وهذه حقيقة غيبية لا تخضع لعلم تجريبى، ولقد ذكرها لنا الحديث النبوى الشريف الذى روى فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال:

«يجمع أحدكم فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بكتابة أربع: رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أو سعيد».

خلق الأجنة من ذكر وأنثى

قبل تقدم علم الوراثة فى هذا القرن، وخاصة فى النصف الثانى منه، لم يكن سر خلق الذكر والأنثى معروفا على وجه اليقين لدى العلماء. وفى سنة ١٩٥٣م اكتشف علماء الوراثة أن خلية الإنسان تحتوى على ستة وأربعين كروموسوما.

أربعة وأربعون منها ذاتية واثنان منها جنسيان، واكتشفوا بعد ذلك أنه إذا انقسمت الخلايا فى الجسم، فإن الخلايا الجديدة تحمل نفس عدد الكروموسومات، ونفس الشفرة الوراثية، أما فى الغدد التناسلية فإن انقسام الخلايا انقسام اختزالى، بمعنى أن الخلية تنقسم إلى نصفين، كل نصف منها يعتبر من الناحية الوراثية نصف خلية؛ لأنه يحمل نصف عدد الكروموسومات أى ثلاثة وعشرون كروموسوما فقط.

فالحيوان المنوى يحمل ثلاثة وعشرين كروموسوما، واحد منها كروموسوم جنسى، وكذلك البويضة فى الأنثى، فإذا اتحد الحيوان المنوى بالبويضة، صار عدد الكروموسومات فيها ستة وأربعين، اثنان منها جنسيان.

والكروموسومات الجنسية فى المرأة على شكل XX.

والكروموسومات الجنسية فى الرجل على شكل XY.

فإذا انقسمت خلايا الأنثى فى المبيض انقساما اختزاليا نتج عن ذلك بويضتان، كل منها يحمل كروموسوما جنسيا على شكل X، وإذا انقسمت خلايا الذكر فى الخصية انقساما اختزاليا، نتج عن ذلك حيوانان منويان، يحمل أحدهما كرموسوما جنسيا على شكل X، ويحمل الآخر كروموسوما جنسيا على شكل Y. ومن هذا نفهم أن كل بويضة فى المبيض تحمل الكروموسوم الجنسى X. أما الحيوانات المنوية، فبعضها يحمل الكروموسوم الجنسى X الذى يحمل صفات الأنوثة، وبعضها الآخر، يحمل الكروموسوم الجنسى Y الذى يحمل صفات الذكورة. وبمعنى آخر، بعض الحيوانات المنوية إناث، وبعضها الآخر ذكور. ففى منى أى رجل حيوانات منوية مذكرة، وحيوانات منوية مؤنثة. فإذا اتحد حيوان منوى مؤنث يحمل الكروموسوم X مع بويضة وهى تحمل دائما الكروموسوم X ، احتوت الخلية الملقحة على الكروموسوم XX، وصار الجنين بعد ذلك أنثى.

وإذا اتحد حيوان منوى مذكر يحمل الكروموسوم Y مع البويضة صار الجنين XY، أى ذكر. من هذا يتضح أن نوع الحيوان المنوى فى منى الرجل، هو الذى يحدد جنس الجنين ذكرا كان أم أنثى، ولا دخل لبويضة المرأة فى تحديد جنس الجنين.

ولم يكتشف علماء الوراثة هذه الحقيقة إلا فى النصف الثانى من هذا القرن. ولم يكن ذلك معروفا قبل ذلك أبدا، ولكن الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى، ذكر هذه الحقائق فى عصر كانت علوم البشر فى ظلمات الجهل والتأخر، وكان كل ما

يعلمونه عن خلق الجنين مجرد ظنون كاذبة.

وجاء ذكر الحقيقة في سورة القيامة في قول الله عز وجل: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فجعل منه﴾: الضمير يعود على المنى، ولا يعود على العلقة وإلا لقال فجعل منها، فقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ يشير إلى أنه في منى الرجل من أسرار الخلق، ما يحدد جنس الجنين ذكرا كان أم أنثى، ونقرأ في سورة النجم قول الله عز وجل:

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

فمنى الرجل، له العلاقة المباشرة بجنس الجنين. ولم يأت ذكر البويضة في المرأة؛ لأنه لا دخل لها بتحديد جنس الجنين، والخلق والأمر لله أولا وأخيرا.

ويزعم بعض أعداء الدين، أن خلق جنس الجنين يخضع للصدفة، ولكنهم في ذلك مخطئون، فالخلق لم يُبن على الصدفة؛ لأن الصدفة لا تخلق نظاما دقيقا وثابتا، والعشوائية لا تنشئ خلقا يتصف بالإعجاز والإبداع، ولا تفاوت فيه ولا اختلاف. وفضلا عن كل ذلك، فإن علم الرياضيات الحديثة أوجد للصدفة قانونا علميا، وتأكد لدى علماء الرياضيات أن قانون الصدفة والاحتمال لا ينطبق قط على خلق أي شيء حي.

ولعل في دراسة تشالز يوجين الدليل على ذلك، فلقد أثبت ذلك العالم أنه من الناحية العلمية البحتة، لا توجد صدفة في الخلق أبدا، ولا تلعب أي دور فيه، وما دام الأمر كذلك، فلن يجد المتشكك ملجأ من الله إلا إليه، وأن الخلق هو تقدير الخالق البارئ المصور جل شأنه، فهو الذي خلق الحيوان المنوي وهو الذي خلق البويضة، وهو الذي يُسَيِّر كل شيء، وهو الذي يخلق، وهو الذي يختار.

ولعل هذا الفهم العلمي يقودنا إلى تفهم بعض ما في سورة القصص الآية ٦٨ من علم في قول الله عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾.

والله تعالى هو الذي يخلق، ثم ينسب كيف يشاء، كما في قوله تعالى في سورة الفرقان:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾، وفي سورة الشورى يقول الله عز وجل: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾.

وتوصل علم الأجنة حديثا جدا إلى معرفة تكون الغدد التناسلية في الجنين. والخصية هي الغدة التناسلية في الذكر، والمبيض هو الغدة التناسلية في الأنثى. وتنشأ الغدد التناسلية في كل من الذكر والأنثى في الجنين في مكان واحد يسمى النتوء التناسلي، ويوجد هذا النتوء التناسلي بجوار الكلية بجانب العمود الفقري، بين فقرات القطن

وفقرات الظهر، وعظام القطن تسمى عظام الصلب وفقرات الظهر تسمى عظام الترائب، فالنتوء التناسلى منشأ الغدد التناسلية الجنينية فى كل من الذكر والأنثى، يقع بين عظام الصلب وعظام الترائب.

وتهاجر الغدد التناسلية من مكان نشأتها الأولى إلى مكانها الدائم فى أسفل البطن، ففى الجنين الأنثى، يهاجر المبيضان من بين الصلب والترائب إلى داخل الحوض ويستقر فيه، وفى الجنين الذكر، تهاجر الخصيتان إلى خارج الحوض وتستقران فى كيس خارج البطن، حتى تكون فى مكان أقل حرارة من حرارة الجسم، مما يتلاءم مع حياة الحيوانات المنوية ونشاطها، ولو عاشت فى مكان فى مثل حرارة الجسم ما تكونت الحيوانات المنوية.

ولم تكن نشأة الغدد التناسلية معروفة قبل عصر العلم الحالى، ولكن القرآن الكريم ذكر هذه الحقيقة فى سورة الطارق فى قول الله عز وجل:

﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ ﴾.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير هذه الآية:

هذه هى الترائب (ووضع يده على صدره).

ونقرأ فى سورة الزمر الآية ٦ وصفا علميا مفصلا عن بعض أطوار خلق الجنين فى قول الله تعالى:

﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾. فخلق الجنين يمر فى أطوار من بعد أطوار، وخلق من بعد خلق.

ولقد اكتشف علماء الأجنة فى عصور العلم حقائق جديدة، وأسرارا لم تكن معروفة من قبل، فقد جعل الله تعالى الجنين فى ظلمات ثلاث، وهى ظلمة الكيس الأمنيوسى حول الجنين، ثم ظلمة جدار الرحم، ثم ظلمة جدار البطن، وقد تكون هذه هى الظلمات الثلاث.

والجنين فى أول مراحل خلقه يكون من ثلاث طبقات، وجدار الرحم أيضا ثلاث طبقات، كل هذه ظلمات ثلاث وكل منها يفسر قوله تعالى:

﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾.

خلق الغرائز فى الإنسان

الإنسان هو المخلوق الوحيد، الذى منحه الله تعالى العقل والفهم والإدراك، ومن هنا كانت له طاقة الاختيار، ويفكر، ويختار، يفعل هذا، ولا يفعل هذا.

أما المخلوقات الحية الأخرى، فهى ليست عاقلة، وتعمل وتتصرف بفطرة خلقها، وفطرة الخلق هو نظام الخلق الثابت، الذى خُلق كل مخلوق عليه، ويتحكم فى كل تصرفاته وأعماله من غير اختيار؛ لأن الاختيار مجاله العقل ، والكائنات الحية - فيما عدا الإنسان - لا عقل لها.

فالذى يُسير أى حيوان أو كائن حى، هو فطرة خلقه التى فطره الله تعالى عليها، ومن الفطرة الغرائز والخصائص والطباع والميول، وكلها تستكن فى العوامل الوراثية الموجود فى كل خلية من خلايا الجسم مثل غريزة الافتراس فى السباع والطيور الجوارح، إنها غريزة فطرت تلك الحيوانات عليها منذ كانت أجنة فى بطون أمهاتها، وولدت الصغار بهذه الغريزة لا تخرج عنها أبدا، ولا تتبدل مطلقا، السباع تفترس غيرها من الحيوان وتعيش عليه، والبقر يأكل العشب في المراعى، ومن المحال أن تتحول السباع إلى أكل العشب فى المرعى، ومن المحال أن تتحول البقر إلى افتراس غيرها من الحيوان. لماذا؟ لأن كل مخلوق حى، خرج من بطن أمه يحمل غرائزه وخصائصه وطباعه، لا تفارقه أبدا.

فالغرائز والخصائص وفطرة الخلق فى أى مخلوق حى، تحكمها وتهيمن عليها عوامل الوراثة الموجودة فى خلاياه، من يوم خلقه نطفة فى رحم أمه وإلى أن يموت.

وإذا تحدثنا عن غرائز الإنسان نجد الأمر متماثلا، ولقد كان العلماء حتى إلى عهد قريب، لا يدركون هذه الحقائق العلمية، وكانوا يعتقدون أن غرائز أى إنسان منا وميوله وطباعه، أمورٌ مكتسبة بعد خروجه إلى الحياة، وتفاعله مع أحداثها، واعتقد الماديون أن شعور الإنسان وغرائزه وطباعه وميوله، كلها تنشأ من احتكاكه بأمور الحياة، وضربوا بذلك مثلا حدوث الشرارة من احتكاك قطعتين من حديد؛ لأن الإنسان فى اعتقادهم مخلوق مادى، حتى عواطفه ومشاعره مادية أيضا.

وعندما تقدم العلم فى القرن الحالى، أثبت أن غرائز الإنسان وخصائصه وطباعه وميوله، كل ذلك، مقدر سلفا، ومقرر من بدء خلق النطفة فى رحم أمه، أما بعد أن يولد، ويتعامل مع مجتمعه ويتفاعل مع الحياة وأحداثها، فإن طباعه وغرائزه وميوله تتكيف مع ظروفه فى حياته، ومع أفكاره ومعتقداته، ولكنها لا تتغير فى جوهرها العام، ولا يتبدل اتجاهها الرئيسى.

وشتان بين قطعة من حديد، وبين أى إنسان مكون من جسم ونفس وعقل وروح، وما الجسم إلا إطار مادى للإنسان فى حياته الدنيا، لضرورة وجوده فى هذه الحياة، وتفاعله مع المادة.

وإن الحقائق العلمية، تؤكد أن خصائص الإنسان وغرائزه وطباعه وميوله، إنما تحددها العوامل الوراثية التى تنتقل فى أمشاج الأب والأم، لتكون الخلية البشرية الأولى.

فالإنسان - شأنه فى ذلك شأن أى كائن حى آخر - يتكون من اتحاد خلية ذكرية من الأب، ببويضة من الأم، والخلية الذكرية من الأب تحمل نصف عدد الكروموسومات، وبالتالى نصف عدد العوامل الوراثية من الأب، والأمر نفسه بالنسبة للبويضة من الأم.

وباتحادهما تنشأ أول خلية بشرية، تحتوى على العدد الكامل للكروموسومات البشرية، وهى ستة وأربعون كروموسوما، عليها من العوامل الوراثية الآلاف، ويقدرها العلماء فى عصرنا الحاضر بمائة ألف من العوامل الوراثية، كل منها يحدد صفة وراثية معينة، إذن فالصفات الوراثية تتكون وتتحدد تماما من يوم خلق النطفة الأولى، تلك النطفة التى تحمل كل العوامل الوراثية من الأب والأم معا.

ويخرج الإنسان من بطن أمه، ومعه كل هذه الغرائز والطباع والميول، فنجد مثلا أن الطفل يقبل على الرضاع من ثدى أمه دون أن يرشده أحد إلى ذلك، ولكنها الغريزة والفطرة، فكل مولود إنما يولد على فطرة خلقه، كما قال سيدنا رسول الله ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة**».

وجسم الإنسان مكون من آلاف الملايين من الخلايا، كالعمارة الكبيرة المكونة من الآلاف من اللبنات أو القوالب، وفى كل ثانية من الثوانى تموت آلاف الخلايا، وتحل محلها خلايا جديدة صورة طبق الأصل منها.

ولا نرى الخلايا بالعين المجردة، ولكنها تُرى بالمجهر، وتحت المجهر نرى فى كل خلية من خلايا أجسامنا عالما كبيرا وعظيما، يعمل ليل نهار، لا يتوقف أبدا ويحتوى على معامل ومصانع وأجهزة فى غاية الدقة والإبداع، ولو أننا جمعنا ألف جهاز كمبيوتر ضخم، وضغطناها فى حجم خلية بشرية، لكانت الخلية البشرية أكثر دقة ونظاما.

وكل خلية من خلايا الجسم، صورة طبق الأصل من الخلية الأولى فى النطفة، فى رحم الأم، وكل ما حدث بعد ذلك، أن الخلايا تخصصت فى وظائف معينة، ثم تكاثرت بعد ذلك عددا، وكل ذلك فى نظام دقيق مبدع لا يتغير أبدا، ولا يتبدل مطلقا.

وقد يكون كل ذلك، من بعض المعانى المكنونة فى قول الله عز وجل: ﴿**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾ [فاطر: ٤٣]، ومن العجيب أن الخلية

البشرية، فى النطفة الأولى فى رحم الأم، والتى لا يزيد قطرها على ١/٤ ملليمتر، من العجيب أن تحمل كل هذه الأسرار فى الخلق، والإبداع فى النظام، والإعجاز فى التكوين، ونذكر قول الله تعالى فى سورة لقمان: ﴿هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾.

ولم يكن العلماء وقت نزول القرآن ولا حتى بعد نزوله بأكثر من ألف عام، يدركون شيئا عن كل هذه الحقائق، وما كانت تخطر لهم على بال، وظل اعتقادهم أن طباع الإنسان وغرائزه وميوله إنما تتكون فى الإنسان وتكتسب بعد ولادته وتفاعله مع الحياة.

وفى أوائل هذا القرن، بدت ملامح الحقيقة العلمية تظهر وتتضح شيئا فشيئا، وذلك من خلال تقدم علم الوراثة، وثبت أن غرائز الإنسان وخصائصه وميوله وطباعه، إنما تتكون وتتحدد، والإنسان جنين فى بطن أمه، فى مراحل خلقه الأولى، عندما كان مخلوقا لا يرى إلا بالمجهر.

ولقد ذكر الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة فى سورة النجم فى قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

نحن المخاطبون بهذه الآية، ويعلننا البارئ عز وجل بحقيقة علمه بمادة خلقنا؛ لأنه هو الذى خلقنا وبرأنا وسوانا، وكل صانع يعلم ما صنع.

ويعلننا أيضا بحقيقة علمه بأسرار خلقنا منذ كنا أجنة فى بطون أمهاتنا، ويضع كل هذه الحقائق الثابتة فى منهج الهداية الفكرية والعقلية، التى تقودنا إلى الهداية الدينية الجامعة، والتى تهدف أولا وأخيرا إلى خير الإنسان فى الدنيا والآخرة، لم يكن الناس - كما قلنا - يعلمون أن غرائز الإنسان تتحدد منذ خلقه جنينا فى بطن أمه، وما علموا ذلك إلا فى النصف الثانى من القرن الحالى، ولا يجادل أحد فى ذلك، ولكن الله عز وجل أخبرنا بها فى سورة النجم فى قوله تعالى:

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

ويفسر ذلك حديث نبوى، رواه مسلم عن أبى الطفيل ثم ابن أسيد الغفارى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن النطفة تقع فى الرحم أربعين ليلة ثم يتصور عليها الملك فيقول يا رب أذكر أو أنثى؟ فيجعله الله ذكرا أو أنثى، ثم يقول: يا رب أسوىٌّ أو غير سوى؟ فيجعله الله سويا أو غير سوى، ثم يقول يا رب ما رزقه؟ ما أجله؟ ما خُلُقُهُ؟ ثم يجعله الله شقيا أو سعيدا».

وروى مسلم عن أبى الطفيل عن حذيفة بن أسيد أن النبى ﷺ قال:

«يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة فيقول: يا رب أشقى أو سعيد؟ فيكتبان. فيقول: أى رب أذكر أو أنثى؟ فيكتبان. ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه. ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص».

نفهم من هذين الحديثين الشريفين ما يلى: أن

أ- الملك لا يعلم الغيب؛ مصداقا لقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ...﴾ [الجن].

فنوع الجنين ذكرا أم أنثى قد تحدد سلفا لحظة الإخصاب من مَنِىِّ الرجل كما ذكرنا، طبقا لما توصل إليه علم الأجنة فى العصر الحديث. وتفسيرنا للنص القرآنى (النجم ٤٥-٤٦، القيامة ٣٩) كما سبق أن شرحنا.

ب- أن هذا الملك لم يؤمر بنفخ الروح فى الجنين؛ أى أن الجنين فى هذه المرحلة لا روح فيه.

من هو الإنسان؟

الإنسان مخلوق حى، ولكنه ككائن حى، مجهول حتى لنفسه، فلا يستطيع إنسان أن يعلم من هو الإنسان! ولقد اعترف العلماء بهذه الحقيقة، لقد حاول الإنسان أن يكتشف الفضاء ويتعرف على الكواكب البعيدة، بل والنجوم فى أعماق المجرة، بل وحاول دراسة المجرات ورؤيتها بالتلسكوب الفلكى، ونجح فى ذلك إلى حد بعيد، ونجح أيضا فى الوصول إلى سطح القمر، وتعرف على قيعان البحار والمحيطات، وطار فى الجو بالطائرات، ومع كل هذا التقدم العلمى وقف الإنسان عاجزا أمام معرفة نفسه، فأى عالم مهما بلغ علمه لا يستطيع الإجابة عن السؤال:

من هو الإنسان؟ وما هى النفس؟ وما هو الروح؟

وقال الدكتور الكسيس كاريل (المتوفى سنة ١٩٤٤) فى كتابه (الإنسان ذلك المجهول): (إن معرفتنا بالإنسان مازالت معرفة بدائية، وهو مجهول لنفسه)، وقال لوكاس أحد المفكرين الذين يعتنقون المذاهب المادية الجدلية: (إن الإنسان الحقيقى كائن مجهول لنا وسيظل جهلنا به إلى الأبد)، وإننا لنختلف مع الماديين الجدليين فى كثير من القضايا الفكرية، إلا أننا نوافقهم على هذا الرأى، ونشهدهم على أنفسهم به، فالإنسان كائن مجهول لنا، وسيظل جهلنا به إلى الأبد.

وكلما تعمقنا فى التفكير فى أسرار خلق الإنسان، وأحوال معيشته فى الحياة الدنيا، ازددنا عجبا، فالإنسان ليس مجهولا لنفسه فحسب، ولكنه يجعل التعامل مع نفسه أيضا، وكيف كان ذلك؟ حتى نفهم ذلك علينا أن نضرب الأمثال، إننا إذا علمنا أن رجلا لم يتعلم الطب ولم يمارس مهنة الطب.. ولكنه حاول أن يعالج مريضا ويعطيه الدواء، ألا ينكر الناس عليه ذلك؟ بلى إنهم ينكرون عليه ذلك؛ لأنه تدخل فى علاج شىء يجهله، وإذا تعطلت سيارة أحد الناس، وذهب صاحبها إلى نجار مثلا، وطلب منه أن يصلح عطل السيارة، أيكون تصرفه سليما؟ .. كلا.. لا يكون تصرفه سليما؛ لأنه طلب ممن يجهل صناعة السيارة، وطريقة عمل محركها أن يصلحها.

إن الأمر نفسه صحيح بالنسبة للإنسان، والقوانين الوضعية التى تنظم أمور حياته وتصون حقوقه، وتعالج مشكلات المجتمع، إنها لا يمكن أن تكون صحيحة، ومحال أن تكون مناسبة للإنسان ولإصلاح المجتمع الإنسانى وصيانته؛ لأن الذى وضع تلك القوانين إنسان، وجمهور العلماء يعترف صراحة أنه لا يعرف من هو الإنسان، وأن الإنسان كائن مجهول لنا، وسيظل جهلنا به إلى الأبد، ومادام الأمر كذلك فكيف

يتأتى لأى إنسان أن يضع قانونا يصلح به الإنسان أو يصون به حقوقه، أو يعالج أمور حياته ومشكلاتها؟ إن أى إنسان يشرع قانونا لينظم به حياة الناس، هو أشبه بالإنسان الذى يجهل الطب ويعالج المرضى، والنجار الذى يقوم بإصلاح سيارة معطلة، فكما أن هؤلاء قد تدخلوا فى أمور لا يحسنون التصرف الصحيح فيها، فكذلك الذى يشرع قانونا وضعيا يكون قد تدخل فيما يجهله، وفيما لا يعرف عنه شيئا.

لذلك نجد أن القوانين الوضعية لا تستمر طويلا، وسرعان ما يثبت فشلها وعدم صلاحيتها، فيغيرونها ويبدلونها، ثم يعدلونها، وقد يلغونها ويضعون غيرها، وهكذا يدورون فى حلقة مفرغة، من التبديل والتعديل والإلغاء ولو كانت صحيحة ما غيروها وما بدلوها تبديلا. الإنسان مجهول لنفسه، هذه حقيقة لا يختلف عليها اثنان، ولكن من الذى يعرف الإنسان حق المعرفة؟ إنه هو الله الذى خلقه والخالق أعلم بمن خلق، فالله تعالى هو الذى خلق الإنسان وبرأه وذرأه فى هذه الأرض وهو القائل:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ق].

والله تعالى الذى خلق الإنسان.. أرسل معه كتاب صيانته، وهو الوحى الإلهى فى القرآن والسنة النبوية.. القرآن والسنة هو «القانون الأسمى، والشريعة المثلى، لصيانة الإنسان وعلاج مشكلاته فى الحياة الدنيا.. وإصلاح عثراته وأخطائه.. وتنظيم حياة الناس جميعا فى المجتمع الإنسانى.. إنه هو القانون الخالد، الذى لا يصلح للبشرية سواه، والذى ثبت صلاحه لكل زمان ومكان.. ودليل ذلك أنه تنزه عن التبديل.. وتنزه عن التعديل.. وظل منذ نزول الوحى على رسول الله ﷺ وإلى اليوم، وإلى يوم القيامة، ثابتا خالدًا وصالحًا لكل زمان ومجتمع ومكان، بدون تبديل وبدون تعديل وبدون تحويل. كما قال الله تعالى فى سورة فاطر الآية ٤٣:

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾

وفى سورة الأنعام ١١٥ يقول الله تعالى:

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾

وفى سورة الكهف يقول الله عز وجل:

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

فأى قانون وضعى إذا أرنا أن يكون صحيحا، فيجب أن يكون متوافقا تماما مع ما جاء بالقرآن.

ونعود مرة أخرى ونسأل: من هو الإنسان؟ لا يعلم الجواب عن هذا السؤال إنسان قط، فإن الله تعالى استأثر بالعلم فى ذلك، فإن أكثر أسرار خلق الإنسان من الغيبيات، وإذا أراد أى مفكر أن يعرف شيئا صحيحا عن الإنسان، فليعد إلى مصدر العلم الوحيد عن ذلك، وهو الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى، ففيهما الخبر اليقين، والحديث الصادق، ومن أصدق من الله حديثا؟

حقيقة النفس البشرية

لا يعـرف أحد حـقيـقة الإنسـان، إلا الذى خلقـه وهو الله تبـارك وتعالى، ولقـد تحـدث كثيـر من الناس فى هذا الموضـوع، ووجـدوا أنفسـهم أخيرا يدورون فى حلقـة مفـرغة من الكفر، فأعلنوا أن الإنسـان كائن مجهول لنفسه، وسيظل جهلنا به إلى الأبد.

ونعود إلى القرآن والسنة، مصدر العلم الوحيد عن كل الحقائق الغيبية، فنجد الجواب عن السؤال: من هو الإنسان؟

إن الله تعالى خلق آدم جسدًا من طين. ثم سواه ونفخ فـيه من روحه، فـصار بذلك بشرا سويا، فتمام التسوية كان بالنفس، وتمام البشـرية كان بنفخ الروح فـيه، ويحـتمل أن تكون النفس البشرية باتصال الروح بها، هى شخـصية الإنسان وذاته البـشرية، وهى التى تفكر، وهى التى تأمر بالخير أو بالشر، وهى التى لها قدر من الاختيار بين البدائل.

وإذا قـربت النفس البشـرية من الحيـاة المادية وإشـباع الغـرائز البدنيـة، فإنهـا تكون مدخلا للشيطان إلى الـنفس البشرية. أما إذا سـمت النفس البـشـرية عن ذلك وتحـصنت بطاعـة الله تعالى، فـإنه لن يكون للشـيطان عليهـا سلطان، وينعم الإنسان بالسـعادة فى الدنيا والآخرة. ونذكر قول الله عز وجل فى سورة الشمس:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾.

قد أفلح من زكاها: أى من زكى نفسه بالطاعة. وقد خاب من دساها: أى خاب من دسّ نفسـه فى المعاصى. وروى الإمام أحـمد عن ابن عمـر أن حمزة بن عبـد المطلب جاء رسول الله ﷺ فـقال: يا رسول الله اجعلنى على شىء أعيش به. فقال رسول الله ﷺ:

«**يا حمـزة نفس تحييهـا أحب إليك أم نفس تميتها؟**» فقال حمزة: بل نفس أحييها، فقال رسول الله ﷺ: «**عليك بنفسك**».

نفـهم من الحـديـث الشـريف أن على الإنسان أن يعيش فى الدنيا، وقـد أحيا نفسه بطاعة الله تعالى والتـقرب إليه. وروى الإمام أحمد والترمذى عن فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ قال: «**المجـاهد من جاهـد نفسـه**»، والنفس البـشرية هـى التى تأمر الإنسـان فى الدنيا بالخير والشر، والنفس البشرية هى التى تجـادل عن نفسـهـا يوم القـيامـة، ولا دخل للروح أو الجـسم فى كل ذلك، فـالحـسـاب يكون للنفس البـشرية، أمـا الجسم فـهو من تراب هذه الأرض، وهو إطار للنفس والروح والعقل فى الحـياة الدنيا وهو مسـير بأمر الله عز وجل، وهو مسبح له وساجد وعابد، ولا يعصى الله مـا أمره أبدا، مثـله فى ذلك مثل كل شىء فى السمـاوات والأرض، أما الروح فهى من أمـر الله تعالى، ونقـرأ عن ذلك فى سورة النحل فى قـول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١١١﴾، وروى مسلم فى صحيحـه عن أنس رضى الله عنه قال:

كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون مم أضحك؟»، قال قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «عن مخاطبة العبد ربه يقول: يا رب ألم تجرنى من الظلم؟ فيقول الله عز وجل: بلى. فيقول العبد: فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى. فيقول الله عز وجل: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكاتبين شهودا قال: فيختم على فيه. فيقال لأركانه: انطقى. فتنطق بأعماله. ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعدًا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل».

أركانه: أى جوارحه وأعضاء جسمه.

كنت أناضل: أى كنت أدافع عنكن وأجادل.

فالنفس هى التى ستحاسب يوم القيامة على ما اقترفت من آثام، ولن يحاسب الجسم ولا الروح، وليس لأعضاء الجسم من دور يوم الحساب إلا الشهادة على صاحبها، وإذا أدخل إنسان إلى النار، فتحرق جلده وأعضاء جسمه لا عقابا للبدن، ولكن لتحس النفس البشرية بالعذاب.

ونقرأ فى سورة النساء قول الله عز وجل:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

وفى سورة البقرة الآية ٢٨٦ يقول الله تعالى: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾.

والنفس البشرية واحدة من ثلاثة: نفس أمارة بالسوء، ونفس لوامة، ونفس مطمئنة.

١- **والنفس الأمارة بالسوء:** هى التى تسعى للإضرار بالناس، كما فى سورة يوسف فى قول الله تعالى: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

٢- **والنفس اللوامة:** هى التى تلوم صاحبها إذا فعل المعاصى، وتحثه على العودة إلى عمل الخير.

ونقرأ فى سورة القيامة، قول الله تعالى: ﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ ﴾.

٣- **والنفس المطمئنة:** هى التى تجد لذتها فى فعل الخير، وهى نفس لا تهتز من مصاعب الحياة، ولا ترهقها متاعب الدنيا وتقلباتها، فهى نفس مطمئنة إلى قضاء الله وقدره، وواثقة بربها، ومطمئنة بذكر الله، ومتجهة إلى الله تعالى وراضية بحكمه فى كل شىء، نقرأ عنها فى سورة الفجر الآية ٢٧ قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾.

وصفات النفس البشرية تختلف باختلاف أحوالها، فقد تسمو النفس الأمارة بالسوء وتصير نفسا مطمئنة يوما، وقد تكون نفسا لوامة يوما آخر، وقد تظل كما هى أمارة بالسوء، وكذلك باقى درجات النفس البشرية، كل منها يختلف ولا يثبت على حال، إلا إذا أراد الله تعالى لها الثبات.

والنفس الأمارة بالسوء تؤدى بالإنسان إلى الخسران فى الدنيا والآخرة، وهى أعدى أعداء الإنسان، فقد أخرج البيهقى حديثا عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أعدى عدوك النفس التى بين جنبيك**».

والنفس البشرية غير مادية، وهى من الغيبيات، فلا تخضع للعلم التجريبى، وليس لها من مصدر للعلم عنها إلا الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى؛ لذلك قال العلماء فى عصور العلم: (إن الإنسان كائن مجهول لنا) وقال آخرون: (وسيظل جهلنا بالإنسان إلى الأبد).

حقيقة الذات البشرية

النفس البشرية منبع الغريزة فى الإنسان، وهى سر الحياة فى الجسم وهى التى تُزهق بالقتل، وهى التى تحس بنعمة الترف أو تشعر بالعذاب، وهى التى تُلهم الإنسان إما بالفجور وإما بالتقوى، وهى التى تعمل مهتدية بالعقل تارة، أو منقادة لغرائز الجسم تارة أخرى، وهى التى تسير فى طريق الهداية، أو تتبع نزغ الشيطان وتأتمر بأمره، ومن ثم فهى التى تحاسب على ما تعمل كما فى سورة البقرة فى قول الله عز وجل: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴿٢٨١﴾﴾ وفى سورة آل عمران الآية ١٨٥ فى قول الله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾. وفى سورة الأنعام الآية ١٥١ يقول الله جل جلاله: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ**﴾. والإنسان مكون من أربع جواهر: الجسم، والنفس، والعقل، والروح. والجسم يحيِّز الملكات الثلاث: النفس، والعقل، والروح، ومجموع الملكات الثلاث يكوّن الذات الإنسانية.

فالذات الإنسانية أعم من النفس ومن العقل ومن الروح، لذلك فإن الذات الإنسانية هى التى تحاسب النفس إذا مال بها الهوى عن طريق الحق، كما قال الله تعالى فى سورة النازعات: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ** ﴿٤٠﴾ **فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴿٤١﴾﴾، من الذى خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى؟ من هو؟ إنها الذات الإنسانية، وهو مجموع ملكات الإنسان، فهو الذى يخاف مقام ربه، وهو الذى ينهى النفس عن الهوى.

ويتوسط العقل بين النفس والروح، فالإنسان يعلو على نفسه بعقله، ويعلو على عقله بروحه، والنفس تتعلق بها الغرائز الحسية، والروح تتأثر بسر الوجود والخلود؛ لأنها من أمر الله تعالى، والعقل بين النفس والروح، ولقد جاء لفظ «روح» فى القرآن الكريم يدل على أكثر من معنى: جاء بمعنى جبريل عليه السلام كما فى سورة مريم الآية ١٧ فى قول الله عز وجل: ﴿**فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا**﴾، وجاء بمعنى القرآن العظيم كما فى سورة الشورى الآية ٥٢ فى قول الله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ**

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾. وجاء بمعنى الوحى الإلهى كما فى سورة النحل الآية ٢ فى قول الله جل جلاله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

وجاء بمعنى الروح الذى ينفخه الله تعالى فى الجسد فيصير بشرا سويا، كما فى سورة الحجر فى قول الله تعالى:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)﴾.

وروى البخارى أن رسول الله ﷺ قال:

«يجمع أحدكم فى بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بكتابة أربع، رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد».

وفى رواية مسلم أن رسول الله ﷺ قال:

«يجمع أحدكم في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح».. (إلى آخر الحديث).

من رواية البخارى، نفهم أن الروح ينفخ فى الجنين بعد تمام الأربعة أشهر الأولى، ومن رواية مسلم، نفهم أن الأربعينيات الثلاثة متداخلة فى بعضها البعض، أى إن تكوّن أعضاء الجنين وأطوار خلقه، تتزامن مع بعضها البعض، وبالتالى ينفخ فى الروح فى الجنين فى أقل من أربعة أشهر، وقد يكون بعد ثلاثة أشهر مثلا، والله تعالى أعلم بخلقه.

وبعد تمام نفخ الروح يصير الجنين بشرا، أى إن بداية الحياة البشرية فى الإنسان يوم يكون جنينا فى بطن أمه بعد ثلاثة أو أربعة أشهر. ومعلوم أن الجنين حى فى بطن أمه قبل ذلك الوقت ويتغذى وينمو، وفى ذلك الدليل على أن الروح ليس سر الحياة فى الجسم، وإنما سر الحياة يكمن فى النفس البشرية.

من هذا نفهم أن الجسم والنفس مثلها كمثل مصباح معد للإضاءة، ولكنه لا يضىء إلا إذا وصله التيار الكهربائى. والتيار الكهربائى فى هذا يمثل الروح.

وجاء لفظ روح بكافة معانيه، وبصفة شاملة فى سورة الإسراء فى قول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)﴾.

ولقد أمسك كثير من العلماء عن التكلم عن الروح اتباعا لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، واجتهد علماء آخرون فى محاولة التعرف عليه.

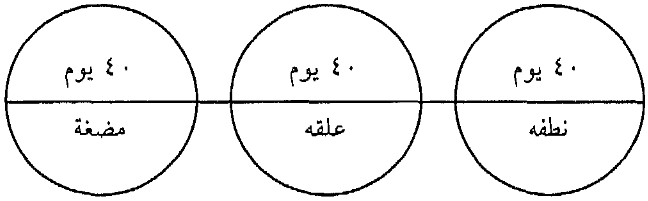
وقال الإمام الشعرانى: لم يبلغنا أن النبى ﷺ تكلم عن حقيقة الروح مع أنه سئل عنها، فنمسك عنها أدبا، إن الروح شىء استأثر الله تعالى بعلمه، ولم يطلع عليه أحدًا من خلقه إلا ما كان بوحى، ولا يجوز البحث عنه بأكثر من أنه موجود.

وقال جمهور المتكلمين: الروح جسم لطيف مشتبك بالبدن، اشتباك الماء بالعود الأخضر، وقال الإمام الغزالى:

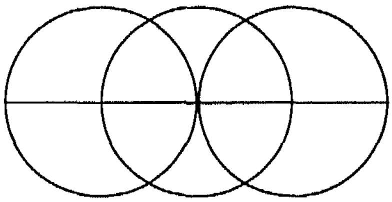
إنه لا ينبغى أن يتكلم فى الروح إلا الخاصة، أو خاصة الخاصة، وسمى هذا الأمر «المضنون به على غير أهله».

واختلف بعض العلماء فى ماهية النفس والروح، حتى أن بعضهم اعتقد أنهما شيء واحد. وقال أبو بكر بن الأنبارى: الروح والنفس واحد، غير أن الروح مذكر والنفس مؤنثة عند العرب، وإننا لا نرى هذا الرأى، ونرى أن النفس هى سر الحياة، وهى موجودة فى الجسم قبل نفخ الروح فيه، وإذا غادرت الجسم غادرته الحياة، والنفس هى التى تحاسب وهى التى تعذب، وأما الروح فهو سر الوعى والإدراك، وهو من أمر الله عز وجل، والروح فى اللغة يذكر ويؤنث.

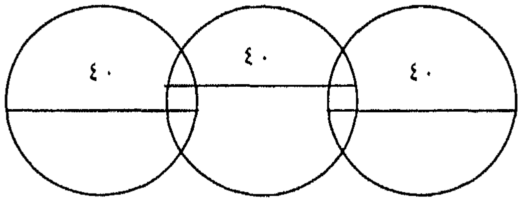
مراحل خلق الجنين قبل نفخ الروح فيه من واقع الأحاديث النبوية



١٢٠ يوما



ثالث أربعينات متداخلة مجموعها ٨٠ يوما



ثالث أربعينات متداخلة قليلا مجموعها مائة يوما

الروح والنفس والعقل

اهتم الإنسان منذ فجر التاريخ بموضوع (الروح). وكان المصريون القدماء من أكثر الأمم اهتماما بالروح، وكيف أنها تعود إلى جسم الميت بعد أربعين يوما من موته. وكانوا يسمون الجسم والروح الكا والبا. وربما تعود إقامة ذكرى الأربعين للميت فى عصرنا هذا إلى العقيدة الفرعونية القديمة.

وحاول العلماء على مر العصور التعرف على الروح وماهيتها، وعلى علاقتها بالجسم أثناء الحياة وبعد الموت، فلم يستقروا على رأى صحيح. ونفهم من قول الله عز وجل فى سورة الإسراء:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾ ﴾ نفهم أن الناس قبل نزول القرآن الكريم، كانوا يفكرون فى أمر الروح، وأنهم لم يتوصلوا إلى شىء، لذلك سألوا سيدنا رسول الله ﷺ. ونزل قول الله عز وجل.

ولقد حاول المفكرون والعلماء منذ العصور القديمة أن يتعرفوا على الروح حتى جاء عصر العلم الحالى فزاد اهتمامهم بهذا الموضوع، على أمل أن يعينهم التقدم العلمى الهائل فى التعرف على الروح. إلا أنهم لم يصلوا إلى شىء للأسباب التى سنذكرها فيما بعد.

فى عصر العلم الحالى اعترفت بعض الجامعات فى أوربا وأمريكا بعلم الروح وجعلت له قسما للتدريس مع غيره من الأسرار الكونية التى تسمى (ما وراء الطبيعة). وخرجت نظريات علمية كثيرة، إلا أنها جميعا لم تتفق على شىء.

ومن العلماء من حكم باستحالة معرفة الروح ومنهم من اعتقد بأن ذلك بالإمكان.

ومنهم من خاض بعقله كالمتكلمين فأخطأ، ومنهم من طلب معرفة الروح عن طريق «الكشف الوجدانى» وذلك بتصفية النفس وتزكيتها، وإعدادها لتلقى العلم اللدنى، كما قال الله تعالى:

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الكهف]، والآية الكريمة تشير إلى العلم الذى يكتسبه الإنسان عن طريق الكشف الوجدانى (العلم اللدنى من الله تعالى). لذلك اتجه بعض العارفين إلى طلب معرفة الروح عن هذا الطريق. ومنهم الإمام الدهلوى وأبو حامد الغزالى، وكثير من أئمة الصوفية.

والروح من الغيبيات التى قال الله تعالى عنها إنها من أمره عز وجل، وبالتالى فلا تخضع لأى علم تجريبى من علوم الإنسان.. فالذى يطلب معرفة بعض أسرار الروح، إنما يطلب أمرا صعبا، ويطلب مطلبا بعيد المنال، إلا أن العلماء حاولوا الحصول على قطرة من بحر أسرار خلق الروح، بما يمكن استنباطه من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف.

الروح ليست من طبيعة الجسم ولا من طبيعة العالم المادى الذى نعيش فيه:

الروح لا تحتاج لغذاء لبقائها ونموها كما يحدث لأى جسم مادى. ولا تمر بأطوار فى خلقها، كما يمر الجسم فى طفولة وشباب وكهولة وشيخوخة. والمجاهدات النفسية فى العبادات، قد تحرم الجسم من النوم والطعام، فيذبل ويضعف، بينما تتألق الروح وتقوى. وإذا كان الجسم يتعرض للمرض فإن الروح لا تتعرض لأى أمراض. وإذا كان الجسم يموت ويتحول إلى تراب بعد الموت، فإن الروح لا تموت، وتنطلق فى حياة أخرى يعلمها الله تعالى.

وتتحرك الأرواح فى الكون أسرع كثيرا من سرعة الضوء. وهذا لا يتأتى أبدًا لأى مادة فى الكون.

وروى أن رسول الله ﷺ قال: «**أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث تشاء ثم تأوى إلى قناديل معلقة بالعرش**». وما أبعد ما بين الجنة وبين العرش.

نفخ الروح

عن خلق آدم قال الله عز وجل فى سورة الحجر: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٩] أى إن الله تعالى علق الأمر للملائكة بالسجود لآدم على نفخ الروح فيه، بعد تسوية خلق بدنه، تكريما للروح التى نفخها الله تعالى فى آدم. وهذا يدل على أن مقام تلك الروح مقام عظيم، يستحق التكريم من الملائكة؛ ذلك لأن سجود الملائكة لآدم سجود تكريم لا سجود عبادة.

وهذا يدل أيضا على أن الروح ليست سر الحياة التى يشترك فيها الإنسان مع الحيوان، فلم يأمر الله تعالى الملائكة بالسجود لأول دابة خلقها فى الأرض؛ ذلك لأن الدواب لم ينفخ الله تعالى فيها الروح. أما الجسد والنفس وما فيها من غرائز، فيشترك الإنسان فيها مع الدواب، إلا أن جسد الإنسان يختلف عن جسد الدابة، وكذلك النفس وكذلك الغرائز. إلا أن الدواب لم ينفخ فيها الروح ولم تمنح طاقة العقل.

ولقد كرم الله تعالى الروح التى نفخها فى الإنسان إذ نسبها إلى نفسه قال: (روحى) فاستحق آدم تكريم الملائكة له. . وبنفخ الروح فى آدم، صار جديرا بتحمل التكاليف والتبعات، وبمقام الخلافة فى الأرض، فمنحه العقل، وهو الأمانة التى حملها الإنسان، فصار بها مستعدا لإقامة منهج الله تعالى فى الأرض.

ماذا قال الأئمة والعلماء عن الروح؟

قال الإمام الشعرانى: لم يبلغنا أن النبى ﷺ تكلم عن حقيقة الروح مع أنه مسئول عنها، فنمسك عن الكلام فيها أدبا. ولا نقول عن الروح بأكثر من أنه موجود.

وقال الإمـام أبو قاسم الجنـيد: الروح شيء استأثر الله تعالى بعلمه، ولم يطلع عليه أحدا من خلقه، فلا يجـوز لأحد البحث عنه بأكثر من أنه موجود.

وقال الإمام الدهلوى: الآية الكريمة فى سورة الإسراء لا تمنع من إمكان معرفة بعض أسرار الروح، فليس كل ما سكت عنه الشرع لا يمكن معرفته ألبتة. بل إن الكثير مما سكت عنه، فكان لأنه ليس للعـامة ولكنه للخـاصة وخاصة الخاصة.

وقال الإمـام أبو حامد الـغزالى: يمكن للخاصة من العلمـاء معرفة حقـيقة الروح.. ويَحْـرمُ علـى من له إلمام بشـىء من ذلك؛ التصريح به لغير أهله. فهو العلم المضنون به على غير أهله. ولا يتم ذلك إلا بالتفرغ التام فى الإقبال على الله، وتطهـير القلب عن كل ما سواه. فإذا تم له ذلك، استعد قلبه لتلقى الواردات الإلهيـة التى لا يُعبر عنهـا بكلمات ولا تسعها عبارات. وأدرك بالبصيرة ما يعجز عن رؤيته بالبـصر. وكشف حقـائق حار فى فهم سرها فحول العلمـاء، وعجز عن معرفة مبـادئ كنههـا أساطين الحكـماء. منهـا سر الروح، وسر القدر، والله يختص برحمته من يشـاء. ولا يحيطون بشيء من علمـه إلا بما شاء. ومـا أوتيتم من العلم إلا قـليلا. والله تعالى يقـول فى سورة البـقرة: ﴿...وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ...﴿٢٨٢﴾﴾، وفى سورة الكهف: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾.

وقال كـثير من الصوفـية: الروح ليس بجـسم ولا عرض. بل جـوهر مـجرد قـائم بنفسه غـير متحيـز. وله تعلق خاص بالبدن، لا هو داخل فيه، ولا هو خارج عنه.

وقال جـمهور المتكـلمين: الروح جسم لطيف مشـتبك بالبـدن، اشتبـاك الماء بالعود الأخضر. وقد أخطأ المتكلمون فى ذلك؛ لأن الروح ليس جسـما ماديا. ولا يشـبه الماء فى العود الأخـضر فى شيء. والروح لا يحـيزه جسم الإنسـان. كما يحيـز النبات الماء الذى يجرى بداخله.

ومتى تنفخ الروح فى الإنسان؟

حـديث الأربعـينات يدل على أن نفخ الروح فى الجنين يقع بعـد أربعـينات ثلاث. ولا شك أن الجنين حى فى بطن أمه قبل نفخ الروح فيه. إذن فالجـسم لا يحيا بالروح، أى إن الروح ليست سر الحياة. فالإنسان والحيوان والطيـر يشتـركون فى سـر الحياة. والإنـسان وحـده الذى نفخ فـيه الروح. فـالروح لهـا وجـود فـعلى. وهى جـوهر مـستـقل عن الجسم. إلا أنه متصل به اتصالا لا نعلم نحن كنهـه ولا يعلم سـره إلا الله تعـالى. واتفق العلمـاء على أن الجنين الذى يسقط قـبل نفخ الروح فيـه لا يبعث يوم القـيامـة، أما الذى يسقط بعـد الشهور الأربعة، فـإنه يبعث يوم القيامة لأنه صار بشرا.

حقيقة الذات الإنسانية

النفس سر الحياة فى الجسم. إذا ظلت بالجسم ظلت به حياة، وإذا خرجت من الجسم خرجت منه الحياة. والنفس هى التى تزهق بالقتل. وهى التى تحس بمتع الدنيا، وهى التى تشعر بالعذاب. وهى التى تلهم الإنسان إما بالفجور وإما بالتقوى. وهى التى تهتدى بالعقل تارة، وتنقاد بغرائز الجسم تارة أخرى، وهى التى تسير فى طريق الهداية حينا، وهى التى تتبع خطوات الشيطان حينا آخر، وبالتالى فهى التى تُحاسب على ما تعمل. كما فى سورة البقرة فى قول الله عز وجل:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾، وفى سورة آل عمران:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾.

إذن فالنفس يقع عليها الموت أما الروح فلا يقع عليها الموت. فهى قبس من الله عز وجل. وهى من أمره تعالى:

والإنسان مكون من أربعة جواهر: الجسم، والنفس، والعقل، والروح.

الجسم هو الجوهر المادى الذى يحيز الجواهر الثلاث غير المادية الأخرى. ومجموع تلك الملكات غير المادية الثلاث تكون الذات الإنسانية، فالذات الإنسانية أعم من النفس والعقل والروح.

فى سورة النازعات: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾، من الذى نهى النفس عن الهوى؟ الجسم المادى لا دور له فى ذلك. والروح من أمر الله. ولم يتبق إلا العقل. فهو الذى ينهى النفس عن الهوى.

ويتوسط العقل بين النفس والروح. فالإنسان يعلو على نفسه بعقله ويعلو على عقله بروحه. والنفس تتعلق بها الغرائز الحسية، والروح تتأثر بسر الوجود والخلود، فهى من أمر الله تعالى، والعقل يتوسط النفس والروح.

ولقد جاء لفظ روح فى القرآن الكريم بأكثر من معنى:

جاء بمعنى جبريل عليه السلام كما فى سورة مريم: ﴿...فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾، وجاء بمعنى القرآن العظيم كما فى سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ... ﴿٥٢﴾﴾، وجاء بمعنى الوحى الإلهى كما فى سورة النحل: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ . . . ﴿٢﴾﴾، وجاء بمعنى الروح الذى ينفخ فى الإنسان كما فى سورة الحجر: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾، وروى البخارى أن رسول الله ﷺ قال: «يجمع خلق أحدكم فى بطن أمه أربعين يوما. ثم يكون علقة مثل

ذلك. ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بكتابة أربع: رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد». وبعد تمام نفخ الروح يصير الجنين بشرا. ومعلوم أن الجنين حى فى بطن أمه قبل نفخ الروح، وفى ذلك الدليل على أن الروح ليس سر الحياة فى الجسم. وإنما سر الحياة هى النفس.

من هذا نفهم أن الجسم والنفس، مثلهما كمثل مصباح معد للإضاءة، ولكنه لا يضيء إلا إذا وصله التيار الكهربائى. والتيار الكهربائى يمثل الروح. وجاء لفظ الروح بكل معانيه فى سورة الإسراء: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾﴾.

واختلف العلماء فى ماهية النفس والروح، حتى أن بعضهم اعتقد أنهما شيء واحد. وقال ابن الأنبارى: الروح والنفس شيء واحد، غير أن الروح يذكّر، والنفس تؤنث. إلا أن الرأى الذى نراه صحيحا هو أن النفس غير الروح. والنفس تؤنث والروح يذكر ويؤنث. والنفس سر الحياة، إذا غادرت الجسم غادرته الحياة، وطالما ظلت فيه ظل حيا. أما الروح فهو سر الوعى والإدراك وهو من أمر الله تعالى، أما العقل فهو الأمانة التى جعلها الله تعالى فى الإنسان دون سائر الأحياء، كما قال تعالى فى سورة الأحزاب:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾.

علاقة الجسم بالروح

الجسم إطار مادى عارض ومتجدد، والروح باقية خالدة. وإذا مات الإنسان تركت النفس الجسم وعادت إلى ربها. لقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر]، وعادت روحه أيضا. ومعنى هذا أن الإنسان عندما يموت لا يفقد شيئا من ذاته الإنسانية، ويعود إلى ربه بكامل وعيه وعقله وإدراكه.

إن جسم الإنسان مكون من خلايا، لكل منها عمر وينتهى، وتحل محلها خلايا جديدة. إذن فجسم الإنسان يموت كله ويتجدد - ما عدا الخلايا العصبية - والإنسان حى فى الدنيا. وإننا إذا رأينا إنسانا فإن جسده الذى نراه اليوم، ليس هو الجسد الذى رأيناه منذ شهور قليلة مضت. لقد انتهى الجسم الأول وحل محله جسد جديد، بخلايا جديدة لم تكن موجودة من قبل؛ تغير الشعر غير الشعر والجلد غير الجلد، واللحم غير اللحم، وكذلك سائر أعضاء البدن، وذلك باستثناء خلايا الجهاز العصبى. إذن فحياة الإنسان غير متوقفة على موت الجسم أو حياته. فإذا مات الإنسان فى الدنيا الموتة الكبرى، فإن جسمه يموت كله ويتحلل، وتتركه الذات الإنسانية حية لم تمت بموت الجسم. فالروح لا تموت، والنفس لا تموت، والعقل لا يموت. إنما تنتقل الذات البشرية بالوفاة إلى حياة أخرى خالدة.

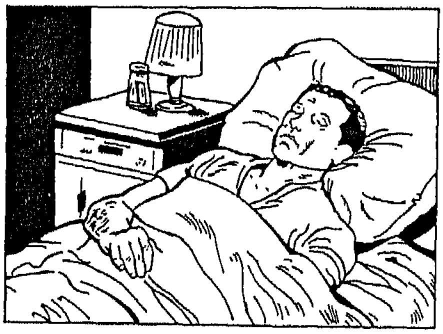
ودليل بقاء الذات البشرية حية بعد الوفاة، ما رواه الشيخان أن رسول الله ﷺ وقف على قتلى المشركين فى بدر وناداهم بأسمائهم: «**يا فلان بن فلان. يا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا؟ فإنا قد وجدنا ما عدنا الله حقا**» فقال عمر رضى الله عنه: يا رسول الله ما تكلم إلا أجسادا لا أرواح فيها. فقال ﷺ: «**والذى نفسى بيده إنهم لأسمع ما أقول منكم**».

علاقة الجسم بالنفس والروح والعقل

الروح هى سر الوعى والإدراك فى الإنسان وهى التى تحقق بشرية الإنسان. فقبل نفخ الروح فى الجنين لم يكن بشرا. ويوجد نوع من التعلق بين الجسم والنفس والروح فى الجنين في الشهر الرابع الرحمي. وهو تعلق محدود يتفق مع متطلبات حياة الجنين فى رحم أمه. وتعلق آخر عقب خروج الجنين من بطن أمه طفلا، وهو أكبر من التعلق الأول.

ويوجد تعلق آخر بين الجسم والنفس والروح أثناء اليقظة. وتعلق آخر أثناء النوم. أما تعلق النفس بالجسم فهو تعلق تام أثناء اليقظة وأثناء النوم. فلا تترك النفس الجسم مطلقا ما دام حيا. أما الروح فتتعلق بالجسم تعلقا كاملا أثناء اليقظة، أما أثناء النوم فتبتعد عن الجسم ويكون تعلقها به تعلقا قليلا لا ندرى مقداره. فلم يأت له فى القرآن والسنة ذكر، وعندما تعود الروح إلى جسم النائم يستيقظ؛ لأن الروح كما قلنا سر الوعى والإدراك، والنفس والعقل والروح أمور غيبية لا يمكن للإنسان معرفتها إلا من الوحى الإلهى فى القرآن والسنة. فهما معا المرجع الوحيد للأسرار الغيبية. ولقد علمنا علاقة الروح بالجسم والنفس أثناء اليقظة وأثناء النوم من الحديث النبوى. فقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يدعو ربه عندما يقوم من نومه فى الصباح يقول: «**الحمد لله الذى أحيانا بعد أن أماتنا وإليه النشور. الحمد لله الذى رد إلى روحى وعافانى فى جسدى وأذن لى بذكره**». فالنوم حالة تبتعد الروح فيها عن الجسم والنفس. مع استمرار وجود اتصال ما بينهما لا ينقطع - والنوم نوع من الموت لأن الروح تغادر فيه الجسد إلا أن النفس لا تغادره؛ لذلك يسمى النوم الموت الأصغر».

أما العقل فهو الطاقة الهائلة من القدرة على الفهم والإدراك والتعلم والفكر. وهو مناط التكليف فى الإنسان، ولولا العقل ما كان الإنسان عن أعماله مسئولا. والعقل له اتصال بالمخ ولكنه لا يوجد فيه. ففى كل واحد من الثدييات والدواب مخ.. وهناك من الحيوانات فيها مخ أقرب شبها بمخ الإنسان، إلا أنه لا عقل فيه.. فالعقل طاقة لها بمخ الإنسان صلة قوية، ويستطيع أن يسيطر على النفس ويوجه أعمال المخ. والمخ جهاز من أجهزة الجسم ينظم معظم وظائف



أعضاء الجسم الأخرى وهو رافد النفس ورافد العقل، أى أن كلا من النفس والعقل لا تعملان فى الإنسان إلا عن طريق المخ السليم والصحيح.. أما إذا مرض المخ أو خامره شيء كالمسكرات والمخدرات، فتنقطع الصلة بين الإنسان وعقله وروحه ويصير هو والدابة سواء.

وما هو الموت؟ الموت نقيض الحياة

النفس سر حياة الجسم. وإذا غادرته النفس غادرته الحياة؛ إلا أنه فى اللغة قد يعبر عن الروح بالنفس أيضا أى هى نفس التمييز والوعى لا نفس الحياة، ونقرأ فى سورة الزمر قول الله عز وجل:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)﴾، **الله يتوفى الأنفس حين موتها**: أى إن النفس تقبض عند موت الإنسان وانتهاء أجله فى الدنيا. **والتى لم تمت فى منامها**: اختلف العلماء فى تفسير ذلك. وقد يكون المعنى: والتى لم تمت، وفاتها نومها: لأن النوم موت أصغر. وقد يكون المعنى ما قاله ابن عباس رضى الله عنهما وغيره قالوا: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقى فى المنام، فتتعارف ما شاء الله لها. فإذا أراد جميعها الرجوع إلى الأجساد، أمسك الله أرواح الأموات عنده. وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها.

وقال سعيد بن جبير رضى الله عنه: الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا. وأرواح الأحياء إذا ناموا. فتتعارف ما شاء الله لها أن تتعارف (**فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى**) أى يعيدها. والموت يقع على النفس وليس على الروح. كما قال تعالى فى سورة آل عمران: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ... (١٨٥)﴾، وفى سورة لقمان: ﴿...وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ... (٣٤)﴾، وروى البخارى ومسلم أن قيس بن سعد، وسهل بن حنيف، مرت بهما جنازة، فقاما فقيل لهما إنها من أهل الأرض (يعنى جنازة كافر) فقالا: «إن رسول الله ﷺ مرت به جنازة فقام. فقيل له: إنه يهودى. فقال: أليست نفسا؟».

وهل النوم نوع من الموت؟ نعم النوم موت أصغر؛ لأن الروح يغادر الجسد أثناء النوم. ولكنه يظل متعلقا به. أما النفس فلا تغادر الجسم أثناء النوم. وروى جابر رضى الله عنه قال: قيل يا رسول الله أينام أهل الجنة؟ قال: «**لا، النوم أخو الموت، والجنة لا موت فيها**»، وبعد الموت تنتقل الذات البشرية الواعية المدركة العاقلة، إلى حياة أخرى لا موت فيها، ولا زمن. فذلك سبب الخلود خلود الآخرة.

السلالات البشرية

توصل علماء الأنثروبولوجى (علم الإنسان) إلى أن جميع البشر ينتمون إلى سلالة واحدة فى بدء الخلق، ثم تفرقت بعد ذلك سلالات مختلفة، والسلالات البشرية تشترك فى صفات عامة، ونظام وراثى عام، ولكنها تختلف فى بعض الصفات البدنية مثل لون الشعر، ولون البشرة، ولون قزحية العين، وشكل الأنف، وشكل العينين، والشفتين، وطول الجسم، وملامح الوجه، وغير ذلك من الصفات البدنية.

وما هى أسباب الاختلافات فى الصفات الوراثية بين السلالات البشرية؟ هناك أسباب أهمها:

أولا - الطفرات الوراثية: وهى تغيرات فى بعض العوامل الوراثية بسبب أو لآخر، ينتج عنها تغيرات فى الصفات البدنية التى يتوارثها جيل من بعد جيل.

ثانيا - عزلة الشعوب عن بعضها البعض: هى من أسباب ظهور سلالات بشرية مختلفة لها صفات خلقية مميزة لكل منها، فالهنود الأمريكيون مثلا لم يتزاوجوا مع الأستراليين، وذلك لبعد المسافة بينهم التى يفصلها المحيط الهادى، وكذلك أهل المناطق القطبية «الإسكيمو»، لم يتزاوجوا مع سكان المناطق الاستوائية.

وإذا اختلطت سلالتان، نتج عن ذلك سلالة أخرى تختلف عنهما فى بعض الصفات الخلقية بناء على القوانين الوراثية.

وهناك خمس سلالات بشرية رئيسية:

١- السلالة القوقازية.

٢- السلالة الزنجية.

٣- السلالة المغولية.

٤- سلالة الهنود الحمر.

٥- السلالة الأسترالية.

والسلالة القوقازية: هى أكثر سلالات البشر عددا، وأطلق عليها بلوبنباخ Blobenbakh هذا الاسم فى القرن الماضى، وتتميز هذه السلالة بالصفات الخلقية الوراثية التالية:

لون البشرة الذى يتراوح بين الأبيض والقمحى والبنى الغامق، وننتمى نحن العرب إلى هذه السلالة، وتنقسم السلالة القوقازية إلى سلالات فرعية منها:

١- السلالة الشمالية: وهم سكان أوربا وأمريكا الشمالية.

٢- سلالة البحر الأبيض المتوسط: وهم سكان حوض البحر الأبيض المتوسط.

٣- السلالة الألبية: وهم سكان أوربا الشرقية.

أما السلالة المغولية: وتأتى بعد السلالة القوقازية فى العدد، وتتميز بشعر بنى

مستقيم. ولون العين بنى، والرأس عريض، وميل مميز فى الشكل الخارجى للعينين، والأنف صغير، ولهذه السلالة سلالات فرعية أخرى: وتقطن الشرق الأقصى.

أما السلالة الأسترالية: هم سكان أستراليا الأصليون، ولا يزيد عددهم الآن على خمسين ألف نسمة، وبشرتهم سوداء. وحجم المخ أقل من حجم مخ القوقازيين، وهم أكثر السلالات الموجودة بدائية فى سلم التطور الثقافى والبدنى.

ولقد اعتقد بعض الباحثين قديما أن بعض السلالات البشرية أرقى من بعضها الآخر، وأقدر على صنع الحضارة، ولقد زاد تعصب الكثيرين وخاصة فى غرب أوربا وأمريكا الشمالية لهذه الأفكار، وهم من السلالة الآرية Aryanism (أى سلالة الرجل الأبيض) أو (السلالة الشمالية) واعتقدوا أنهم أنقى وأرقى سلالات البشر، وبالتالى فهم أكثر البشر ذكاء وقدرة على صنع الحضارة الإنسانية، واتخذوا من اعتقادهم المخطئ هذا، مبرراً لاستعمار الدول الأخرى واستعباد شعوبها.

وذكر هيجل في أوائل القرن الماضى فى كتابه (خطاب إلى الأمة الألمانية) أن الجنس الألمانى جنس «نقى»، وأن الشعوب الأخرى شعوب مختلطة غير خالصة وغير أصيلة، وتحمس الكونت دى جوبينو De gobineau فى النصف الثانى من القرن الماضى لأفكار هيجل، ودعا إلى التعصب العنصرى للجنس الآرى، وقال:إنه أرقى السلالات البشرية، ويجب أن يسود العالم. وكتب أفكاره فى كتاب نشره سنة ١٨٥٤م عنوانه: (رسالة عن تفاوت السلالات البشرية) واعتقد أن العمل على إزالة الفوارق بين الشعوب سيؤدى إلى دمار السلالات النقية، ولقد كانت أفكار هيجل وجوبينو أحد أسباب الحروب العالمية، التى قامت فى أوربا، وكانت أيضا من أسباب التفرقة العنصرية، فى كل من أمريكا وجنوب أفريقيا، بين السود والبيض.

وما هى قصة السلالة الآرية التى زعم كثير من أهلها أنها أكثر البشر نقاءً ورقيا؟. القصة ترجع إلى سنة ١٧٨٦م عندما اكتشف عالم اللغات الإنجليزى وليام جونز قرابة بين اللغات اللاتينية والجرمانية والسانسكريتية، فاعتقد أن الشعوب التى تتكلم بتلك اللغات ترتبط مع بعضها البعض بعلاقات من القربى، أما كلمة «آرى» فترجع إلى عالم اللغات ماكس موللر الذى توفى سنة ١٩٠٠م، ووضع كلمة «آرى» لأنه اعتقد أن السلالة المسماة بالهندية الأوربية، كانت تقطن منطقة أريانا فى وسط آسيا، ثم هاجر الآريون جنوبا وغربا، ونقلوا معهم لغتهم وحضارتهم أينما ذهبوا، لقد هاجروا إلى شمال أوربا ومنها إلى أمريكا الشمالية.

ومع تقدم العلم فى عصرنا الحاضر، تبين أن تشابه اللغات الذى تحدث عنه وليام جونز، لا يعود إلى صلة القربى بين الشعوب المتحدثة بها، ولكن يعود إلى الانتشار الثقافى بين الشعوب واتصالها ببعضها البعض.

وبذلك صارت فكرة السلالة الآرية الممتازة، أسطورة تاريخية لا أساس لها من

الصحة، وقال عالم اللغات سايس Sayce فى كتابه (علم اللغة): إن التشابه فى اللغة لا يدل على شىء أكثر من الاتصال الاجتماعى والانتشار الثقافى بين الشعوب.

وتبين للعلماء فى عصرنا هذا بعد مزيد من البحث والدراسة، وبناء على التقدم العلمى، أنه لا توجد سلالات أرقى من سلالات أخرى، وأقدر على غيرها فى صنع الحضارة، وأن كل الاختلافات بين الشعوب، هى اختلافات وراثية خلْقية، بسبب حدوث طفرات وراثية توارثتها الأجيال بعد ذلك، وساعد على وجودها فى سلالات بعينها، أو شعوب بعينها، عدم التزاوج مع غيرها من السلالات والشعوب الأخرى.

ولا شك أن هناك فوارق ثقافية وحضارية هائلة، بين الأفراد فى تلك الشعوب التى تنتمى إلى نفس السلالة، مما يدل على أن السمات السلالية، لا دخل لها فى درجة الذكاء، ولا فى درجة القدرة على صنع الحضارة، ولقد علمنا من تاريخ الشعوب، أن شعوبا قادت العالم، وحضارات سادت غيرها من الحضارات، قد بادت بعد ذلك وانتهت، وعكس ذلك صحيح.

ولو استمع الناس إلى الحق واليقين فى القرآن والحديث النبوى، ما حدثت كل هذه الاختلافات فى الآراء، وما حدثت المآسى والحروب، التى أشعلت نيرانها بسب نعرات عنصرية، واعتقاد مخطئ، بتمايز أجناس البشر عن بعضها البعض وتفوق أحدها عن الآخر.

ونقرأ فى سورة الحجرات قول الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

الخطاب فى الآية الكريمة، للناس جميعا، وللبشر كافة بكل سلالاتهم، فهم جميعا سواء، ولا يتفوق أحدهم عن الآخر، إلا بالتقوى والعمل الصالح والقيم المثلى.

وروى الإمام أحمد عن أبى نضرة أن رسول الله ﷺ قال فى خطبة الوداع:

«يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد. ألا لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لأعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى».

لو استمع الناس إلى القرآن والحديث النبوى ما أخطأوا التفكير، وما حدثت بالتالى الكثير من المآسى فى تاريخ الإنسان فى الماضى والحاضر، والتى قامت على التفرقة العنصرية، بين السلالات البشرية، بدون أساس علمى صحيح، أو دليل منطقى سليم.

لما جاء العصر الحالى وما به من تقدم علمى كبير، تأكد للعلماء أن اختلاف العوامل الوراثية بين الشعوب تقوم على قوانين ثابتة، وأنه لا علاقة للصفات الخِلْقية الوراثية بتفوق سلالة على سلالة أخرى، ولا لشعب على شعب آخر، وتبين للعلماء أن الاختلاف بين الشعوب فى درجة التقدم العلمى والحضارى، هو بسبب الاختلاف فى درجة الثقافة والتعليم، ودرجة الانتشار والتبادل الثقافى بين الشعوب، وأنه ليس هناك سلالة من البشر أكثر رقيا وأكثر نقاء من سلالة أخرى.

ولقد ظلت علوم البشر تتحدث عن الوراثة، بدون أساس علمى صحيح حتى أواخر القرن الماضى، عندما اكتشف جريجور مندل الأسس العلمية الصحيحة فى علم الوراثة، بناء على دراسته لبعض النباتات. ولقد توصّل إلى أن الصفات الوراثية تنتقل من جيل إلى جيل، بواسطة عوامل وراثية فى الخلايا، فى نظام وراثى ثابت، وقانون وراثى محكم.

وفى سنة ١٨٩١م اكتشف العالم الألمانى هنكنج أن العوامل الوراثية نوعان: ذاتية وجنسية، وفى سنة ١٩٠٣م اكتشف العلماء والتر وسيتون وبوفرى أن داخل الخلايا الحية صبغيات (كروموسومات) تحمل العوامل الوراثية، واستمر البحث والدراسة حتى سنة ١٩٣٤م عندما توصّل العالم توماس مورجان بأمريكا، إلى دراسة دقيقة للكروموسومات الموجودة فى الغدد اللعابية لذبابة الفاكهة، نظرا لكبر حجمها وسهولة رؤيتها ودراستها، واكتشف أن العوامل الوراثية مصفوفة ومرتبة على الكروموسومات، وفى سنة ١٩٥٣ استطاع واتسون وكريك وغيرهما، أن يتعرفوا لأول مرة على التركيب الكيميائى للكروموسومات فى الخلية الحية، وفى سنة ١٩٦١م استطاع كل من ماتياى ونايرنبرج، أن يفتح طريق البحث العلمى لمعرفة التركيب الثلاثى للعامل الوراثى.

أما عدد الكروموسومات فى خلية الإنسان فلم تعرف إلا حديثا، ففى سنة ١٩١٢م اعتقد العلماء مثل وينى ووتر أن عدد الكروموسومات فى الإنسان سبعة وأربعون كروموسوما، وفى سنة ١٩٢٠م قال العالم بينتر: إنها ثمانية وأربعون؛ نظرا لأن عددها فى خلايا القرد الشمبانزى، أقرب القرود شبها بالإنسان، ثمانية وأربعون، وكان الاعتقاد بناء على نظريات أصل الأنواع والتطور أو النشوء والارتقاء، أن الإنسان والقرد هما من أصل واحد ومن نوع واحد من الخلق، فلا بد أن يكون عدد الكروموسومات فى خلية الإنسان ثمانية وأبعون كذلك، وظل هذا الاعتقاد حتى سنة ١٩٥٦ عندما اكتشف علماء كثيرون، منهم ليفان وفورد وهامرتون، أن يدرسوا الكروموسومات فى الخلية البشرية دراسة علمية دقيقة، فتوصلوا إلى حقيقة جديدة لم

تكن معروفة من قبل سنة ١٩٥٦م، وهى أن عدد الكروموسومات فى خلية الإنسان ستة وأربعون، وليست ثمانية وأربعون مثل القرد الشمبانزى، وتأكد لدى العلماء حينئذ، أن الإنسان لم ينحدر من سلالة القرد كما كان اعتقاد علماء أصل الأنواع والتطور من قبل.

ومن الصفات الوراثية التى تنتقل من جيل إلى جيل، صفة لون الجلد، وهى تنتقل مثلها مثل باقى الصفات الوراثية، بناء على نظام بالغ الدقة والإعجاز، مما هو فوق تصور العقل البشرى، ومما يقدم دليلا على قدرة الخالق البارئ المصور تبارك وتعالى، ونقرأ عن ذلك فى سورة النحل قول الله عز وجل:

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ وفى سورة الروم يقول الله عز وجل:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

لقد قرن الله تعالى خلق السماوات والأرض، وما فيهما من إعجاز فى الخلق، ودقة النظام، وإبداع التصوير، قرن هذه الآية العظيمة فى الخلق بآية اختلاف اللغات واختلاف الألوان فى شعوب الأرض وسلالات البشر، مما يدل على أنهما آيتان تتساويان فى الإعجاز فى الخلق، والإبداع فى الصنع، وفى سورة فاطر يحدثنا الله تعالى عن الإعجاز فى خلق اختلاف الألوان، مما لا يدرك أبعاد مقدرة الله فيه، إلا العلماء المتخصصون يقول تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

إن تعدد الألوان فى المخلوقات جميعا، هو سر جمالها ورونقها وبهائها. ولا يترتب على اختلاف لون جلد الإنسان، أىُّ ميزة عقلية أو ذهنية أو حضارية فيه، فلون الجلد صفة من الصفات الوراثية، ولا علاقة بينها وبين ذكاء الإنسان، ولا عن استعداده الفطرى للتعلم، ولبناء حضارة أكثر من إنسان آخر بلون آخر.

إن التفرقة العنصرية بناء على لون الجلد خطأ كبير، وأكذوبة كبرى، ولا يعترف الإسلام بذلك مطلقا، فلقد قرر رسول الله ﷺ الحق والصدق واليقين فقال: «**لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى**»، ولقد كان بلال بن رباح، وعمار بن ياسر من كبار الصحابة، ومن المقربين لرسول الله ﷺ، كانا ذا جلد أسود اللون، ولم يقلل لون جلدهم من علو شرفهم، وارتفاع شأنهم عند الله ورسوله، وعند المسلمين كافة.

فاختلاف ألوان البشر، آية من آيات الله فى خلقه، وليست امتيازا لأحد، ولا عيبا لإنسان، ولا مقياسا لفهم أو ذكاء.

الشيخوخة إحدى المراحل الطبيعية فى دورة حياة الإنسان، وكل كائن حى. ويمضى الإنسان الربع الأول من حياته الدنيا فى نمو وزيادة، بينما يمضى الأرباع الثلاثة الباقية من حياته فى عمليات اضمحلال تدريجية ومستمرة، ونحن نعلم أن الجسم مكون من خلايا، تموت وتبنى مكانها خلايا جديدة، أى إن الجسم فى حالتى هدم وبناء، تعقبهما عمليتا هدم وبناء، وذلك فى دورات يعقب بعضها بعضا.

وإذا تجاوزت سرعة البناء سرعة الهدم حدث نمو، وإذا تجاوزت سرعة الهدم سرعة البناء حدثت الشيخوخة.

وهناك أجسام لا تشيخ إلا بعد عمر طويل، وهناك أجسام تشيخ فى سن مبكرة فليس هناك عمر محدد للشيخوخة؛ لأن الشيخوخة ليست متوقفة على العمر وحده، وإنما هى متوقفة على الزمن البيولوجى فى كل خلية من خلايا الجسم، وبين عمر الإنسان والزمن البيولوجى فى خلايا الجسم ارتباط كبير، وللشيخوخة درجات كثيرة. والإنسان فى أول أطواره تكون فى جسمه بقية من قوة يستطيع الإنسان بها أن يقوم بشئون نفسه، وقد يستمر هذا الطور سنوات، وفى الطور الثانى من الشيخوخة يدب الضعف فى البدن، ويهاجم العجز البدن فى كل مكان، ويقوم الإنسان بشئون نفسه فى جهد ومشقة.

وإذا امتد به العمر، وقع فى طور الشيخوخة المتأخر، الذى لا يستطيع الإنسان فيه أن يقوم بشئون نفسه، ولا أن يدرك ويعقل، كما كان يدرك أو يعقل من قبل، وهذا الطور المتأخر يسمى أرذل العمر، وهو طور من الشيخوخة شاق وصعب لا يتمناه أحد لنفسه قط، وقد علمنا سيدنا رسول الله ﷺ أن نستعيذ من أرذل العمر كما فى دعائه الذى رواه البخارى «**اللهم إنى أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من أن أُرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر**»، وقوله ﷺ: «أُرد» فيه معنى العودة إلى الضعف من جديد، فالإنسان يُخلق ضعيفا لا يعلم من أمور دنياه شيئا، ويُرد فى أرذل العمر إلى الضعف ولا يعلم من بعد علم شيئًا.

وعلمنا النبى ﷺ أيضا أن نستعيذ من الشيخوخة بكل أطوارها، كما روى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال: كان النبى ﷺ يقول:

«**اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من الهرم**»... إلى آخر الحديث الشريف.

والشيخوخة تطور طبيعى وتغير بيولوجى فى الجسم يؤدى إلى درجات متتالية من الضعف والوهن، وتصاحبها تغيرات فى

أعضاء الجسم كثيرة، ودرجات من الضعف شتى.

وتاريخ جسم الإنسان في الحياة الدنيا يمر بأربع مراحل: الخلق، والنمو، والشيخوخة، والموت. إنها صفاتٌ موروثة ينظمها ويهيمن عليها نظام وراثى، ويكمن النظام الوراثى في نواة كل خلية حية، ولكن هذا النظام كله يتأثر بعوامل خارجية تبطئ من سرعته أو تزيد مثل تأثيرات البيئة أو الأمراض الطارئة.

فالإنسان الذى يقوم بأعمال شاقة، أو تحت أزمات نفسية متعددة سنوات طويلة يشيخ جسمه قبل إنسان يعيش حياة ناعمة مرفهة مطمئن البال مستريح الأعصاب، وكذلك الإنسان الذى تداهمه الأمراض زمنا طويلا يشيخ جسمه قبل الإنسان السليم.

وعلى أية حال، فإن الوظائف البيولوچية فى الخلية تتضاءل مع تقدم العمر، وفضلا عن كل ذلك فهناك تفاوتٌ كبيرٌ بين الناس فى درجة المعاناة من الشيخوخة، فالبعضُ يعانى أكثر من الآخر، إلا أن الذى يحدث فى الجميع انخفاض مستمر فى القدرة الوظيفية للجسم.

وماذا يحدث لأعضاء الجسم المختلفة فى الشيخوخة؟

العضلات تعانى فى الشيخوخة، فالعضلة مكونة من خيوط عضلية كثيرة.. مثل حزمة من الخيوط، كل خيط لا يزيد قطره على $\frac{1}{10}$ مللى متر، وفى كل خيط نظام دقيق وعجيب، من شأنه تقلص وارتخاء العضلة، بقوة وسهولة.

ومع تقدم العمر، يضعف ذلك النظام داخل الخيوط العضلية فتتصلب العضلة، وتتضاءل قوتها ويقل حجمها، ويحدث الضعف العضلى، وفى الطفولة تكون العضلات ضعيفة. ومع تقدم العمر تنمو وتكبر وتقوى. وفى الشيخوخة تعود وتضعف. وتمر على العضلات فى الجسم أربع مراحل: الخلق، والنمو، ثم القوة، ثم الضعف، أى ضعف ثم قوة ثم ضعف، وكل أعضاء الجسم تمر أولا بالضعف ثم بالقوة ثم بالضعف مرة أخرى فى الشيخوخة، ونقرأ عن هذه الحقيقة فى سورة الروم فى قول الله عز وجل:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾.

وماذا عن شعر الجسم؟ يتغير مع تقدم العمر، وللعوامل الوراثية دور كبير فى ذلك، فالشعر يكون فى صغر السن أكثر مرونة وأكثر قوة وكثافة، أما فى الشيخوخة فيصير أقل مرونة وأقل قوة وأقل كثافة، وقد يتساقط وخاصة فى الرجال، ويبيض الشعر ويشتعل الرأس شيبا، كما فى قوله تعالى: **﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾**.

وماذا عن العظام فى الجسم؟ تتغير العظام والمفاصل مع تقدم العمر، وهذه تغيرات حتمية لا يمكن تفاديها، فتتآكل الغضاريف فى المفاصل، وتصبح العظام أقل

مرونة وأقل قوة فتنكسر لأوهن الأسباب، فليس وهن الشيخوخة فى العضلات فحسب ولكنه يصيب العظام أيضا، وجاء ذكر هذه الحقيقة في الحديث عن النبى زكريا عليه السلام فى قول الله تعالى:

﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤].

وذكر العظم ووصف بالوهن، للدلالة على الضعف فى الشيخوخة؛ لأن العظم هيكل الجسم وأصل بنائه، فإذا تداعى ووهن تداعى ووهن باقى الجسم.

واشتعل الرأس شيبا: وهذا من أحسن الاستعارة فى اللغة. والمعنى انتشار الشيب فى الرأس انتشار النار فى الهشيم.. فأخرج اشتعال النار مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس، والتعبير اللغوى يعطى عموم الشيب جميع نواحى الرأس، فلو قلنا مثلا: اشتعلت نار البيت، لدل ذلك على اشتعال النار فى بعض نواحيه دون بقيته. أما إذا قلنا: اشتعل البيت نارا، لدل ذلك على اشتعال النار فى كل نواحيه.

ولا شك أن تصلب شرايين الجسم من أهم الأسباب التى تحدث الشيخوخة، فإذا تصلبت الشرايين ضاقت سعتها، وبالتالى قلت كمية الدم التى تصل أجهزة الجسم المختلفة، ماذا تكون النتيجة؟

النتيجة أن أجهزة الجسم مثل المخ والقلب والكلى والعضلات وغيرها تضعف قواها، وتقل كفاءتها، وإذا حدث تصلب بالشرايين فى سن مبكرة، حدثت شيخوخة مبكرة، وإذا ظلت الشرايين فى صحة جيدة، طالت فترة شباب الإنسان، بالرغم من مرور الزمن.

وفي أرذل العمر، يقل الدم الواصل إلى أعضاء الجسم بصورة كبيرة، فتضعف الذاكرة، ويضعف التفكير، ويقل الاستيعاب الفكرى، وينتهى الأمر بالإنسان إن طال به العمر إلى حالة العته الشيخوخى، وفيها لا يعلم الإنسان من أمور الدنيا حوله إلا شيئا قليلا، ونقرأ عن هذه الحقيقة فى سورة الحج.



إنسان فى الطفولة ، وآخر فى الشيخوخة
إنها أطوار فى الخلق يمر بها الإنسان
لو امتد به العمر

إنها آية كريمة تمر بتاريخ الإنسان فى الحياة الدنيا مرورا سريعا، ولكنه مرور محكم ودقيق.

استعرضت آية سورة الحج تاريخ الإنسان فى إيجاز محكم فى قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾.

ففى أرذل العمر، وهى المراحل المتأخرة فى حياة الإنسان فى هذه الدنيا، يصل الإنسان إلى العته الشيخوخى فيقل إدراكه ويقل استيعابه، وقد يفقد القدرة على العلم بما يدور حوله من أمور، كما قال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، وكما قال فى سورة يس: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾، ومن هنا نعلم لماذا كان سيدنا رسول الله ﷺ يدعو الله تعالى ويعلمنا أن ندعو وأن نقول: «اللهم إنى أعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر».

وفى سورة النحل يقول الله عز وجل:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

وأرذل العمر كما علمنا، هى المراحل المتأخرة من الشيخوخة، والتى فيها يصير الإنسان إلى نقص العقل، وإلى العتة والخرف ﴿لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، أى يرجع إلى حالة الطفولة، فلا يعلم ما كان يعلم قبل من الأمور.

وجاءت حقيقة رد الإنسان ﴿إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، فى سورة النحل، فى سياق الحديث عن أطوار خلق الإنسان فى الحياة الدنيا، وقدرة الله تعالى عليه، وعلم الله تعالى بكل شئونه.

وجاء ذكر نفس الحقيقة فى سورة الحج، فى معرض الحديث عن البعث بعد الموت، فساق أطوار خلق الإنسان، من أول خلقه نطفة، إلى شيخوخته فى الدنيا وموته بعد ذلك، ساق دورة الموت والحياة هذه دليلا على حقيقة البعث بعد الموت، وفى الشيخوخة تحدث تغيرات فى الجسم، فتصير المرأة فى شيخوختها عقيما، ويصير الرجل غير قادر على الإنجاب.

نقرأ عن ذلك فى الحديث عن امرأة النبى إبراهيم عليه السلام فى سورة هود فى قوله الله تعالى:

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾.

ونقرأ فى سورة مريم قول الله تعالى:

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾.

هل لشيخوخة الجسم علاج؟

لا شك أن الشيخوخة مرحلة من العمر تزعج الإنسان المقبل عليها، وتكدر الإنسان الذى هو فيها، كما عبر عن ذلك الشاعر فقال:

ذهب الشباب فماله من عودة

وأتى المشيب فأين منه المهرب

ولطالما أجرى الإنسان على مر العصور الأبحاث والتجارب، وبذل الكثير من المحاولات فى سبيل العثور على علاج يطيل فترة الشباب، أو يقلل من عجز الشيخوخة ووطأتها على الجسم، ولكن هيهات، فلقد باءت كل المجهودات والمحاولات بالفشل، وذهبت كل التجارب والأبحاث سدى، ولم تكن تلك المحاولات منذ عهد قريب فحسب، بل كانت منذ فجر التاريخ، فلقد عثر الباحثون فى أساطير المصريين القدماء، وأساطير الإغريق والهنود القدماء، على محاولات كانت تبذل فى تلك العصور القديمة لاستعادة الشباب، وكان معظمها باستخدام السحر والشعوذة تارة، وباستعمال الأدوية المختلفة تارة أخرى، بحيث صار ذلك المجهود وتلك المحاولات تمثل جانبا من تراث الأمم والشعوب.

وأخيرا، بعد طول بحث وكثرة جهد اعترف العلماء أن الشيخوخة طور حتمى فى تاريخ الإنسان فى هذه الدنيا، لا مفر منه، ولا علاج له، ولا دواء. ولابد لجسم الإنسان من أن يمر فيه إن أخطأته المنايا وطال به العمر. ومهما حاول الإنسان فلن يجد له من الشيخوخة مفرا، ولن يجد له منها مهربا. إن الذى يقرأ التاريخ يجد أن الناس على مر العصور. قد بذلوا الكثير من الوقت والمال والجهد. فى محاولة استعادة الشباب أو تأخير حدوث الشيخوخة. ولو درس أولئك الناس القرآن والسنة، لوفروا على أنفسهم عناء البحث عن دواء للشيخوخة دون جدوى. ففى سورة يس يقول الله عز وجل: ﴿ **وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾** ﴾.

ونكس الشىء، أى قلبه على رأسه فانتكس، وقال قتادة: المعنى إن الإنسان إذا طال به العمر، يصير إلى حال الهرم، الذى يشبه فيه حال الصبى من الضعف وقلة الحيلة، وحاجته إلى الآخرين.

ونقرأ فى السنة النبوية عن هذا القضية بيانا وعلما، فقد أخرج الترمذى وأبو داود عن زياد بن علاقة، عن أسامة بن شريك قال: قالت الأعراب: يا رسول الله ألا نتداوى؟ فقال: «**نعم عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داءً إلا ووضع له دواءً إلا داءً واحدًا**». قالوا: يا رسول الله ما هو؟ قال: «**الهرم**» (أى الشيخوخة)، وروى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مثل ابن آدم وإلى جنبه تسعة وتسعون منية، إن أخطأته المنايا وقع فى الهرم حتى يموت**».

كان الحديث من قبل عن الشيخوخة كعملية بيولوچية، وطور حتمى فى تاريخ الإنسان فى حياته الدنيا، لابد أن يمر به إن طال به العمر. وفى العصور الحديثة صارت الشيخوخة مشكلة اجتماعية. فالإنسان فى هذا الطور من تاريخ حياته، يعلنه المجتمع الذى يعيش فيه. أنه صار شيخا ضعيفا. ويفرض عليه قيودا معينة، منها الحكم عليه بالتقاعد عن عمله، والامتناع عن ممارسة نشاطه اليومى الذى اعتاد عليه، وبالتالى إجباره على أن يحيا على نظام آخر، يعتزل المجتمع، ويعتزله المجتمع. فيشعر الإنسان الذى وصل إلى سن التقاعد، أنه يعيش حياة تتسم بالوحدة، وأن المجتمع قد عزله، ولم يعد راغبا فى خدماته ونشاطه، ويعلنه أنه لم يعد صالحا للقيام بعمل مفيد. وتكون النتيجة الحتمية لذلك، أن يصاب الإنسان فى هذا الطور من حياته بالإحباط النفسى.

ولم تظهر الشيخوخة كمشكلة بهذا الحجم، إلا بعد الثورة الصناعية فى العصور الحديثة، وما حدث فيها من الاستغناء عن العمال الذين وصلوا إلى الستين سنة من العمر، واعتبر رجال الصناعة أن العامل فى هذه العمر، قد فقد جزءا كبيرا من قدرته عن العمل، فينبغى عليه أن يترك مكانه لمن هو أقدر منه على العمل والعطاء.

أما المجتمع القبلى فى البلاد النامية فإنه يعطى الأهمية الكبرى للمسنين، ويضفى عليهم درجة عالية من الاحترام، مما ليس له نظير فى المجتمعات الصناعية فى عصرنا الحاضر، ويعتبر المسنين قادة وحكماء، ولا تستقيم أمور المجتمع إلا بهم، ولا تصلح أحوال المجتمع إلا بآرائهم وخبراتهم وتوجيهاتهم.

لذلك فالشيخوخة فى المجتمعات القبلية من أسعد أطوار العمر، على العكس تماما من الحال فى المجتمعات الصناعية المتقدمة، حيث الشيخوخة من أسوأ أطوار العمر، وأكثرها بؤسا.

إن المجتمعات الصناعية المتقدمة، لم تحل مشكلة الشيخوخة حلا صحيحا، فالإنسان المسن فى تلك المجتمعات، يشعر أن العالم من حوله قد تغير وصار أضيق مما كان، ولم يعد الإنسان المسن حرًّا فى كل ما يريد من تصرفات، فالمجتمع يفرض عليه قيودا تساهم إلى حد كبير فى عزله عن الناس، فيشعر أن المجتمع لم يكن له وفيا، فلقد ظلمه وأساء إليه، والشيخوخة فى جسم الإنسان - كما تحدثنا من قبل - لا تتوقف على العمر وحده، فكم من إنسان فى الأربعين من عمره وهو يعانى من الشيخوخة، وكم من إنسان من سن الستين وهو لا يزال قويا ونشيطا وسليم الصحة، فالحكم على الإنسان بالتقاعد عن عمله فى سن معينة حكم مخطئ؛ لأنه يقوم على أساس غير صحيح، هذا بالإضافة إلى أن الإنسان فى شيخوخته لديه حصيلة كبيرة من التجارب والخبرات التى تفيد المجتمع فائدة كبرى، لذلك فإن الحكم بتقاعد الإنسان فى

سن معينة بطريقة عشوائية، إهدار لكثير من الطاقات العلمية، والقدرات العقلية، وحرمان المجتمع من كثير من الخبرات، التى كان يمكن أن يحصل منها على فوائد جمة، ولا تكاد تحصى.

ففى المجتمعات الصناعية المتقدمة إهمال للمسنين، فى الوقت الذى فيه يضفون كل الاهتمام للطفولة. وليس المجتمع فحسب، بل إن نظام الحياة فى المجتمعات الصناعية جعل الأولاد يبتعدون عن آبائهم المسنين، فبعد أن كانوا حول آبائهم عند حاجتهم لهم، تركوا آباءهم فى شيخوختهم. وابتعدوا عنهم، فلا يرونهم إلا نادرا. وهذا شكل من أشكال عقوق الأبناء في المجتمعات الصناعية المتقدمة، يسبب للآباء والأمهات ألما نفسيا شديدا، يضاف إلى آلام نفسية أخرى سببها لهم نكران المجتمع لهم، وعدم وفائه لهم، فالإنسان فى المجتمعات الصناعية يعيش فى وحدة قاسية وعزلة مؤلمة، بين عقوق الأبناء، وبين نكران المجتمع لهم، وحرمانه لهم من القيام بأى دور إيجابى فى الحياة العامة.

أما المجتمعات القبلية، فتقف من الطفولة والشيخوخة موقفين متضادين، فلا تهتم لطور الطفولة اهتماما يذكر، بينما تبذل كل الاهتمام للشيخوخة، فالمجتمعات القبلية والمجتمعات الصناعية فى هذه القضية على طرفى نقيض، والأمر فى كلا المجتمعين مسرف فى جانب، ومقصر فى جانب آخر، لذلك فهو فى حاجة إلى إعادة النظر وإلى تصحيح الأوضاع؛ لإعطاء كل من طور الطفولة وطور الشيخوخة حقّه من الرعاية والاهتمام.

أما فى المجتمع الإسلامى: فالأمر مختلف تماما، فلا إسراف هنا ولا تقصير هناك، بل عدالة مطلقة لكل طور من أطوار تاريخ الإنسان فى حياته الدنيا، والشيخوخة من أسعد فترات العمر وأكثرها طمأنينة وارتياحا، فلا يفرض المجتمع الإسلامى على الإنسان المسن أن يتقاعد عن عمله، بل لكل إنسان الحق فى أن يعمل طالما كانت له القدرة على العمل والعطاء، ويمنح المسنين كل اهتمام ورعاية واحترام، فى الوقت الذى يعطى الإنسان فى طور طفولته كل اهتمام ورعاية وعطف، ويعطى طور الشباب حقه فى الرعاية والاهتمام وحسن التوجيه، فالإسلام يمنح الإنسان فى كل طور من أطوار حياته، حقه كاملا فى الرعاية والاحترام بدون إسراف وبدون تقصير.

ولقد قضى الله - عز وجل - أن يحترم الأبناء آباءهم ويعطوهم حقهم كاملا فى الاحترام والتوقير والإحسان، فقال عز وجل فى سورة الإسراء:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ فقرن القرآن الكريم وجوب الإحسان للوالدين، بوجوب

العبادة لله تعالى، وقرنت السنة النبوية عقوق الوالدين بالشرك بالله عز وجل، فقد روى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أحدثكم بأكبر الكبائر**»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور**».

فالإسلام يأمر بالاهتمام بالطفولة والشيخوخة معا، مما ليس له نظير فى أى مجتمع غير إسلامى. وروى الترمذى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا**».

نظرة الإسلام للشيخوخة

الشيخوخة طور من أطوار تاريخ الإنسان فى حياته الدنيا، يمثل مشكلة اجتماعية فى العالم الغربى الصناعى، فيقف المجتمع من المسنين موقفا سلبيا، ويكتفى بتقديم المساعدات والمعونات، وبناء الملاجئ، ويعزل المسنين عن الحياة العامة، ويفرض عليهم وحدة قاسية، وعزلة تسبب للكثيرين منهم الإحباط النفسى، وليس المجتمع فحسب، بل الأولاد أيضا، فهم يبتعدون عن آبائهم، ولا يقومون بواجباتهم تجاههم، وعقوق الوالدين أمر شائع فى تلك المجتمعات.

أما فى المجتمع الإسلامى فالأمر مختلف تماما، فالشيخوخة من أسعد فترات العمر، ويكافئ الله تعالى فيها عبده المسلم، فقد روى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال: «**من شاب شيبة فى الإسلام، كانت له نورا يوم القيامة**».

وعنه ﷺ أنه قال: «**إن الله يستحى أن يعذب عبدا شاب فى الإسلام**».

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تنتفوا الشيب فإنه نور المسلم. ما من مسلم شاب شيبة فى الإسلام إلا كتب له بها حسنة، ورفع بها درجة، أو حط عنه بها خطيئة**».

فالشيخوخة ليست نقمة ولكنها نعمة ونور، تكتب بها الحسنات وتحط عن الإنسان بها الخطايا.

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أنبئكم بخيركم؟**» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «**خياركم أطولكم أعمارا وأحسنكم أعمالا**».

وفى رواية أخرى «**خياركم أطولكم أعمارا وأحسنكم أخلاقا**».

وروى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال: قالت أمى: يا رسول الله خادمك أنس ادع الله له. فقال النبى ﷺ: «**اللهم أكثر ماله وولده وأطل حياته واغفر له**».

وقال أنس: فوالله إن مالى لكثير، وإن ولدى وولد ولدى ليتعادون نحو المائة.

وقال النووى: كان أنس أكثر الصحابة أولادا. وجاء فى الأثر أن أنس رضى الله عنه، مات عن مائة وسبع من السنين.

ولو لم يكن فى طول العمر خير ما دعا به رسول الله ﷺ ربه لأنس. ولو لم يكن فى الشيبة خير، ما كانت للمسلم نورا يوم القيامة، وما اكتسب بها المسلم الكثير من الحسنات.

هذا جزاء الشيخوخة عند الله؟ فما واجب الشيخوخة على الأبناء؟

لقد أوجب الله تعالى على الأبناء أن يوقروا آباءهم إذا بلغوا الكبر، ويخفضوا لهم جناح الذل من الرحمة. كما فى سورة الإسراء فى قوله الله عز وجل:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾: هو قضاء أمر، والمعنى أمر ربك وألزم وأوجب.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أى ألا تعبدوا إلا إياه وأن تحسنوا بالوالدين إحسانا، وأكد الله تعالى فى التوصية بالوالدين فى الكبر، حتى أنه تعالى قرن الإنسان بهما بتوحيده، وقضى بالأمرين معا.

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾: (إما) أصلها «إن ما» «إن» الشرطية و«ما» تأكيد لها وأدغمت النون فى الميم، فصارت «إما» وقوله تعالى: «يبلغن» النون مؤكدة للفعل، فلم يقل «إن يبلغ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما» ولكن الله تعالى أكد الشرط، فقال: «إما» وأكد الفعل فقال: «يبلغن»، فقال تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ وقوله (عندك) أى إن يكبرا ويشيخا، وكانا كلا على ولدهما لا كافل لهما غيره، فهما عنده فى بيته وفى كنفه، وذلك أشق عليه وأدعى إلى التحمل والصبر، وربما بدر منهما ما يضايقه، فهو مأمور بأن يستعمل معهما أقصى درجات اللين والاحتمال والاحترام، فلا يقول «أف» فضلا عما يزيد على ذلك.. و«أف» صوت يدل على الضجر، وهكذا قضى الله تعالى على الإنسان الإحسان لوالديه فى كبرهما وضيق الأمر عليه، حتى أنه عز وجل لم يتجاوز للابن عن أدنى كلمة، أو أقل صوت يفلت منه يدل على الضجر من الديه، حتى ولو كان الأمر يستدعى الضجر.

وروى الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ قال:

«لو علم الله من العقوق شيئا أدنى من أف لذكره فليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار، وليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أى لا تزجرهما عندما يبدر منهما ما لا يعجبك، ولكن قل لهما قولا كريما.

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أى اخفض لهما جناحك الذليل أو الذلول مبالغة فى التذلل والتواضع لهما ﴿جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أى من باب التذلل، وليس من باب الشفقة بهما المجردة من التذلل، بل أن تكون الرحمة بالوالدين فى شيخوختهما من باب التذلل لهما، تذلل الرعية للأمير، ولا يكتف برحمته عليهما التى لا دوام لها ولا بقاء، ولكن ادع الله تعالى أن يرحمهما رحمة دائمة باقية، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

وقال النبى ﷺ: **«رضا الله من رضا الوالدين وسخطه من سخطهما»**.

وروى البخارى أن رجلا سأل النبى ﷺ: أى العمل أحب إلى الله عز وجل؟ قال ﷺ: **«الصلاة فى وقتها»**، قال الرجل: ثم أى؟ قال النبى ﷺ : **«بر الوالدين»**، قال الرجل: ثم أى؟ قال النبى ﷺ: **«الجهاد فى سبيل الله»**.

فبر الوالدين أحب الأعمال إلى الله تعالى بعد الصلاة فى وقتها، وأحب إلى الله عز وجل من الجهاد فى سبيله، فالبر بالوالدين أحسن الجهاد.

وقال النبى ﷺ: **«من أمسى مرضيا لوالديه أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة. ومن أمسى وأصبح مسخطا لوالديه، أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار»**.

وروى الترمذى عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال:

«ما أكرم شاب شيخا لسنه، إلا قيض الله له من يكرمه عند شيوخته» وروى مسلم فى صحيحه عن ابن عمرو رضى الله عنهما قال:

أقبل رجل إلى النبى ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغى الأجر من الله فقال النبى ﷺ: **«فهل من والديك أحد حى؟»** قال: نعم.. بل كلاهما. فقال النبى ﷺ: **«فتبتغى الأجر من الله؟»**، قال: نعم قال ﷺ: **«فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما»**.

ويأمر الإسلام بالاهتمام بالطفولة وبالشيخوخة على سواء، مما ليس له نظير فى أى مجتمع غير إسلامى. فقد روى الترمذى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى ﷺ قال:

«ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا».

ولم يفرض الإسلام عمرًا معينا لتقاعد الإنسان عن عمله، فطالما يستطيع الإنسان أن يعمل وينتج فالمجتمع يفتح له أبواب العمل، وإن شعر أن صحته تمنعه من ذلك طلب التقاعد من تلقاء نفسه، ويكفل له بيت المال الحياة الكريمة.

أما فى المجتمعات الصناعية فيحكم على الإنسان بالتقاعد عن عمله، وقد يكون فى تمام الصحة والقدرة على الإنتاج، وبذلك يُحرم المجتمع من خبراته وقدراته، وكم من علماء ومخترعين لم يبدعوا فى مجال علومهم ونشاطاتهم إلا بعد سن الستين، ولنا فى ألبرت أينشتاين مثل على ذلك، فهو من

أعظم علماء هذا القرن فى العلوم الرياضية، ولم يبدع فى فكره وإنتاجه العلمى، إلا فى شيخوخته.

إن المجتمع الإسلامى هو المجتمع المثالى، فهو يعطى الطفولة حقها من الاهتمام ويعطى المسنين حقهم من التكريم والاهتمام، وبذلك يكرم الإسلام الإنسان فى كل طور من أطوار حياته، وذلك قوله تعالى فى سورة الإسراء:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾.



ألبرت أينشتاين

أعظم علماء الفيزياء الكونية فى القرن العشرين.. لم يظهر إبداعه العلمى إلا فى طور شيخوخته

وقد يتساءل البعض؟ هل تشيخ مشاعر الإنسان بتقدم العمر؟

إن بمرور الزمن تحدث تغيرات فى مشاعر الإنسان، وهى ليست شيخوخة فى المشاعر؛ لأنها تغيرات إلى الأفضل وإلى الأوفر فى النضج، فالإنسان فى طور الشيخوخة يصير أكثر نضوجا، وأكثر تعقلا، وأبعد نظرا فى حكمه على الأمور، فهو لا يستجيب لاندفاعات الشباب وحماسه، غير المبنية على مبرر معقول فى كثير من الأحوال.

وتبدو للإنسان وهو فى هذا الطور من أطوار حياته، متع أخرى لم تكن تستهويه من قبل، ويكبر الإنسان، ويكبر معه حرصه على ماله وولده، ويجد فيهما زينة الحياة الدنيا، فيكبر مع الإنسان فى شيخوخته حب الدنيا، ويسبقه دائما أمله فى الحياة.

وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال:

«لا يزال قلب الكبير شابا فى اثنتين: حب الدنيا وطول الأمل».

والإنسان فى شيخوخته يصير أكثر حبا للتوقير والاحترام له، وأكثر حرصا على ما تبقى من أيام عمره، ويحاول أن يقضيها بما تمليه عليه نفسه، ويكبر الإنسان جسما وعمرا ولكن قلبه يظل شابا فى اثنتين: حب الدنيا وطول الأمل. ومن الناس من يتجه فى حب الدنيا إلى الخير، ومن الناس من يتجه فى حب الدنيا إلى غير ذلك، تبعا لدرجة الإيمان فى قلبه، وروى الترمذى أن النبى ﷺ قال:

«قلب الشيخ شاب فى اثنتين: طول الحياة وكثرة المال».

فمشاعر الإنسان تصاحبه حتى فى شيخوخته إلا أنها تتغير مع تقدم العمر، وبعض مشاعر الإنسان تضعف، وبعض مشاعره تقوى، وبعض مشاعره تختفى، إلا أن قلب الإنسان يظل شابا فى شيخوخته فى اثنتين: حب الدنيا وطول الأمل.

الرقيب العتيد

يخبرنا الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى، أن مع كل إنسان فى الدنيا ملكين، وما يلفظ الإنسان من قول أو يقوم بعمل، إلا سجله عليه الملكان الموكلان به فى الدنيا، وذلك لهدف معين، هو عرض أعمال كل إنسان وأقواله يوم الحساب.

إن وجود الملائكة مع الإنسان حقيقة لاشك فيها. فالإنسان منذ كونه جنينا فى بطن أمه، وله مع الملائكة صلات، ولا يعيش الإنسان بعد ولادته بمعزل عن الملائكة أبدا، وحتى عند موته تحيط به ملائكة موكلون به فى حالة وفاته، وبعد وفاته تأتيه ملائكة آخرون موكلون به فى قبره، فلا يعيش الإنسان أو يموت بمعزل عن الملائكة قط. والإنسان فى حياته الدنيا معه ملكان عن يمين وعن شمال، ويسجلان أعماله وأقواله، ولا يغادران منها صغيرة ولا كبيرة.

ولقد أعطانا التقدم العلمى استدلالا علميا على وجود الملكين اللذين يسجلان أعمال الإنسان، واللذين أخبرنا الوحى الإلهى فى القرآن والسنة عنهما، فكيف كان ذلك؟

يقول علم النفس: إن بالإنسان عقلا واعيا وعقلا باطنا، وشعورا ولا شعور. وكل ما يمر بالإنسان من أحداث وأقوال تسجل فى العقلين معا، إلا أن العقل الواعى قد ينسى بمرور الزمن، أما العقل الباطن فلا ينسى مهما مر زمن ومهما انقضى وقت، وأى حادث يقع لإنسان فى طفولته يظل محفوظا فى عقله الباطن، ويحاول الظهور ويعبر عن نفسه من حين إلى حين، وكأنه حدث فى التو واللحظة، مهما طال الزمن، ومهما امتد بالإنسان العمر، فعمل العقل الباطن واللاشعور لا يخضع لحدود الزمن والمكان كما يخضع العقل الواعى.

ولكن أين العقل الباطن؟ أهو داخل الجسم أم خارجه؟ إن خلايا الجسم تموت وتحل محلها خلايا جديدة، تحمل نفس الصفات، إلا خلايا المخ، فالخلايا التى تموت فى الجهاز العصبى لا تحل محلها خلايا جديدة، لذلك كلما تقدم بالإنسان العمر، ازداد نسيانا لأحداث الماضى القريب، فهى قد سجلت فى خلايا فى الدماغ فى شيخوخة فلا تحسن التسجيل، ولكنه قلما ينسى أحداثا فى الماضى البعيد، التى سجلت فى خلايا فى الدماغ والخلايا فى شبابها وقوتها وتحسن التسجيل، وإذا ما سألت إنسانا فى شيخوخته عما حدث بالأمس فربما لا يذكره، ولكنه لا ينسى أحداثا وقعت فى الماضى البعيد.

فهل العقل الواعى فى خلايا الدماغ، أو له علاقة مباشرة معها؟ نعم، لابد أن هناك صلة بين العقل الواعى وخلايا الدماغ، وهل

يكون العقل الباطن فى خلايا الدماغ أيضا؟ لا نظن أن ذلك صحيح، فإن خلايا الدماغ مادية، فهى تخضع للزمن، أما العقل بالباطن فلا، فلابد إذن أن يكون منفصلا عن الجسم المادى، وإذا كانت أفكار الإنسان وأحاسيسه لا تنفصل عنه، فلابد أن يكون العقل الباطن أو اللاشعور موجودا مع الجسم، أو مرتبطا به بنوع من الارتباط، ولكنه مستقل عن مادة الجسم نفسها.

وقد يسأل سائل: أيكون العقل الباطن أو اللاشعور هو والنفس البشرية شيئا واحدا؟ أو يكون مستكنا فى أعماق النفس البشرية؟ ربما يكون ذلك صحيحا، ولكن أين هى النفس البشرية؟ نحن نعلم أنها شخصية الإنسان الكاملة، وهى التى تأمر الجسم وهى التى تنهى، والجسم المادى أداة طيعة فى يدها، كالسيارة فى يد سائقها، السيارة هى الجسم المادى، والسائق هى النفس البشرية، ولكن أين هى النفس البشرية؟ وأين هو اللاشعور؟ إنها أسئلة لا نعرف لها جوابا مؤكدا، إلا أن ذلك يدل دلالة مؤكدة، على أن عالما آخر يحيط بكل إنسان أثناء حياته الدنيا، عالما غير عادى مرتبط بأجسامنا ارتباطا وثيقا، ارتباطا لا ندرى كنهه تماما، وكل أعمال الإنسان ومشاعره وأحاسيسه وأفكاره مرتبطا تسجل فى العقل الواعى وفى العقل الباطن معا، وقد يخطئ العقل الواعى أو ينسى، أما العقل الباطن فلا.

وهذا الموضوع يسوقنا إلى مناقشة قضية أخرى.

إذا كانت أعمال الإنسان وأقواله وأفكاره وما يخفى وما يعلن كلها مسجلة فى اللاشعور، وهو كائن غير مادى، ومرتبط بنا فى حياتنا الدنيا، فهل يسجل كل ذلك أيضا فى وسائل أخرى؟

لم يكن الناس قديما يعرفون الجواب عن ذلك، ولكن التقدم العلمى فى عصرنا هذا أعطانا الجواب على هذا التساؤل، نعم يمكن تسجيل أعمال الإنسان وأقواله وحركاته وسكناته بواسطة آلات التسجيل الصوتى، أو آلات التسجيل السينمائى، أو التليفزيونى على شريط، ويمكن إعادة عرض هذا الشريط على الإنسان نفسه، أو على غيره من الناس، بعد مرور سنوات، فيظهر بصورته وصوته وحركاته وسكناته، لا يتغير فيها شىء ولا يتبدل، بل إننا نشاهد أشرطة تليفزيونية مثلا تعيد عرض مشاهد لإنسان مات منذ زمن بعيد، فنراه أمامنا بهيئته وصورته ونسمع حديثه، ونرى حركاته وانفعالاته، لا يتغير منها شىء صغيرا كان أم كبيرا، وكأنه موجود معنا فى التو واللحظة.

بل إن أجهزة الإرسال التليفزيونى، ترسل بصوت الإنسان وأقواله وأفعاله وحركاته عبر الأثير، فتلتقطها أجهزة الاستقبال فى المنازل، أو فى أى مكان، فيرى الناس فى التو واللحظة الصورة المرسلة لهم من أقصى الأرض، أو المسجلة منذ زمن بعيد، فأجهزة البث التليفزيونى تبث الصور والحركات والكلمات والأفعال، تبثها فى الأثير، فتلتقطها الأقمار الصناعية، وتردها

إلى الأرض فى موجات أثيرية، فتلتقطها أجهزة الاستقبال فى أى مكان على الأرض، ويشاهدها الناس فى نفس اللحظة، وتلك الأجهزة تنقل الحركات والسكنات والأقوال والأفعال، ولا تغادر منها شيئا مهما كان صغيرا.

وتوصل العلماء إلى حقائق مثيرة، وهى أن كل حركة وكل صوت، يظل فى الأثير ولا يتلاشى أبدا، ولو استطاع العلماء اختراع آلة تجمع تلك الموجات الأثيرية الخاصة بإنسان معين، فإنه من الممكن أن نستمع إلى أصوات الذين ماتوا منذ آلاف السنين.

نفهم من كل هذا الحديث، أن صوت الإنسان وحركاته وسكناته وأفعاله وأقواله، تسجلها أجهزة استطاع الإنسان أن يصنعها، ويمكن إعادة عرضها مرات ومرات، ولو بعد سنوات وسنوات.

إنها حقائق علمية، لو أخبرنا بها إنسانا عاش فى القرن الماضى، ما صدّق أبدا، ولقد أعانتنا تلك الاكتشافات العلمية الحديث إلى تفهم بعض أوجه العلم فى بعض آيات القرآن العظيم، والأحاديث النبوية المشرفة والتى تخبرنا أن أعمال الإنسان يسجلها عليه ملكان فى الدنيا، لتعرض عليه يوم الحساب، لتكون حجة عليه فى هذا اليوم العصيب.

وإذا كان الإنسان قد استطاع أن يسجل بآلات يصنعها هو أعمال وأقوال وحركات إنسان مثله على شريط تليفزيونى أو سينمائى، ويعيد عرضها بعد سنوات وسنوات، فإن الله تبارك وتعالى أقدر من خلقه على تسجيل أعمال الإنسان وأقواله وإعادة عرضها عليه يوم الحساب، ونقرأ فى سورة ق قول الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

فالملكان الموكلان بكل إنسان منا فى الدنيا، يكتبان ويسجلان كل لفظ، وكل حركة، وكل فعل للإنسان، بهدف العرض عليه يوم الحساب، وبذلك يقيم الله تعالى الحجة على الإنسان من نفسه.

الرقيب العتيد والقرين

ذكر لنا القرآن العظيم حقيقة الرقيب العتيد، وعلاقته بالإنسان فى سورة ق فى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

الوسوسة: هى حديث النفس بما لا يعبر عنه اللسان.

وحبل الوريد: تعبير لغوى عن نفس الإنسان وقلبه، فالله عز وجل أقرب إلى الإنسان من نفسه وقلبه. المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد: هما الملكان يتلقيان أعمال

الإنسان، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، وقعيد بمعنى قاعد، ولم يقل قعيدان وهما اثنان؛ لأن المراد القول: عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، فحذف الأول لدلالة الثانى عليه، وجاء فى تفسير الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى من حديث أبى أمامة، قال رسول الله ﷺ:

«كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على شماله، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر».

وجاء فى تفسير روح المعانى للإمام **الألوسى**: أخرج الطبرانى وابن مردويه والبيهقى من حديث أبى أمامة مرفوعا **«فإذا عمل حسنة كتبت له بعشر أمثالها. وإذا عمل سيئة وأراد صاحب الشمال أن يكتبها، قال صاحب اليمين: أمسك. فيمسك ست ساعات أو سبع ساعات فإن استغفر الله تعالى منها لم تكتب عليه منها شيئا. وإن لم يستغفر الله تعالى كتب عليه سيئة واحدة»**، وفى رواية أخرى **«إن صاحب اليمين يقول: دعه سبع ساعات لعله يسبح وتستغفر»**.

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾: أى لا يتكلم الإنسان بشىء إلا كتب عليه. والله تعالى أعلم، فلا يحتاج الأمر إلى ملك يخبر، ولكن الله عز وجل وكلهما بالإنسان إلزاما للحجة عليه، والرقيب: هو المتتبع للأمور والشاهد والحافظ عليها، والعتيد: الحاضر الذى لا يغيب، والحافظ المعد للحفظ.

وقال أبو الجوزاء ومجاهد: يكتب على الإنسان كل شىء حتى الأنين فى مرضه وروى أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا، فيرى الله فى أول الصحيفة خيرا، وفى آخرها خيرا، إلا قال الله تعالى لملائكته: اشهدوا أنى قد غفرت لعبدى ما بين طرفى الصحيفة».

ويقول الله عز وجل فى سورة ق:

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

فالإنسان فى يوم الحساب يأتى ملك يسوقه وملك يشهد عليه، والإنسان على نفسه شهيد أيضا، وقد يكون ملكا واحدا جامعا بين الأمرين سائقا وشهيدا، لقد كان الإنسان فى حياته الدنيا فى غفلة من هذا الموقف العظيم يوم الحساب، وحينئذ يكشف عن الإنسان الغطاء، فإذا ببصره أكثر حدة ومضاء، والمراد به البصيرة، وروى الإمام مالك فى الموطأ عن بلال بن الحارث المزنى أن رسول الله ﷺ قال:

«إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله

عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه».

فما يلفظ أى إنسان من قول إلا ويسجل عليه، وسوف يعرض عليه يوم الحساب ليحاسب بمقتضاه. وسوف يشهد على نفسه كما يشهد الملك عليه أيضا، وقال الزمخشرى فى تفسيره: المعنى أن ملكا يسوقه، وآخر يشهد عليه، وشيطانا مقرونا به يقول: لقد أعدته لجهنم وهيأته لها بإغوائى وإضلالى، ويقول للملكين: ألقياه فى جهنم، كما قال الله عز وجل فى سورة ق:

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

الآية الكريمة تتحدث عن القرين، فما هو القرين؟ هل هو ملك موكل بالإنسان فى الدنيا، أم هو شيطان يلازمه؟ الظاهر أن كلا الرأيين صحيح. فقد قال الحسن: إن القرين هو ملك موكول بالإنسان فى الدنيا. وقال مجاهد: إن القرين هو شيطان قُيِّض للإنسان.

ولقد جاء ذكر القرين فى القرآن الكريم فى ستة مواضع، متصفا فيها جميعا بالعداء للإنسان كما فى سورة النساء الآية ٣٨ فى قول الله تعالى: **﴿ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾**، وفى سورة الزخرف يقول تعالى:

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ ﴾، وفى سورة ق يقول الله تعالى:

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾، وقال تعالى أيضا: **﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾**.

وفى سورة الصافات قال تعالى: **﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾**، فما هو القرين؟ يقول العلماء: إن لكل مخلوق فى الوجود قرينا حتى الجماد له قرين، وقال بعض علماء الفلك، إن الشمس كنجم كان له قرين، وانفجر، ومنه تكونت الكواكب السيارة. ودليل ذلك أن مكونات الكواكب السيارة مختلفة عن مكونات الشمس.

والقرين فى اللغة هو نقيض الشىء.

فى سنة ١٩٦٩م سقط نيزك من السماء على الأرض فى أستراليا، ووضعته مؤسسة أبحاث الفضاء الأمريكية فى كاليفورنيا تحت الدراسة عاما كاملا، فوجدوا أن بالنيزك أحماضا أمينية، مما يدل على وجود حياة

بصورة مـا فى الكواكب الأخرى، والـنيازك تسقط على الأرض بالآلاف كل يوم، وتحمل لنا جانبـا من أنباء الكون. واكتـشف العلماء فى نيـزك أستـراليـا أن الأحمـاض الأمينيـة أحمـاض يمنى، نقيـضة للأحـماض الأميـنية الموجـودة فى كـوكـب الأرض، والتى هى أحمـاض أمينيـة يسرى، ومثـال على ذلك، صورة أى إنسان فى المرآة أنـها نفس صورته، ولكن اليـسـار يكون يمينا، واليـمين يكون يسارا، والقرين كذلك. إنه على نفس صورة كل إنسان منا، ولكن يميننا فى القـرين يسار، ويسارنا فى القرين يمين.

نفهم من كل ذلك، أن لكل إنسان منا ملائكة موكلين به فى حيـاته الدنيا، يسجلون عليه كل أفعاله وأقواله، ومعه أيضا قرين من الجن يلازمه ويأمره بالشـر ويوسوس إليه به، وما الدليل على ذلك؟ الدليل مـا رواه مسلم والإمام أحمد، عن سالم ابن أبى الجعد، عن عبـد الله أن رسول الله ﷺ قـال: «**ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة**»، وروى مسلم فى صحـيحه عن صدقـة بن يسار عن عبد الله بن عـمر رضى الله عنهمـا أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا كان أحدكم يصلى فلا يَدَعْ أحدا يمر بين يديه، فإن أبى فليقاتله فإن معه القرين**».

وقرين الإنسان من الملائكة، يأمره الخير ويحـثه عليـه، وقرينه من الشـياطين، يأمـره بالشر ويحثه عليه.

تراب يعود إلى تراب(١)

كل شيء فى هذا الكوكب، خلق من ذرات، والذرات فى كل المخلوقات، هى هى لا تتغير صفاتها ولا خواصها، مهما اختلف نوع الخلق، فذرة الهدروچين الموجودة فى طبقات الجو العليا، تتماثل تماما وذرة الهيدروچين الموجودة فى ورقة نبات، أو فى حبة رمل. وذرة الأكسچين الموجودة فى قطرة ماء، تتماثل تماما وذرة الأكسچين الموجودة فى قطعة من خبز، أو فى خلية فى جسم حشرة، أو خلية فى جسم طير من الطيور.

فالذرة هى لبنةٌ فى بناء كل خلق من المخلوقات، والأبنية فى الأرض مثلا تختلف أشكالها وأحجامُها ومقاصدُها، ولكنها جميعا مكونة من لبنات متماثلة تمام التماثل، إلا أنها تختلف فى المكان والارتباط بغيرها، وإذا هدمت عمارة مثلا فمن الممكن أن تستعمل لبناتها فى بناء بنيان جديد، وعلى شكل جديد، أو تتحول إلى تراب، تصنع منه لبنات أخرى جديدة، وكذلك تتركب أجسام المخلوقات جميعا، وما إن تموت حتى تعود ترابا، وتعود الذرات المكونة لأجسامها للتراب، ومن التراب يخلق خلق جديد.

إن نظام المخلوقات فى الكون كله، نظام واحد، لا تفاوت فيه ولا اختلاف، كما فى سورة الملك الآية ٣ فى قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾،

ولا شك أن وحدة النظام فى الخلق دليل على وحدانية الخالق تعالى. ولنأخذ خلق جسم الإنسان مثلا على ثبات سنة الخلق ووحدة نظامه.

فجسم الإنسان خُلق من ذرات.

ولكن أين كان جسم الإنسان قبل حياته الدنيا؟ إنه خلق من تراب الأرض، وسيعود إلى تراب الأرض؛ لأن كل العناصر المكونة للجسم موجودة جميعها فى التراب، ولقد حدثنا القرآن العظيم عن هذه الحقيقة فى سورة الحج الآية: ٥ قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾.

وجسم أى إنسان منا تموت فيه آلاف الملايين من الخلايا كل ساعة وتعود إلى تراب، وتتكون فى نفس الوقت خلايا وليدة جديدة تحل محل الخلايا التى ماتت وتحولت إلى تراب، ويظل جسم الإنسان فى حياة مستمرة، وبناء جسمه يتجدد إلى ما شاء الله.

وإذا فكرنا فى نظام خلق جسم الإنسان، لوجدناه مشابها لنظام المجرات فى الفضاء الكونى، ففى أى مجرة تفنى نجوم كثيرة وتتحول إلى غبار كونى، يعود إلى مركز المجرة من جديدة حيث تتكون منه نجوم وليدة جديدة، تنتشر فى الفضاء. ويحتويها الزمن، فتصيبها الشيخوخة بعد ذلك وتفنى

وتعود إلى غبار كونى وهكذا، فمع موت النجوم وإعادة خلقها، تبقى المجرة فى حياة مستمر ومتجددة إلى ما شاء الله.

وهذا هو أيضا نفس النظام فى الخلق كله، إنه قانون واحد وفطرة متماثله، وخالق واحد ليس كمثلة شيء.

الإنسان كان ترابا قبل خلقه فى الدنيا، فى أحسن تقويم، ولكن أين كان هذا التراب الذى خُلق منه جسم أى إنسان منا قبل خلق الأرض نفسها؟ إنه كان فى الفضاء الكونى، فى السديم، من ذرات تحتل من السماء الدخانية الأولى حجما أكبر من حجم الأرض، وتكونت الأرض من السديم الكونى. وكان التراب الذى خلق منه جسم أى إنسان منا، من ضمن تراب الأرض. ومن تراب الأرض خلقت كل الكائنات الحية من إنسان وحيوان وطير ونبات، كلها من تراب، وفى نهايتها نعود إلى تراب. ومن التراب ينشأ خلق جديد.

ورب ذرة فى جسم إنسان منا. كانت فى صخرة فى جبل، أو فى ورقة شجرة، أو قطرة ماء مطر، أو فى جسد سمكة من الأسماك، وتجمعت ذرات من العديد من المصادر، وأراد لها الخالق تعالىٰ أن تكون فى بناء جسم واحد منا فكانت. وبعد أن يموت الجسم يعود ترابا مرة أخرى.

وفى بعض الأحوال وتحت ظروف معينة، تتوقف حالات التحلل فى الأجسام الميتة إلى تراب، وبمرور زمن طويل تستبدل مكونات الجسم بمواد أخرى، مثل بعض الرواسب الصخرية.

ويقول علماء الچيولوچيا:إن بقايا الأجسام تتحجر، دون أن يحدث لها تغير فى التركيب الكيماوى لموادها الأصلية، نتيجة لفقدان المادة العضوية فى تلك الأجسام، وتبقى المواد غير العضوية فقط، ويستغرق ذلك زمنا طويلا، ويلاحظ علماء الچيولوچيا أن بعض أجسام المخلوقات الحية وبعض الأشجار المدفونة فى صخور الأرض تتحجر مع احتفاظها بشكلها المميز لها، غير أن مادتها صارت مكونة من صخور السليكون بدلا من المواد العضوية التى كانت فيها، ويسمون تلك الأجسام المتحجرة «الأحافير» فالأحافير هى بقايا أجسام الكائنات الحية، أيًّا كانت تلك الكائنات بعد دفنها فى الأرض فى عصور چيولوچية قديمة، وتحولها إلى أجسام متحجرة فى الصخور الرسوبية، وتتكون أنواع أخرى من الأحافير، تستبدل فيها المواد العضوية فى أجسامها ليس بصخور السليكون، ولكن بالأملاح المعدنية، فيصير الجسم معدنا كمعدن الحديد، وكيف يحدث ذلك؟

يقول العلماء: إنه تحت ظروف چيولوچية معينة يستبدل كل جزء من المواد العضوية فى الجسم المدفون بجزئين من مادة معدنية فى صخور الأرض، فيصير الجسم أحفورة معدنية، ولما كان معظم صخور الأرض من معدن الحديد، فإن تلك الأحافير تكون أحافير من حديد.

ومعدن الحديد ليس هو الحديد الذى نعرفه فى صناعة السيارات أو القضبان

الحديدية، كلا، فهذا هو (فلز الحديد)، ولكن معدن الحديد هو المواد الطبيعية المكونة لمعظم صخور الأرض، مثل أكسيد الحديد المائى وأكسيد الحديديك وكربونات الحديد، فصخور الأرض وترابها خليط من عدة معادن، وتقوم المياه الجوفية باستبدال المواد العضوية فى الأجسام الميتة المدفونة فى التراب بالمواد الموجودة فى التراب، فإن استبدلتها بكربونات الكالسيوم أو السيلكا صارت الأجسام حجارة، وإن استبدلتها ببعض المعادن فى صخور الأرض كمعدن الحديد، صارت الأجسام حديدا.

وما يحدث لأجسام النبات والكائنات الحية جميعا يحدث لجسم الإنسان بعد موته ودفنه فى تراب الأرض.

١- يتحول أولا إلى تراب.

٢- وإذا حدثت ظروف چيولوچية معينة صارت الأجسام أحفورة من حجارة.

٣- وإذا حدثت ظروف چيولوچية أخرى صارت الأجسام أحفورة من حديد.

ويتساءل الكافرون كيف سيبعثهم الله خلقا جديدا بعد أن تتحول أجسامهم إلى تراب فى الأرض، وبعد ملايين السنين؟ فيتحداهم الله تبارك وتعالى بأنه سيبعثهم خلقا جديدا ليس بعد تحول أجسامهم إلى تراب فحسب، ولكن بعد أن تتحول أجسامهم إلى أحافير من حجارة أو أحافير من حديد، فذلك قول الله تعالى فى سورة الإسراء:

﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢)﴾.

ولم يكن القدامى يعلمون شيئا عن الأحافير، فإذا تكلم القرآن العظيم عن مصير الأجسام الحية مما لم يكتشفه علم الچيولوچيا إلا حديثا فإن ذلك دليل على أن القرآن العظيم رسالة من الله عز وجل إلى البشر جميعا فى كل عصر من العصور، من يوم نزوله وإلى يوم القيامة يحدثهم، ويهديهم إلى سواء السبيل على قدر ما تطيق عقولهم وتستوعب أفكارهم.

والله عز وجل هو الذى خلق الناس وهو الذى يميتهم، وهو الذى يحييهم وإليه يرجعون.

تراب يعود إلى تراب (٢)

لقد خلق جسم الإنسان من تراب هذه الأرض لا شك فى ذلك، كما قال الله تعالى فى سورة الحج الآية ٥: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾.

وفى حديث نبوى شريف رواه الترمذى وأبوداود وأحمد أن رسول الله ، قال فيه: «والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب».

فآدم خلق من أديم هذه الأرض، فهو سُمى بما خُلق منه، وتحدثنا عما يحدث لجسم الإنسان بعد موته، وقلنا:إنه يتحول أولا إلى تراب، وقد يظل فى مكانه أو يتشتت هنا وهناك، فقد يصير فى قمة جبل أو فى قاع بحر أو جزء من صخرة، أو يصير ترابا فى الطرقات، وفى سقط الزند كتب أبو العلا المعرى قصيدة مطلعها:

غير مجد فى ملتى واعتقادى
نوحُ باكٍ أو ترنم شاد
وشبيهُ صوت النعى إذا
قيس بصوت البشير فى كل ناد
أبكت تلكم الحمامة أم غنـ
ـت على فرع غصنها المياد
صاحِ: هذى قبورنا تملأ الرحـ
ـب فأين القبور من عهد عاد؟
خفف الوطء ما أظن أديـ
ـم الأرض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهـ
ـد هوان الآباء والأجداد
سر إن اسطعت فى الهواء رويدا
لا اختيالا على رفات العباد
ربَّ لحد قد صار لحدا مرارا
ضاحك من تزاحم الأضداد

إن جسم الإنسان عندما يموت شأنه شأن أى خلق من المخلوقات الحية جميعا يتحول إلى تراب، وبفعل عوامل التعرية، من مطر ورياح ومياه وغير ذلك، فإن التراب يتبعثر هنا وهناك، ولا يظل فى مكانه الذى دُفن فيه، ويعلم الكافرون ذلك، ولكنهم لا يصدقون ما يحدثهم الله تعالى به من الحق، فنقرأ فى سورة السجدة قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠)﴾.

أإذا ضللنا فى الأرض: أى أإذا تشتت أجسامنا ترابا بعد الموت فى كل مكان فى الأرض، أإنا لفى خلق جديد؟ أى أنبعث بعد ذلك خلقا جديدا؟

وفى سورة سبأ يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ

جَنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾.

وكان رسول الله ﷺ علما مشهورا فى قريش، وكان إنباؤه بالبعث بعد الموت معروفا للجميع، فما معنى قوله تعالى: ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ ﴾: إنهم قصدوا أن ينكروه، ويعرضوا عليهم الدلالة عليه، كما يُدلُّ على مجهول فى أمرٍ مجهول، يريدون بذلك - لعنهم الله - الهزء به والسخرية، إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد: أى مزقت أجسادكم، وبليت وفُرقت كل تفريق فى تراب الأرض.

والله تبارك وتعالى قادر على جمع ذلك الشتات، وقادر على خلقه مرة أخرى جسما كما كان، وقد يكون ذلك من بعض المعانى فى سورة القيامة فى قول تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ ﴾، والجمع لا يكون إلا لشىء تبعثر وتشتت. ويتعجب سيدنا إبراهيم- عليه السلام - ويتساءل، سؤال المصدِّق المؤمن - كيف يحيى الله الموتى وقد تشتت أجسامهم، كما فى سورة البقرة الآية ٢٦٠ فى قول الله جل جلاله:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾.

نلاحظ من الآية الكريمة، أن النبى إبراهيم - عليه السلام - لم يُنْكِرِ قدرة الله على الإيجاد، ولكنه سأل عن كيفية حدوث الإيجاد. فلم يكن النبى إبراهيم - عليه السلام - شاكا فى إحياء الموتى قط، وإنما طلب المعاينة؛ وذلك أن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت به، فقد أبصر بقلبه فأراد رؤية العين. وسأل ليزداد يقينا إلى يقنه.

﴿ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾: أى سألتك ليطمئن قلبى بحصول الفرق بين المعلوم برهانا، والمعلوم عيانا.

ويتساءل الكافرون كيف يبعث الله من التراب والعظام جسدا حيا جديدا؟

وفى ذلك نقرأ فى سورة الواقعة قول الله سبحانه:

﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾.

وفى سورة يس يقول الله تعالى:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾: أى نسى أنا أنشأناه من نطفة لاحياة فيها، فركبنا فيها سر الحياة، ونفخنا فيها الروح، أى إن جواب الكافر السائل من نفسه حاضر، وقيل إن سبب نزول الآية أن عبد الله بن أبى أتى النبى ﷺ بعظم حائل فقال: يا محمد أترى أن الله يُحيى هذا بعدما رمَّ؟.. ففهم رسول

الله ﷺ قصده، وقال له: «**نعم ويبعثك الله ويدخلك النار**»، فنزلت الآية.

ففى هذا دليل على صحة القياس؛ لأن الله جل جلاله احتج على منكرى البعث بالنشأة الأولى فقال: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** ﴿٧٨﴾﴾. أى بالية، فنزل قوله تعالى: ﴿**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** ﴿٧٩﴾﴾، فهو الله الذى أنشأها أول مرة من غير شىء، فهو قادر على إعادتها فى النشأة الثانية من شىء وهو التراب.. ﴿**وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾: أى كيف يُبدئ ويعيد.

وتحول جسم الإنسان إلى تراب بعد الموت موضوع كان يُشغل بال الكفار، وكانوا ينكرون حقيقة البعث بعد الموت.. فى سورة المؤمنون جاء ذكر إنكار الكفار للبعث فى قول الله تعالى:

﴿**أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ** ﴿٣٥﴾ **هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ** ﴿٣٦﴾ **إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** ﴿٣٧﴾ **إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ** ﴿٣٨﴾﴾.

والمعنى: (أيعدكم أنكم مخرجون إذا متم) هيهات هيهات: كلمة للبعد، كأنهم قالوا بعيدا ما توعدون: ﴿**إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا**﴾.. وكيف قالوا نموت ونحيا وهم لا يقرون البعث؟.. الكلام فيه تقديم وتأخير: أى إن هى إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت، كما قال: ﴿**واسجدى واركعى**﴾، والمعنى (اركعى واسجدى) فالركوع قبل السجود. وهذا أسلوب من أساليب البلاغة فى اللغة.

وفى سورة ق: ﴿**بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ** ﴿٢﴾ **أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ** ﴿٣﴾ **قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ** ﴿٤﴾﴾.

فى الآية إضمار يُعرف من سياق الحديث، وهو البعث بعد الموت، فكأن المعنى: أإذا متنا وكنا ترابا أنبعث من جديد، ذلك رجع بعيد، فضمرت حقيقة البعث بعد الموت لأن سياق الحديث يدل عليه.

ذلك رجع بعيد: الرجع: الرد، أى هو رد بعيد أى، محال.

أى: أحين نموت وتفنى أجسامنا نرجع؟ ذلك رجع بعيد مستبعد مستنكر ومحال.. ﴿**قد علمنا ما تنقص الأرض منهم**﴾: أى ما تأكل من أجسادهم فى البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان، وأين ذهبت، وإلى أى شىء صارت. ﴿**وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ**﴾: أى حافظ لكل ذلك من العلم الشامل.

نفهم مما سبق حقيقة تحول الأجسام بعد موتها إلى تراب يختلط بتراب هذه الأرض،

وقد يتبعثر هنا وهناك، ويضل فى الأرض، ويتمزق كل ممزق، أو تتحول الأجسام إلى أحافير من حجارة أو حديد، والله تعالى قادر على إعادة الخلق يوم البعث والحساب.

وغنى عن البيان، أن الإنسان لا يتحول إلى تراب بعد موته، فالذى يتحول إلى تراب هو الجسم فقط، أما النفس فلا تبلى وإنما تعود إلى ربها، وأما الروح فلا يموت فهو من أمر الله عز وجل.

فالإنسان كنفس بشرية لا ينتهى أو يصير إلى العدم، وإنما هو يعيش فى الحياة الدنيا، وبعد ذلك ينتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى الذى لا يموت بعدها أبدا، ويستقر الإنسان فيها، فى آخر طور فى أطوار خلقه، إما فى الجنة فى نعيم دائم، وإما فى النار فى عذاب مقيم.

الجزء الثانى

حواس الإنسان

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله. أما بعد،

الدارس لعلم التشريح وعلم وظائف الأعضاء، يدهش من قمة الإحكام فى الخلق، ومنتهى الإعجاز فى التصميم.. حتى إن كل خلية من خلايا الجسم، وكل عضو فيه ينطق بقدرة الخالق عز وجل، وحكمته فى خلقه، ورحمته بعباده. وقد يقال ما هو أكثر دقة وإحكاما فى الخلق؛ العين أم المخ؟.. الإجابة على ذلك: إن الخلق لو كان من صنع إنسان لجاز أن نقول: هذا العضو بالجسم أكثر إحكاما من ذاك، فإن في عالم البشر، نجد فوق كل ذى علم عليما. أمّا وأن الله عز وجل هو الخالق، فالإتقان فى الصنع فى قمة درجاته. وليس فى الخلق ما هو أكثر إتقانا من خلق آخر، ولا أحكم من غيره؛ ذلك لأن أفعال الله عز وجل مطلقة، وصفاته جل جلاله مطلقة، فليس عجيبا إذن أن يكون خلق الذرة يتساوى فى الإحكام والإتقان مع خلق الشمس ومع خلق المجرة.

ويخرج الجنين من بطن أمه طفلا، لا يعلم شيئا عن العالم الذى خرج إليه، لذلك زوده الخالق عز وجل بالحواس، التى بواسطتها يتعرف على العالم الذى خرج إليه، وبذلك يستطيع أن يأخذ منه ويعطى ويتعلم منه ويعلم، فالإنسان ينشأ فى هذه الحياة الدنيا متصلا بمجتمعه من خلال حواسه اتصالا وثيقا، فذلك قول الله عز وجل:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل].

وفى هذا الجزء (**حواس الإنسان فى ضوء القرآن والحديث النبوى**) ناقشنا الحواس الخمس فى الإنسان. ولما كانت للحواس صلة بالجسم المادى، وصلة أخرى بملكات الإنسان غير

المادية، كـالنفس والعقل والروح، فـإن الحواس ليـست حواس الجـسم فقط، وإنما هـى حواس الإنسان ككل، ولهذا لم يكن عنوان الكتاب (حواس الجسم)، ولكنه (**حواس الإنسان**).

وتناولنا الحواس بالبحث العلمى، بأسلوب سهل، وبمعلومات بعيدة عن التعقيد والتفصيل العلمى، حتى يكون فـهم ما جاء بالكتاب مـتاحا لكل الناس على مخـتلف مستوياتهم العـلمية والفكرية.

وناقشنا كيفيـة اتصال الطفل الوليد بما حوله، وكيفية بـدء عمل الحواس، ثم كان الحديث بعد ذلك عن حاسة السـمع، كأهم الحواس فى الإنسان وأكثرها ضـرورة له فى رحلته فى الحياة الدنيا، وكان لابد من دراسـة أجهزة استقبـال الحواس، فى الأذن والعين والأنف والجلد واللسان والفم. وكيف ترسل الأحـاسيس من أجهـزة استقبـال الحواس إلى مراكـز استيعـابها فى المخ، وتوصيلها بعـد ذلك إلى مراكز ذاكرة الحواس وملكات العـقل والفهم والإدراك، وملكات العقل والإدراك، وعلاقتها بالمخ من الأمور المحيـرة للعلماء، وكذلك ماهية العقل وأين يوجد، هل هو داخل المخ أم هو خارجه؟. وحواس الإنسان لها حدود معينة، وهى حدود ضيقة لا تتعداها، إلا أنها تتوافق تمامـا ومتطلبات الإنسان فى حـياته الدنيا؛ لذلك نجد حدود الحـواس تتسع فى بعض أنواع الحيـوان وتضيق فى أنواعه الأخـرى. فحاسـة السمع مثـلا فى الإنسان محـدودة بمجالات محدودة، وسـرعات معيـنة لموجات الصوت. أما فى بعض أنواع الحـيوان فهى أكثـر قوة، وفى بعضها الآخر أكثر ضعفا. وقليل من الدواب لا يسمع ألبتة. ويصل الصوت إلى الأذن عن طريق موجات الصوت؛ لذلك كان لابد من توضيح بعض الحقائق عن علم الصوت بإيجاز.

وإذا كان الأحياء يسمـعون، فهل يسمع الموتى! إنه سؤال كان فى حاجـة إلى إجابة شافية على ضوء القرآن والسنة، ثم تحدثنا عن السمع وأنواعه، سمع مباشر وسمع بإلهام.

أما حاسـة البصر فقد تحـدثنا عنها فى جوانب كثيـرة ومتنوعة، مثل علاقـة البصر بمدارك الإنسان الأخـرى، والفرق بين النـظر والبصر، والـفرق بين عمى الـعيون وعـمى القلوب. ولا

تشاهد المرئيات بحاسة البصر إلا عن طريق أشعة الضوء الصادرة من المرئيات إلى العين؛ لذلك ذكرنا نبذة قصيرة عن حقائق علم الضوء، والفرق بين الضوء والنور، وعلاقة الضوء بالظل. ولا شك أن هناك علاقة وثيقة بين البصر والضوء والألوان، ولا يحس جمال المخلوقات إلا عن طريق جمال الألوان، لذلك يمنّ الله على عباده بخلق الألوان، فى كل ما يرونه من مخلوقات، كالشجر والجبال والثمرات التى يأكلونها. ولا شك أن للألوان أهمية كبرى لعيون الناظرين، ومن العجيب أن الناس تختلف نظرتهم لجمال الخلق حسب تصوراتهم وأفكارهم وميولهم، والأعجب من ذلك اختلاف رؤية الحشرات للألوان عن رؤية الإنسان لها اختلافا كبيرا. . وهذا من عجائب الخلق، وإعجاز الإبداع الإلهى فى هذا الوجود.

وكثير من العلماء لا يدركون معنى الغيب والشهادة، ولا كيف يتساوى علم الغيب مع علم الشهادة ولا لماذا قرن الله تعالى علم الغيب بعلم الشهادة؛ لذلك أوضحنا معنى «علم الغيب والشهادة» وعلاقة ذلك بحاسة البصر فى الإنسان.

وكان من المناسب فى هذا المقام أن نتحدث عن حاسة البصر فى قصص الأنبياء، وخاصة ما جاء عن قصة النبى يعقوب وفقدانه للبصر، وقصة قميص النبى يوسف. . وما وقع من أخطاء واختلاف بين العلماء فى تفسير ذلك، ثم ذكرنا حاستى الشم والتذوق، فى إيجاز، وما جاء عنهما فى القرآن والحديث النبوى، أما حواس اللمس والإحساس بالألم والضغط والحرارة والبرودة، فلها أعضاء استقبال فى الجلد. وناقشنا هذا الموضوع ومررنا به مرورا سريعا، حتى لا ندخل فى تفصيلات علمية، تشتت ذهن القارئ العادى، ولا يخرج منها بعلم مفيد. ولقد وجدنا أنه من الأهمية بمكان أن يعلم كل إنسان وظيفة حواسه بعد موته وفى يوم الحساب، وكيف أن حواسه وأعضاء جسمه ستشهد عليه يوم القيامة، كما قال الله عز وجل:

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس] .

وكما قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [فصلت]

ولذا فإن الهدف من كتابة هذا الكتاب هو بيان الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة فى موضوع حواس الإنسان، وإن الله تعالى ما فرط فى القرآن العظيم من شىء كما قال تعالى:

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وكذلك بيان طلاقة القدرة الإلهية، وطلاقة القدرة الربانية فى خلق الحواس، وينبغى على الإنسان أن يستخدم حواسه فى مراد الله تعالى فى خلقها، وأنها وإن كانت مطيعة له فى الدنيا في حق نفسه، فسوف تشهد عليه يوم القيامة فى حق ربه.

الدكتور أحمد شوقى إبراهيم

اتصال الطفل الوليد بما حوله:

يخرج الطفل الوليد من بطن أمه إلى هذه الحياة الدنيا. ويتصل بما حوله بواسطة طاقتين رئيسيتين، جعلهما الله ـ تعالى ـ فيه.

الأولى: فطرة الخلق.

الثانية: الحواس.

وفطرة الخلق: هى الخلقة التى خلق الله تعالى الناس عليها. كما قال ـ تعالى ـ فى سورة الروم:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

فالطفل الوليد يتصل بمجتمعه المحدود، بواسطة فطرة خلقه أولا، وآية سورة الروم تشير إلى أن الفطرة السليمة من الدين، بل هى الدين نفسه، وبذلك تتطابق فطرة الخلق مع الدين القيّم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. وقد يغير الإنسان من فطرة خلقه فى مسيرة حياته، كما أخبرنا رسول الله ﷺ فى حديثه الشريف الذى رواه الشيخان قال: «**ما من مولد إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**» إلى آخر الحديث الشريف. وروى الإمام أحمد عن الحسن عن الأسود بن سُريع أن رسول الله ﷺ قال: «**والذى نفسى بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يُعربَ عنها لسانُها**».

ومن خلال الفطرة السليمة، يعيش الطفل الوليد ويتصل بما حوله، فإذا لمست كفاه شيئًا، قبض عليه لا إراديا، ويتعرف على أمه بالفطرة ويقبل على ثدى أمه ويرضعه بالفطرة أيضا. فى سورة النحل يقول الله عز وجل:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **لا تعلمون شيئا** ﴾، جملة فى موضع الحال. أى حال خروجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، ولم يقل (فجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة)، وإنما جعل الجملة مسبوقة بحرف الواو الذى يفيد الترتيب مع التراخى فى الزمن – وليس الفاء التى تفيد الترتيب مع التعقيب – دلالة على أن عمل الحواس لا يبدأ مباشرة بعد الولادة، ولكن بعد مرور فترة من الزمن. فى هذه الفترة السابقة على عمل الحواس، يعيش الطفل الوليد بفطرة خلقه التى فطره الله تعالى عليها، والتى تعينه على حياته ونشاطه المحدود جدا، فى ذلك الطور من عمره.

وفى سورة الملك يقول الله، عز وجل:

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

وفى نفس المعنى يقول ـ تعالى ـ فى سورة المؤمنون:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

تكررت الحقيقة العلمية فى الآيات الثلاث بنفس الكلمات، ولكن لم يتكرر المعنى. ففي سورة الملك ربطت الحقيقة العلمية بجعل السمع والأبصار والأفئدة، فى سياق الحديث عن نسيان الإنسان نعم خالقه عليه، أما فى سورة المؤمنون فذكرت نفسُ الحقيقة العلمية، فى سياق الحديث عن مصير الإنسان الذى لا يؤمن بالآخرة. أما فى سورة النحل فذكرت نفس الحقيقة العلمية فى سياق الحديث عن الإعجاز فى خلق الإنسان فى أول أطوار خلقه وخروجه من بطن أمه طفلا.

إذن تتكرر الكلمات فى القرآن الكريم، ولكن لا يتكرر المعنى.

فالطفل الوليد يعيش أولا بالفطرة، وثانيا بالحواس، فبعد فترة من الزمن تبدأ الحواس فى العمل فى الطفل الوليد.. تبدأ فى العمل شيئا فشيئا.. وبالفطرة والحواس معا يحيا الإنسان في مجتمعه، يأخذ منه ويعطى، ويتعرف على ما حوله من أمور، ويتصل بها، ويتفاعل معها، وتصدر منه ردود الأفعال لها.

ذكر الحواس في القرآن الكريم:

ذكرت الحواس فى القرآن الكريم، فى آيات كثيرة، فى سياق الحديث عن قضايا متعددة ومختلفة. وذلك فى سبع سور هى: النحل، والإسراء، والمؤمنون، والملك، والبقرة، والاحقاف، وفصلت. وكما فى سورة الملك فى قول الله، عز وجل:

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك].

ولماذا اقتصر ذكر الحواس على السمع والبصر فقط، ولم تذكر باقى الحواس؟ ذلك لأن ذكر حاستى السمع والبصر يدل على الحواس الأخرى، ومثل ذلك قول الله تعالى فى سورة النحل ٨١:

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾

وتقدير القول: «وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم البرد»، فاكتفى بذكر السرابيل التى تقى من الحر، لدلالتها على السرابيل التى تقى من البرد، فإذا ذكرت حاستان فقط هما السمع والبصر، فإن ذلك يدل على الحواس جميعا. فضلا عن أن حاستى السمع والبصر أهم حاستين فى الجسم.

حاستا التذوق والشم في الطفل الوليد:

تبدأ حاسةُ التذوق فى الطفل الوليد، تعمل بعد اثنتى عشرة ساعة فقط من ولادته.

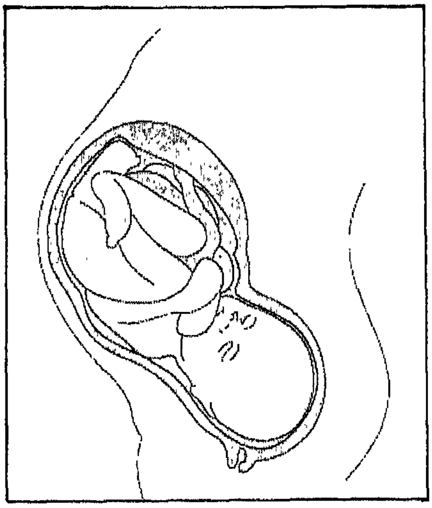
فقد قام أحد الأطباء بدراسة على طفل حديث الولادة، فوجد أن طفلا بلغ من العمر اثنتى عشرة ساعة فقط ولم يتذوق حتى لبن أمه بعد، تذوق بسرور قطرة الماء المحلى بالسكر كذلك امتص عند تذوقه قطرة من عصير الليمون. ومن المدهش أن الطفل ابتسم لدى تمرير قطعة من القطن محملة برائحة الموز أمام أنفه، ولكنه امتعض لرائحة البيض الفاسد، وطفل آخر فى أول يوم بعد ولادته أقبل على رائحة الفانيليا وامتعض من رائحة الجمبرى.

من هذا نفهم أن حاستى التذوق والشم تبدآن فى العمل فى أول يوم بعد الولادة مباشرة ومع حاسة التذوق تعمل حاسة الشم؛ ذلك أن هاتين الحاستين مرتبطتان مع بعضهما البعض ارتباطا يكاد يكون وثيقا.

حاسة البصر في الطفل الوليد:

يخرج الطفل الوليد من ظلام الرحم بحاسة نظر منعدمة، ولكن نظره ينمو بعد ذلك بشكل سريع. وتبين الكاميرات التى تعمل بالأشعة فوق الحمراء، أن عين الطفل تواصلان اكتشافهما لما يحيط بهما، ويستطيع الطفل عندما يبلغ ثمانية أسابيع، التمييز بين أشكال الأشياء وألوانها - ولاحظ العلماء أنه يفضل اللون الأحمر ثم اللون الأزرق - عند بلوغه ثلاثة أشهر تتكون لديه رؤية مجسمة للأشياء التى أمامه.

ولقد دلت الدراسات على أن حاسة السمع، تعمل فى الطفل الوليد من اليوم الأول من ولادته، فتراه ينزعج إذا سمع صوتا مفاجئا،



ويستريح لصوت موسيقى هادئة، وبينت التجارب العلمية أن الأطفال منذ ولادتهم ينامون بسرعة أكبر لدى سماعهم تسجيلات لصوت دقات قلب بشرى، ودل ذلك على تعوده على سماع دقات قلب أمه وهو فى بطنها قبل أن يولد، وبناء على ذلك اعتقد بعض العلماء، أن حاسة السمع ابتدأت فى العمل والإنسان جنين فى بطن أمه.

فحواس الجسم، جعلها الله - تعالى - فى جسم الطفل الوليد حتى قبل ولادته، وعن طريقها وبواسطتها سيكتسب الطفل الوليد الخبرة بالبيئة المحيطة به تدريجيا، ولولا تلك الحواس ما علم شيئا، ولا أدرك شيئا مما يدور حوله. ونذكر قول الله، عز وجل:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

[النحل: ٧٨]

ما هي أهم حواس جسم الإنسان؟

أهم حواس الجسم حاستا السمع والبصر، فهما أكثر الحواس عونا للإنسان فى حياته، وفى اتصاله بمجتمعه الذى يعيش فيه، ولكن أيهما أهم للإنسان من الآخر؟ إنها حاسة السمع. ولماذا كانت حاسة السمع أكثر فائدة للإنسان فى حياته الدنيا؟ ذلك لأسباب كثيرة:

الأول: السمع أكثر فائدة للإنسان من بصره لأنه أكثر تحديدا لمعنى ما يجرى حول الإنسان وأكثر تجريدًا له، فما يسمعه إنسان، يسمعه إنسان غيره، فلا يختلف سمع عن سمع، أما النظر فيختلف من إنسان لآخر، فإذا نظر شخصان إلى شيء واحد، وكان أحدهما منتبها إلى ما ينظر إليه، والآخر مشغولا عنه فالبصر فى الاثنين يختلف، من أجل ذلك ولأسباب أخرى ذكر السمع أولا.

الثانى: قد أستطيع أن أغمض عينى، ولكن لا أستطيع أن أغمض سمعى.

الثالث: السمع هو الحاسة الوحيدة التى تعمل فى الإنسان وهو نائم، فالسمع حارس الإنسان الوحيد أثناء نومه.

الرابع: السمع أوسع مدى من حاسة البصر، فأسمع أصواتا تنطلق من وراء جدار، ولا أرى مصدرها، وقد أسمع صوتا لشيء بعيد خارج مجال بصرى.

الخامس: قد أستطيع أن أغض بصرى عن شيء أمامى، وبذلك أتفادى رؤيته، ولكنى لا أستطيع أن أغض سمعى عن صوت أسمعه، فسوف أسمعه رضيت أم لم أرض، لذلك كان أمر الله تعالى للإنسان بغض البصر وليس بغض السمع. فذلك قول الله ـ عز وجل ـ فى سورة النور:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ...﴾. [النور: ٣٠، ٣١]

السادس: مجال السمع أوسع من مجال البصر، فالسمع يعمل فى كل اتجاه، فقد أسمع أصواتا تصدر من أمامى وأصواتا تصدر من خلفى، ولا يتأتى هذا لحاسة البصر، كما أنى قد أسمع أصواتا ولا أدرى مصدرها، فليس كل ما أسمعه أراه، ولكن الله ـ عز وجل ـ يسمع ويرى كل شيء وهو القائل ـ عز وجل ـ فى سورة طه:

﴿قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾﴾ [طه].

إلا أن سمع الله - تعالى - ليس كمثله سمع، وبصر الله تعالى ليس كمثله بصر؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شيء.

السابع: السمع أكثر فائدة للإنسان، فالمبصر الذى لا يسمع، لا يفهم ما يقال له، ويفقد اتصاله بالمجتمع إلى حد كبير، أما الأعمى الذى لا يسمع. فهو وإن كان لا يرى فهو يسمع كل ما يدور حوله، وتتركز أحاسيسه فى سمعه، فيكون أكثر سمعا من غيره، وبالتالى يكون - بالرغم من فقدانه البصره - متصلا بمجتمعه اتصالا وثيقا. ويتفاعل مع مجتمعه، ويأخذ منه ويعطى. وكثير من العلماء والمفكرين والمبدعين فى مختلف فروع العلم، كانوا عميانا.

وهل يسمع الإنسان بأذنه أم يسمع بمخه؟

إنه يسمع بواسطة مراكز السمع بالمخ. فالأذن جهاز وظيفته توصيل موجات الصوت، وتحويلها إلى ومضات كهربائية، أو كهروكيميائية تجرى فى عصب السمع، الذى يوصلها إلى مراكز السمع بالمخ. حينئذ يسمع الإنسان الصوت، ولكن لا يفهم معناه؛ لذلك يحوله إلى مراكز ذكريات الأصوات، وبذلك يفهم الإنسان معنى ما يسمع، فإذا تحدثنا إلى إنسان نائم بصوت منخفض، فإن أذنه تستقبل موجات الصوت وتوصلها إلى عصب السمع، إلا أن مراكز السمع بالمخ قد قلل النوم نشاطها، فلا يسمع الإنسان الصوت المنخفض، ولا تُثار تلك المراكز بالمخ أثناء النوم إلا بالأصوات العالية.

المخ البشري:

تتصل الحواس جميعا بالمخ.. ففيه مراكز استقبال الأحاسيس والشعور بها.

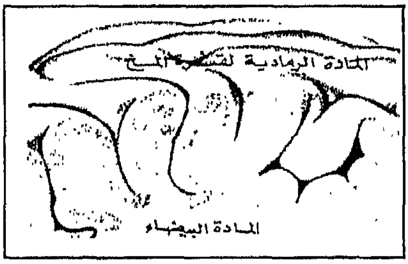
والعصب البصرى يحمل الرسائل الكهربائية من العينين إلى قشرة الفلقة الموجودة فى مؤخرة المخ (آخر مؤخرة المخ) وهناك مركز الإبصار، حيث يتم إدراك إحساسات البصر.

ويتصل عصب السمع من الأذن الداخلية، بالمخ، حيث مركز السمع فى الفص الصدغى للمخ Temporal lobe، أما أعصاب حاسة التذوق، فتذهب الرسائل من اللسان إلى القشرة المخية - خلف المركزية - على مقربة من المنطقة المخصصة للفم واللسان.

قشرة المخ: يتكون المخ من نوعين من الأنسجة، فالطبقة الخارجية للمخ تسمى المادة الرمادية أى قشرة المخ، وهى مكونة من طبقات عديدة من الخلايا العصبية المتخصصة.

وفى المنطقة الحركية بالمخ توجد الخلايا التى تبعث بالرسائل الكهربائية إلى العضلات الإرادية، فتحركها الحركات التى تطلبها مراكز الحركة فى قشرة المخ، أما الخلايا الحسية فهى تقع خلف المنطقة الحركية فى المخ وتستقر فيها الخلايا التى تستقبل أحاسيس الحواس، فتدركها، وحينئذ يحس بها الإنسان. وتحت القشرة توجد المادة البيضاء للمخ، وفيها أعداد هائلة من الخلايا العصبية تقدر بأكثر من عشرة مليارات من

الخلايا، ووظيفتها ربط مراكز الحس بالقشرة، بأعضاء الحس فى أجهزة الحواس والعضلات فى كل أنحاء الجسم.



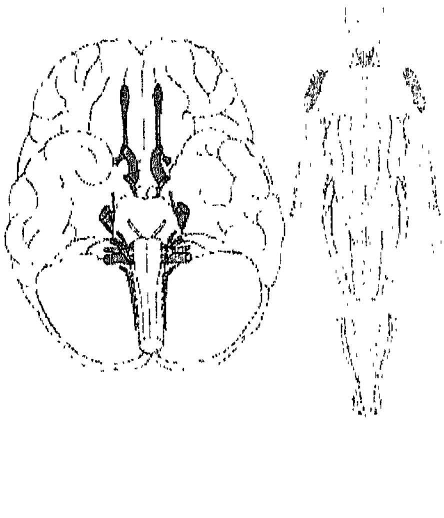
وتركيب المخ فى غاية الدقة والتعقيد، إلا أننا نمر به مرورا سريعا حتى يدرك القارئ ارتباط حواس الجسم بالمراكز المخصصة لها بالمخ والتى تدرك تلك الحواس وتشعر بها - فلا يشعر الإنسان بأحاسيس حواسه إلا عن طريق المخ.

الجهاز العصبي المركزي:

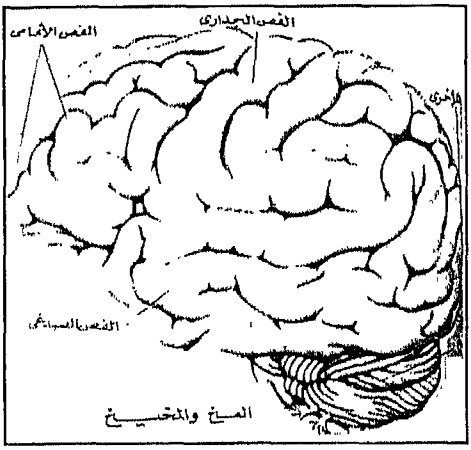
قال الله عز وجل:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

والأفئدة جمع فؤاد، والفؤاد كناية عن المخ والعقل والوعى والإدراك؛ ونظرا لارتباط حواس



الجسم بالفؤاد؛ وجدنا أنه من المناسب أن نذكر بعض الحقائق العلمية عن الفؤاد.



المخ والمخيخ

المخ والعقل: يتكون المخ من مراكز التحكم لأعضاء الجسم وحواسه، فى كل من السكون والحركة. ويتكون الجهاز العصبى المركزى من المخ، وجذع المخ، والمخيخ، والنخاع المستطيل، والحبل الشوكى، وكل هذه الأجزاء مرتبطة ببعضها ارتباطا وثيقا فى منتهى الدقة والإبداع. (وسنتحدث عن المخ بشىء من التفصيل المبسط فيما بعد) ونتساءل: هل يوجد العقل فى دماغ الإنسان؟ . . لا. . إن العقل ملكة من ملكات الإنسان غير المادية مثل النفس والروح، كما قال الله عز وجل:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب].

والأمانة هى مناط التكليف وسر الاختيار بين البدائل، ولا تكون الأمانة إلا العقل.

فالأمانة التى أبت المخلـوقات جميعـا أن يحملنها وحملها الإنسان هى العـقل؛ لذلك فالإنسان هو المخلوق المكلف الوحيد. . ولماذا ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أى خشين منهـا؟ لأنها مناط التكليف، وحـاملها يعرف الفرق بين الحرام والحـلال، والخير والشر، وله أن يفعل هذا، ولا يـفعل ذاك فله الاختـيار، لذلك فهـو المخلوق الوحيد الذى سيـحاسب يوم القيامة.

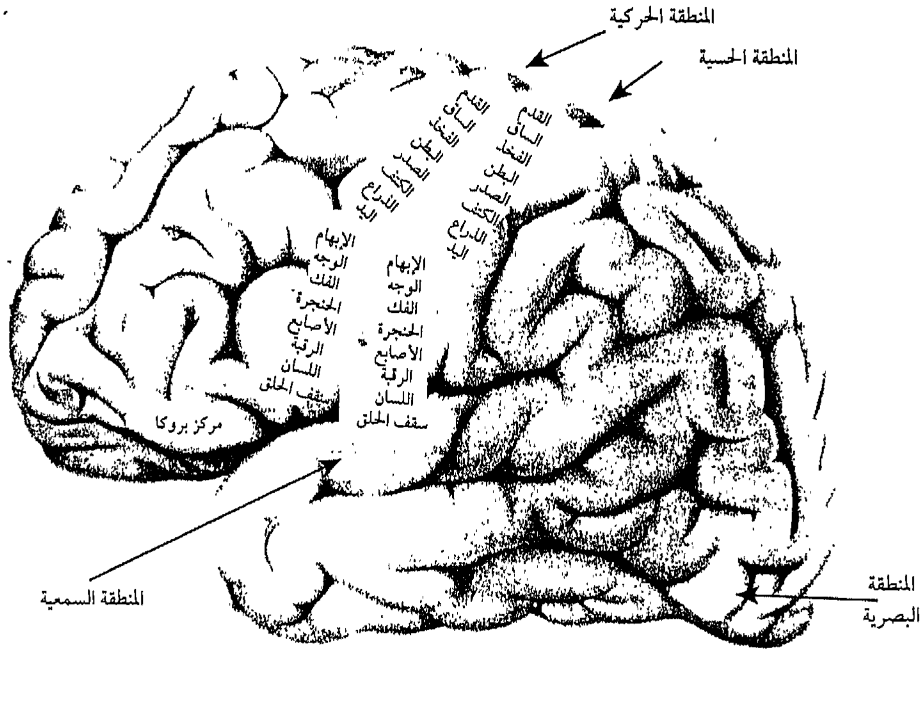
أما الـسموات والأرض والجـبال فـأبين أن يحملن أمـانة العقل. واخـترن أن يكن مسيّرات طائعات خاضعات لله، تعالى، حتى لا يتعرضن للحساب يوم القيامة.

ولا يوجد العقل إلا فى الإنســان، كما أن الروح أيضا ملكة نفـخها الله تعـالى فى الإنسان وهو جنين فى بـطن أمـه، ونعـود ونسـأل: هل يوجـد العـقـل فى دمـاغ الإنسـان؟. . لا. . إن العقل خارج دماغ الإنسان، إلا أن له تعلقا وثيقا به، فالدماغ رافد العقل، وهو الصلة بين الإنسان وعقله. . وما هو الدليل على أن العقل لا يوجد فى دماغ الإنسان؟

الأول: أن الإنسـان إذا تناول مـخـدرا أو مسكرا، فـإن الدماغ يُخـدر، وتنقطع الصلة بين الإنسان وعقله.

الثـانى: من الدواب مـا هو قـريب الشبـه بالإنسـان مثـل القرد الشـمـبانزى، والـتركـيب التشـريحى لكل من دمـاغ الإنسان ودمـاغ القرد الشمـبانزى تركيب متـشابه إلى حد بعـيد، ومع ذلك يعـيـش القـرد مـثل باقى الـدواب بالفطرة والغريزة، وبلا عقل.

وأين الـعـــقل والـنفس والروح مـن مخ الإنسـان؟ لا ندرى على وجـه اليقين، وكل مـا

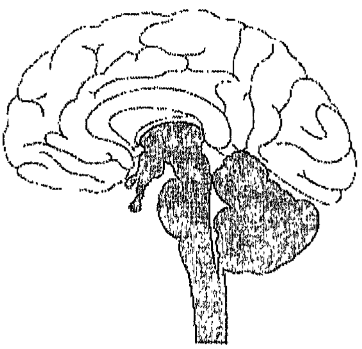


نعلمـه أن لكل من العقل والنفس والروح تعـلقا وثيقا بالجسم.

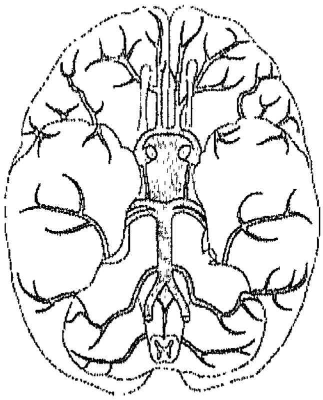
إن الدماغ جهاز فى غاية الدقـة والتعقيد، حتى أنـنا لو جمـعنا جمـيع أجهزة الـكمبيـوتر الموجودة فى العـالم وضغطناها حـتى صارت فى حجم مخ الإنسان، فإنها جميعا لا تبلغ فى دقتها وتعقيدها مثل دقـة وتعقيد مخ الإنسان؛ لأن المخ كما قال أحد العلماء بلغ حداً من التعقيد يعجز المخ عن فهمه! وهذا يذكرنا بقول الله،عز وجل:

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١].

وإذا نظرنا إلى المخ البـشـرى من الجنب، فإننا نلاحظ شقوقا عديدة ونتوءات كثيرة فيه، إلا أنه يوجد شق عـميق على جانبى المخ، من قـمة المخ إلى أسفله متجـها إلى الإمام، ويسمى «شق رولاندو. ويوجد أمامه وخلفـه نتوءان من نسيج المخ، ويسـمى النتـوء أمام شق رولاندو؛ النتـوء قبـل المركزى وتقع فـيه مـراكز الحـركة (المنطقة الحركية)، حيث الخلايا العصبية التى تتحكم فى الحركات العضلية على الـناحية الأخرى للجسم، ويرمز لأعضـاء الجسم هنا بإنسان مقـلوب أقدامه إلى أعلى ورأسه إلى أسـفل. فالخـلايا العصبـية التى تتحكم فى عضـلات القدم تقع فى قمة هذه المنطقـة، أما الخـلايا التى تتـحكم فى عضـلات الرأس بأجزائهـا المتعـددة، فتقع فـى أسفل ذلك النتوء، ولقد اكتشف العلماء أن أجزاء الجسم التى تقـوم بحركـات مـتقنـة ودقيـقـة مثل الأصـابع واللسـان، لها عديـد من الخلايا العـصبيـة التى



تتحكم فى مكانهـا؛ لذلك فإن أجزاء كبـيرة من ذلك النتوء مخصصة لهـا، أما العضلات الكبيرة والتى لا تقدم بحركات دقيقة فإن عددا قليلا من الخـلايا فى ذلك النتوء يتحكم فى حركاتها.



أما المنطقـة الحسـية: فتقـع خلـف شـق رولاندو. وتتـصل هذه المنطقـة من قـشـرة المخ بالأعصـاب التى تحمل الومضات الكهـربائية من الحـواس الخـارجـيـة للمس والضـغط والحـرارة والبـرودة والألم. ومناطق الجـسم تسـتقـبل فى المنطقة الحسية مقلوبة رأسا على عقب - كما هو الحال فى المنطقة الحـركية - وتمتد المنطقة الحـسية إلى الخلف لتـشمل عددا من النتـوءات التى تقع خلف المنطقة الحـسية، وهذه تستقـبل الأحاسيس

الأكثر دقة مثل القدرة على تمييز الفرق بين وزن الأشياء وحرارتها ونوعيتها عن طريق اللمس فقط.

إن كل الحواس مرتبطة بالمراكز العليا فى المخ والتى تستقبل كل الأحاسيس، وتحس بها، فيشعر بها الإنسان. فالإنسان يرى ويسمع ويحس ويتذوق ويشم بالمراكز المتخصصة فى المخ.

وهذا ما أشار إليه القرآن العظيم فى آيات كثيرة كما قال الله عز وجل:

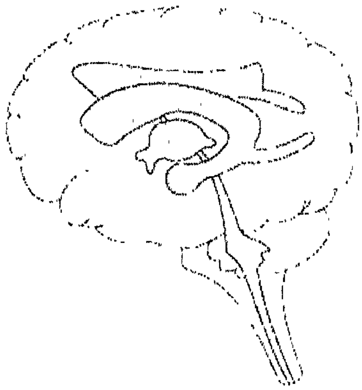
﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل].

تركيب الأذن ووظيفتها:

إن ما نراه من الأذن هو صِوان الأذن.. وهو الجزء الخارجى من القناة السمعية الخارجية، أما بقية أجزاء الأذن فلا نراها، فهى موجودة داخل غرف مجوفة داخل عظام الجمجمة، ولم يكن ذلك عبثا، فإن الأجزاء الوسطى والداخلية للأذن فى غاية الدقة والرقة، بحيث لو كانت خارج العظام لتعرضت للإصابة والضرر حتما، فكان لابد من حمايتها فى غرف داخل العظام، وهذا تصميم هندسى عجيب.

والأذن مكونة من ثلاثة أجزاء: **الأذن الخارجية، والأذن الوسطى، والأذن الداخلية.**

والجزء الخارجى من الأذن الخارجية جسم غضروفى هو صِوان الأذن، وله تصميم هندسى دقيق من شأنه جمع موجات الصوت الواصلة إلى الأذن وتوجيهها إلى القناة السمعية الخارجية، أما القناة السمعية الخارجية، فطولها نحو



سنتيمتران ونصف، وكثيرا ما تحتوى على بعض الشعيرات الكثيفة، كما تفرز الغدد الموجودة فى جدارها مادة شمعية.. ووظيفة هذه القناة نقل موجات الصوت إلى طبلة الأذن، وطبلة الأذن غشاء رقيق جدا حتى أنها تبدو شفافة. وتشاهد عظمة «المطرقة» متصلة بالطبلة. وفى خلق الطبلة إعجاز فى الخلق يطول الحديث فيه.

أما الأذن الوسطى فهى تقع خلف الطبلة، وهى غرفة دقيقة جدا تقع داخل عظام الجمجمة، وتحتوى الأذن الوسطى على ثلاث عظيمات سمعية صغيرة هى أصغر عظام فى الجسم حجما ووزنا وأكثرها إتقانا هى المطرقة والسندان والركاب، وهى عظام دقيقة جدا حتى إن وزن عظمة الركاب ٠,٠٠٣ من الجرام.

أما الأذن الداخلية فهى تقع فى تجويف داخل عظام الجمجمة أيضا وتتكون من التيه العظمى الذى يشمل الدهليز المركزى والقنوات الهلالية الثلاث والقوقعة، وخلق الأذن الداخلية فى نظام معقد التركيب جدا، وفى تصميم هندسى ينطق بقدرة الله تعالى. وهنا نذكر قول الله عز وجل:

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

[الذاريات]

كيف يتم نقل موجات الصوت إلى العصب السمعى؟

الصوت له موجات من الضغط والانكسار - سنتحدث عنها فيما بعد بشيء من التفصيل - ولكل صوت حدّة وطبقة. أما حدة الصوت فتعتمد على حجم الصوت. وأما طبقة الصوت فتعتمد على درجة تقارب موجات الصوت من بعضها البعض. ويحمل الهواء الذبذبات الصوتية. وتصل إلى طبلة الأذن، فيحدث بها نفس الذبذبة، ولما كانت يد عظمة المطرقة مثبتة بالطبلة فإن ذبذبة الصوت تنتقل إليها، وهذه توصلها إلى عظمة السندان ومنها إلى عظمة الركاب.. وقاعدة الركاب مثبتة بالفتحة البيضاوية فى القوقعة، أما عظمة السندان فتتصل بالأجزاء العليا من عظمتى المطرقة والركاب. وبواسطة تلك العظيمات السمعية الثلاث تصل ذبذبات الصوت إلى الفتحة البيضاوية بالقوقعة، ومن عجائب الخلق أن العظيمات الثلاث مصممة تصميما هندسيا إنشائيا مدهشا بحيث تؤدى حركات صغيرة فى طبلة الأذن إلى حركات أكبر فى الفتحة البيضاوية فى القوقعة، وعندما تتحرك قاعدة الركاب إلى الداخل أو الخارج فإن السائل الموجود فى دهاليز القوقعة يتحرك كذلك، والنتيجة أن شعيرات دقيقة جدا داخل تلك الدهاليز، تتحرك بنفس ذبذبة الصوت الذى يصل إلى طبلة الأذن. وداخل تلك الدهاليز فى القوقعة عضو هام جدا يسمى عضو كورتىCorti وفيه تتحول ذبذبات الصوت التى تمر عبر دهاليز القوقعة إلى ومضات عصبية، وتنتقل هذه الومضات عبر العصب السمعى إلى مركز السمع بالفص الصدغى بالمخ حيث يتم إدراكها، ولكن لا يفهم الإنسان معنى ما يسمع - لذلك يحول الصوت إلى مركز ذكريات الصوت. حينئذ يسمع الإنسان الصوت ويفهم معناه، إذا ساعده مركز ذكريات السمع على ذلك. وهذا يذكره بقول الله ـ عز وجل ـ مرات ومرات:

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ [لقمان: ١١].

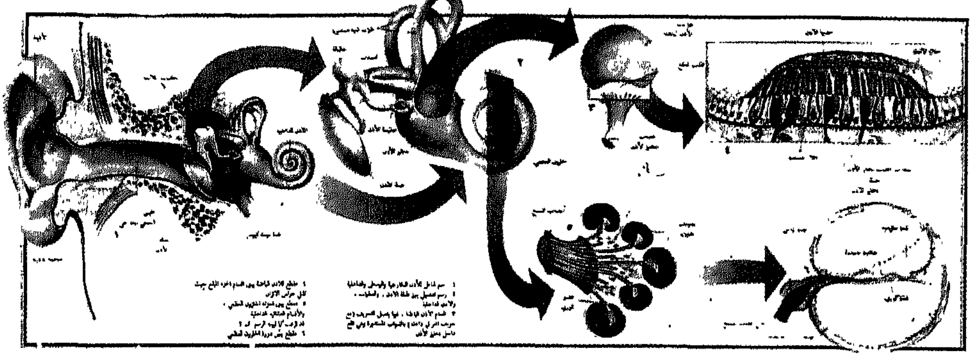
وفى الطفل الوليد يكون مركز ذكريات السمع خاويا، لذلك يسمع الطفل الصوت ولكن لا يفهم معناه. وعندما يتكون فؤاد الطفل وينضج، يفهم الطفل معنى ما يرى وما يسمع، فذلك قول الله، عز وجل:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

[النحل: ٧٨]

قناة استاكيوس:

الأذن الوسطى غرفة عظمية تحتوى على ثلاث عظيمات سمعية - كما ذكرنا من قبل - وتتصل غرفة القناة الوسطى بالبلعوم بواسطة قناة



ضيقة تسمى قناة استاكيوس تسمح للهواء الموجود بالبلعوم أن يصل إلى غرفة الأذن الوسطى، وذلك يعمل على تعادل الضغط الجوى على جانبى طبلة الأذن، فإذا كان هذان الضغطان غير متساويين، فإن طبلة الأذن تتقعر إلى الداخل أو إلى الخارج، وتقل كفاءة طبلة الأذن فى الذبذبة، وبذلك يقل السمع، ويحدث ذلك مثلا عندما ينزل الإنسان من مرتفع بسرعة كما يحدث عندما يكون فى طائرة فى الجو وهى على وشك الهبوط إلى أرض المطار.

وقناة استاكيوس مقفلة، ولكنها تفتح أثناء عملية بلع الطعام أو الشراب، فيمر الهواء من البلعوم إلى الأذن الوسطى، ويتعادل الضغط على جانبى الطبلة، ويستعيد الإنسان بذلك قوة سمعه. لذلك يعطون ركاب الطائرات عندما تكون على وشك الهبوط بعض الحلوى لكى يمتصوها، وبذلك يكثرون من بلع ريقهم، وذلك يفتح قناة استاكيوس وتسمح بمرور الهواء من وإلى البلعوم، إلى الأذن الوسطى، وبذلك يتعادل الضغط الجوى على جانبى الطبلة.

ومن الشرح الموجز الذى ذكرناه لتركيب الأذن، ندرك الإعجاز فى خلق الأذن، والإبداع فى صنعها الذي يدل على خالق قادر مبدع عظيم، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل: ٧٨].

ويعبر عن العقل والوعى والإدراك «بالأفئدة» فذلك قول الله ـ عز وجل ـ فى سورة الملك: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

نلاحظ أن الآية الكريمة ربطت بين السمع والأبصار بالأفئدة، لأن الأفئدة هى التى تدرك الأحاسيس التى تستقبلها الحواس جميعا، وترسلها إلى مراكز الحس بالمخ، لذلك فإن الذى يغفل عقله، وينشغل فكره، فإنه مع سلامة حاسة سمعه لا يفهم معنى لما يسمع، كما قال تعالى فى سورة يونس:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

استمع: وصل الصوت إلى المخ دون فهم معناة: سمع: أى وصل الصوت إلى الفؤاد وفهم معناه وقد بينت الآية الكريمة العلاقة بين السمع والعقل والفؤاد، ولم يأت ذكر للأذن فى استيعاب السمع؛ لأن الأذن أداة استقبال موجات السمع، وليست أداة فهم واستيعاب للسمع.

اختلاف قوة حاسة السمع في المخلوقات:

تستقبل الأذن الموجات الصوتية، وجهاز استقبال الأصوات فى الإنسان يقع فى القوقعة ويستقبل الأصوات ذات الذبذبات التى تصل سرعتها أكثر من ستة عشر ذبذبة فى الثانية وحتى عشرين ألف ذبذبة فى الثانية. أما الأصوات ذات الذبذبات الأبطأ أو الأسرع من ذلك فلا تستقبلها أذن الإنسان بأقسامها الثلاثة، وبالتالى لا يسمعها الإنسان، إذن فهناك أصوات كثيرة جدا حولنا لا نسمعها.

وتختلف حواس السمع فى الدواب عن حاسة السمع فى الإنسان، فحاسة السمع فى القرد مثلا تستقبل أصواتا تصل ذبذباتها إلى ثلاثين ألف ذبذبة فى الثانية، إذن فالقرد يسمع أصواتا لا يسمعها الإنسان، والفأر يسمع أصواتا تصل إلى أربعين ألف ذبذبة فى الثانية، فالفأر يسمع أصواتا لا يسمعها الإنسان ولا يسمعها القرد، وأذن القط تستقبل أصواتا تصل سرعة ذبذباتها إلى خمسين ألف ذبذبة فى الثانية، إذن فالقط يسمع أصواتا لا يسمعها الفأر ولا يسمعها الإنسان ولا يسمعها القرد، أما الخفاش فيسمع أصواتا تبلغ سرعة ذبذباتها مائة وعشرين ألف ذبذبة فى الثانية، وهذا يعينه على الطيران ليلا ومع ضعف بصره لا يصطدم بالجدران ، لأن قوة سمعه وذبذبة الأصوات العالية، تعوضه عن ضعف بصره والطيران ليلا، حيث الضوء يكون خافتا.

إذن فكثير من الحيوانات تسمع أصواتا لا يسمعها الإنسان، من أجل ذلك نلاحظ أن بعض الحيوانات والطيور تسرع خائفة مذعورة قبيل حدوث عاصفة مثلا، فهى تسمع أصواتا ذات ذبذبات عالية لا يسمعها الإنسان، وبعض الحيوانات صماء لا تسمع مثل الأفاعى. ويحرك الحاوى الهندى مزماره وتتراقص الأفاعى، ليس بسبب صوت المزمار ولكن بسبب حركة المزمار يمينا وشمالا.

إن الإنسان يعيش فى عالم يسمع فيه جانبا من الأصوات التى تجرى فيه، مما يفيده فى حياته فقط، أما باقى الأصوات فى هذا الوجود فلا يسمع فيها شيئا. ولكن سمع الله تعالى ليس كمثله سمع، فهو يسمع كل شىء فى الكون فى



التو واللحظة، فلا يحول دون سمعه سرعة الصوت. ولا ضآلة الصوت مهما كانت، فإن قوانين الخلق لا تجرى على قدرة الخالق، فالله تعالى وسع سمعه الأصوات، وهو تعالى السميع العليم.

علاقة حاسة السمع بالصوت:

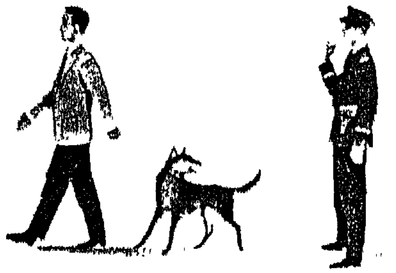
إنها علاقة وثيقة جدا، لأن الأذن مصممة على استقبال موجات الصوت وتوصيلها إلى مراكز المخ الخاصة بالسمع، والأمر ليس بهذه البساطة، ولا يدرك الإبداع فيه إلا العلماء المتخصصون، إلا أنهم مهما درسوا ومهما غاصوا فى بحر العلم فسوف يجدون أنفسهم لا يزالون على شاطئ العلم، وصدق الله تعالى إذ قال:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾

[فاطر: ٢٨]

وكل صوت له موجات، ولكل موجة سرعة ذبذبة معينة تنتقل فى الهواء، أما إذا انعدم الهواء فلا ينتقل الصوت أبدا.. فعلى سطح القمر مثلا لا يوجد هواء، فلو صاح أحد رواد الفضاء على سطح القمر فى زميله الذى يسير بجانبه ما سمعه أبدا، لأن موجات الصوت لا تنتقل من مصدر الصوت إلى كل ما حوله فى كل اتجاه إلا فى الهواء، وحيث لا هواء، لا ينتقل صوت، وإنما كان الرواد سواء فى الفضاء الكونى أو على سطح القمر يسمع أحدهم الآخر بواسطة اتصالات تليفونية.

وسرعة الصوت فى الهواء ٣٤٠ مترا فى الثانية الواحدة (ثلث كيلو متر فى الثانية تقريبا)



حاسة السمع عند الكلب أقوى منها عند الإنسان

أى إنه يقطع الكيلو متر الواحد فى ثلاث ثوان تقريبا، أما سرعة الصوت فى الماء فهى أربعة أضعاف سرعته فى الهواء.

أما سرعة الضوء فهى نحو ٣٠٠,٠٠٠ كيلو متر فى الثانية الواحدة أى إن سرعة الصوت $\frac{١}{١,٠٠٠,٠٠٠}$ من سرعة الضوء تقريبا، لذلك فأثناء العواصف الرعدية، نشاهد شرارة البرق أولا وبعد ذلك بمدة زمنية نسمع صوت الرعد، مع أن كلا من البرق والرعد قد حدثا فى نفس الوقت، وإذا حسبنا المدة الزمنية بين رؤيتنا للبرق، وبين سماعنا للرعد، لعلمنا مقدار علو السحابة الركامية عن سطح الأرض، فلو كانت المدة اثنتى عشرة ثانية مثلا، فإننا لو حسبنا أن سرعة الضوء ٣٤٠ مترا فى كل ثانية، لعلمنا أن بعد السحابة عن سطح الأرض أربعة كيلو مترات تقريبا.

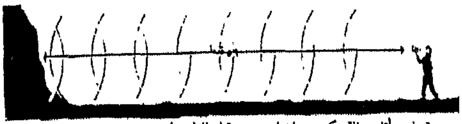
صدى الصوت وحاجز الصوت:

تستقبل الأذن موجات الصوت، كما تستقبل موجات صدى الصوت، كما أن للصوت حاجزا صوتيا لا تكسره إلا الطائرات النفاثة الأسرع من الصوت، والأذن تستقبل كل هذه الموجات الصوتية.

ما هو صدى الصوت؟ إننا إذا قذفنا كرة إلى جدار، فإنها ترتد من الجدار إلينا، وكذلك موجات الصوت، إنها تنطلق من مصدر الصوت فى كل اتجاه، وتصطدم بالأجسام الموجودة فى مساره، وترتد إلى الخلف بنفس القوة والسرعة، ويمكن سماع صدى الصوت على مسافة خمسة وخمسين قدما عن الأقل من السطح الذى ينعكس عليه، ويمكن معرفة بُعد المكان الذى انعكس عليه الصوت وذلك بحساب المدة الزمنية بالثوانى، بين وقت انطلاق الصوت، ووقت عودته إلى مكان انطلاقه مرة أخرى وسماعه له، ويستعمل البحارة ظاهرة صدى الصوت؛ لمعرفة بُعد باخرتهم عن صخور الشاطئ.

ظاهرة كسر حاجز الصوت:

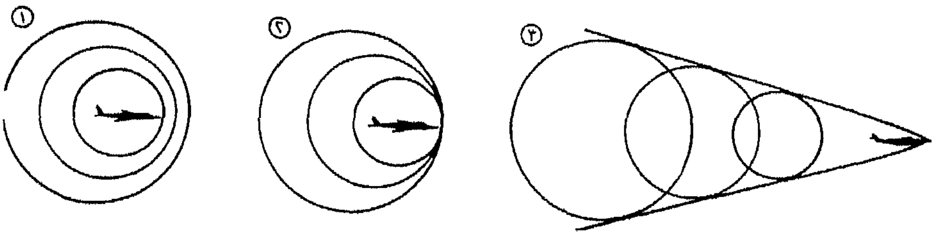
سرعة الصوت نحو ١٢٠٠ كيلو متر فى الساعة، فإذا وصلت سرعة الطائرة إلى ٨٠٠ كيلو متر فى الساعة، فإن الهواء لا يتسرب بسهولة حول الطائرة، وإنما ينضغط أمامها بشدة مكونًا جدارا أمام جسم الطائرة ويسمى علميا «الصدمة الموجبة». ويمكننا تصور ذلك إذا انطلقنا بالسيارة بسرعة كبيرة عكس اتجاه الريح، فإن الهواء ينضغط أمام السيارة. وإذا أخرجنا أيدينا من نافذة السيارة، نشعر وكأن جدارا قويا من الهواء يقاوم حركة السيارة إلى الأمام وهى تجرى


٥٦ قدما هى أقل مسافة يمكن عندها سماع صدى مقطع لفظى واحد بوضوح.

بسرعة. وإذا طارت الطائرة بأسرع من الصوت - أى أسرع من ١٢٠٠ كيلو متر فى الساعة - فإنها تكسر «الصدمة الموجبة» أو الجدار الصوتى الذى أمامها، وذلك يسبب فرقعة هائلة وصوتا مدويا. ويسمعها من على الأرض صوتا عنيفا يحدث ذبذبات هائلة فى الجو تحطم النوافذ والمنشآت وتشبه إلى حدٍ ما صوت الصاعقة التى تصم الآذان.

إن أذن الإنسان لا تستقبل إلا الأصوات ذات الذبذبات الصوتية من ١٦ إلى ٢٠,٠٠٠ ذبذبة فى الثانية، ومعنى هذا أن الإنسان لا يسمع كل الأصوات، ولو سمع الإنسان كل الأصوات فى الكون لصعق، ولا يسمع كل الأصوات فى الكون إلا الذى خلق الكون وهو الله، عز وجل.

جاء فى كتب السنة أن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: «الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات» ولقد جعل الله تعالى لكل كائن حى طاقة من السمع على قدر طاقته، وفى حدود ما ينتفع به من الأصوات. فذلك قول الله، عز وجل:



﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك].



متى لا يسمع الإنسان الصوت الذى يصل إليه؟

يحدث ذلك فى حالة من ثلاث:

١- إما أن يكون جهاز استقبال السمع - وهو الأذن بأقسامها الثلاثة - مريضا أو مضطربا.

٢- أو تكون سرعة ذبذبات الصوت. أقل أو أسرع مما تستوعبها الأذن.

٣- أو يكون المخ نفسه مريضا أو مضطربا، أو يكون هناك خلل بالعقل أو الوعى أو الإدراك. أو يكون الإنسان نائما. وكان الاعتقاد قديما أن الأذن هى جهاز السمع، إلا أنهم اكتشفوا من عهد قريب أن الأذن جهاز استقبال لذبذبات الأصوات، وأن المخ هو الذى يسمع الأصوات؛ لذلك كثيرا ما تذكر حاسة السمع وغيرها من الحواس، مرتبطة بالوعى والمخ والإدراك، وهو يعبر عنها بالفؤاد، كما قال الله ـ تعالى ـ فى سورة الملك:

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

ولو كان المخ مضطربا أو العقل غافلا أو الفكر منشغلا، فإن الإنسان لا يفهم ما يسمع، كما قال الله ـ تعالى ـ فى سورة يونس:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يستمعون: أى يصل الصوت إلى المخ ولكن ربما دون فهم.

أما يسمعون: أى يصل الصوت إلى المخ ولكن مع فهم معنى ما يُسمع.

ونفهم من الآية الكريمة أن الله تعالى قرن ذهاب السمع بذهاب العقل. فدل ذلك على أهمية السمع. وأن الإنسان يسمع بمراكز السمع بمخه، وبعقله ووعيه وإدراكه، فالسمع لا يتم إلا باكتمال العقل، وقوله تعالى:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ﴾

استفهام إنكارى ويفهم منه النفى.

وفى سورة الأعراف يقول الله، عز وجل:

﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: تعبير مجازى يشير إلى أن الله تعالى أضل عقولهم وأعمى قلوبهم.

﴿فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ أرجع عدم قدرتهم على السمع إلى ضلال عقولهم، وهى إشارة إلى أن الإنسان لا يسمع إلا بعقله وقلبه وإدراكه السليم، فيمكن تفسير الآية على الحقيقة كما يمكن تفسيرها على المجاز.

السمع بالوحي والإلهام:

كان جبريل ـ عليه السلام ـ ينزل بالوحى على رسول الله ﷺ وهو بين صحابته فيسمع رسول الله ﷺ كلام جبريل ـ عليه السلام ـ ويستقر فى قلبه تماما، والصحابة من حوله لا يسمعون، ووحى الله تعالى لرسوله أعظم الوحى على الإطلاق.

إلا أن الله تعالى لم يخلق خلقا وتركه بدون إلهام أو بدون وحى، وإلا ما استمرت الخلائق فى وجودها، فالسمع فى خلائق كثيرة ليس بحاسة السمع، فهناك سمع بإلهام وسمع بوحى، فالله عز وجل يوحى إلى كل خلق من خلقه فينصاع المخلوق لوحى ربه إليه ويصدع بما يؤمر، كما قال تعالى:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾

[النحل: ٦٨]

وكما قال:

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾

[فصلت: ١٢]

وكما قال تعالى أيضا:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ⁽٧⁾﴾

[القصص: ٧]

وروى الإمام البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يسمع صدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شىء إلا شهد له يوم القيامة»**، قوله **«ولا شىء»** يدل على أن كل خلق فى الوجود يَسمع، حتى الجماد يسمع، ولكن ما هو الدليل على ذلك؟ دليل ذلك ما رواه أصحاب السنن عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من مسلم يلبى، إلا لبى من عن يمينه وعن شماله، من حجر أو شجر أومدر، حتى تنقطع الدنيا من ها هنا وها هنا»**، وروى الإمام ابن ماجه عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: إذا كنت فى البوادى فارفع صوتك بالأذان. فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يسمعه جن، ولا إنس، ولا شجر، ولا حجر، إلا شهد له»**.

إذن فالإنسان والدواب والجن والشجر والبحار والملائكة يسمعون. الكل يسمع، ولكن ليس بحاسة سمع كالتى فى الإنسان منا، ولكنهم يسمعون بأجهزة أخرى وقوانين أخرى جعلها الله تعالى لهم. وروى الإمام الترمذى عن أبى يزيد عن الإمام علي بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى عنه قال: (كنت مع رسول الله ﷺ بمكة، فخرجنا من بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر ولا حجر ولا مدر إلا قال له: السلام

عليك يا رسـول الله)، وهذا حديث يدعـو إلى العجب حقا، ولسنا نعجب من كل خلق فى هذا الموجود يسلم على سيـدنا رسول الله ﷺ، فهذا أمـر قـدره الله تعالـى على كل خلق من خلقـه أزلا، ولا عجب فيه، إنما العـجب حقا هو كيف سمع الإمام عـلي كلام الجبل والشجـر والحجر؟ وإذا هو قد سـمعـه، فكيف فهـمه؟ لا يمكن أن يكون قد سمعه بحاسة سمعه، ولا فهمه بفؤاده، لأن لغـة الجبل والـشجـر تخـتلف عن بعـضهـا البـعض، فضـلا عن أنها ليـست أصواتا تسـمع بحاسـة السمع، وليـست بلغة مـثل لغة البـشر، فكيف سمـعهـا الإمام على وكيف فـهمـها، لا تفسير لذلك إلا أن يكون ذلك كـرامة منحها الله تعالى لسيدنا على رضى الله عنه.

ولا ننسى ونحن نـتحـدث فى مـوضـوع السمـع بدون حاسة سـمع، «سارية» وهـو يقود جـيش المسلمين فى الشـام، وإذا بجيش الأعـداء يباغتـه من خلف ومن أمام، فأصابتـه الحيرة إلى أين يحـتمى بجـيشـه من الأعداء، وكـان أميـر المؤمنين عمـر رضى الله عنه قائمـا يخطب الناس على المنبـر، فـقطع خطبـته وصـاح: (يا سـارية الجـبل)، والعجـيب أن سارية سـمع - وهو فى الشام على بعد آلاف الأميال - صوت عمر رضى الله عنه، فانطلق بجـيشه إلى الجبل يحـتمى به، وبذلك أمن ظهر جيشه ونجا من الخطر الذى كان قـد أحدق بجـيش المسلمين، فـكيف رأى عمـر الموقـعة وهو فـى المدينة يخطب على المنبـر؟ بل وكيف سمـع سارية صيحة عـمر؟ لا ندرى، إنما الذى ندريه جـيـدا هو أننا فى عـالـم نعلم من أسراره شيئا، ولكن ما لا نعلمه أكثر كثيرا.

سمع الله تعالى ليس كمثله سمع:

ذكـرنا من قـبل أن الـسـمع أهم حـواس الإنسان، لذلك تذكر دائما فى القرآن الكريم قبل أى حاسة مـن الحواس الأخرى، كما قـال تعالى فى سـورة مـريم عن سـمـع الإنسـان وبصـره: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وإذا تقدم السمع عن البصر فى الإنسان فإن سمع الله تعـالى لا يتـقدم على بصـره ولا بصـره عن سمعه، لأن صفات الله تعالى كلها صفات مطلقة ولم يقدم الله تعالى سمعـه عن بصره عندما نسبه إلى نفسه تعالى، كمـا فى سورة الكهف قال عز وجل:

﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف].

والله تعـالى يسمع سـمـعا مطلقـا، وهو سمع ليس كمثله سمـع، وسمى الله تعالى نفسه «السمـيع» و(السمـيع) صيغـة مبـالغة، من اسم الفاعل (سـامع)، وصفـات الله وتعالى وأفـعاله كمال مطلق فكيف يجوز عليهـا مبالغة، والمبالغة تكون لصفات أو أفعـال تقبل الزيادة والنقصان، نقول: المبالغة ليست لصفات الله تعالى وأفعاله، وإنما المبالغة فى تعدد المفعولات وليست فى زيادة الفعل نفسـه، والسمع فى الإنسان يكون بواسطة حاسة سمعه وفؤاده، ولكن سمع الله تعالى ليس كمثل سمع خلقه بل هو تجـليات إلهية مطلقة فى كل ملكوتاته ولكل خلق من خلقـه، فهـو سمع ليس كمـثله سمع؛ ذلك أن الله عـز وجل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

رسول الله يسمع من يلقي عليه السلام:

أمرنا الله - عز وجل - كما أمر الملائكة بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب].

وقال رسول الله ﷺ: **«ما من أحد يسلم عليّ إلا رد الله إليّ روحي حتى أرد عليه السلام»** رواه الإمامان أحمد وأبو داود. والذين يتشرفون بزيارة مسجد رسول الله ﷺ يسلمون عليه يقولون: (السلام عليك يا رسول الله. السلام عليك يا إمام الأنبياء والمرسلين)، وإذا كان الله عز وجل يحيي رسوله إذا سلم عليه أحد فيسمعه ويرد عليه السلام وإذا كان آلاف الناس يصلون ويسلمون على رسول الله في كل لحظة من اللحظات فإننا نستنتج من هذا أن الرسول ﷺ حي كل عصر من العصور، حياة بقانون آخر لا نعلمه، ويعلمه الله عز وجل.

وقال بعض العارفين: لو لم يكن النبي موجودا في كل عصر من العصور لكان الأمر بالسلام عليه عبثا. إذ كيف يأمرنا الله تعالى بأن نسلم على غير موجود، بل كيف يرد علينا السلام إنسان ميت لا يسمع ولا يتكلم؟ وإذا علمنا أن الشهداء أحياء كما قال الله تعالى:

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

[آل عمران]

وقال تعالى أيضا:

﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة]، إذن فالشهداء أحياء فما بالنا بالأنبياء والمرسلين؟ إنهم أحياء يرزقون عند ربهم فى كل زمان، ولكنهم أحياء بقانون آخر غير قانون الأحياء فى الدنيا، وهى حياة أكثر وعيا وأكثر إدراكا من الحياة فى الدنيا. إذن فالرسول ﷺ يسمع من يسلم عنده ويرد عليه السلام، لذلك أمرنا الله تعالى بأن نصلى ونسلم عليه.

وقد يقال أننا إذا زرنا المقابر ينبغى أن نلقى على الموتى السلام نقول: (السلام عليكم دار قوم مؤمنين)، والأمر نفسه بالنسبة للنبى ﷺ نسلم عليه إذا زرنا مسجده، أقول ليس الأمر كذلك، فإن الموتى إذ نسلم عليهم لا يردون علينا السلام، ولكن الرسول ﷺ يرد علينا السلام، وأمر آخر أننا نسلم على الموتى عندما نزور قبورهم، أما الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ فتكون إذا زرنا مسجده، وتكون أيضا فى أى مكان نكون فيه، فى أى بقعة من بقاع العالم، نسلم عليه فيرد علينا السلام ﷺ.

هل الموتى يسمعون؟

الإنسان لا يسمع بأذنيه، وإنما يسمع بمراكز السمع بالمخ وبالعقل والوعى والإدراك، وهذا ما يعبر عنه القرآن العظيم «بالفؤاد». فالفؤاد جميع مدارك الإنسان (المخ والعقل والإدراك والوعى والنفس والروح)، والدليل على أن الإنسان يسمع بفؤاده، أن الإنسان عندما يموت، يموت

جسده، أما ذاته البشرية وفؤاده لا يموت، لذلك فالموتى يسمعون، ليس بحواسهم التى فى أبدانهم، فقد ماتت وتحولت إلى تراب، ولكنهم يسمعون بأفئدتهم فهى لا تموت.

روى الإمامان البخارى ومسلم وأصحاب السنن عن أنس عن عمر رضى الله عنهم قال: كان رسول الله ﷺ يرينا قبل معركة بدر مصارع المشركين فى الغد يقول: «هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله»، قال عمر رضى الله عنه: فوالذى بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التى حدّ رسول الله ﷺ، قال: فجُعلوا فى بئر بعضهم على بعض. فانطلق رسول الله ﷺ حتى انتهى إليهم. فناداهم قائلا (يعنى نادى قتلى المشركين): يا فلان ابن فلان، يا فلان ابن فلان، هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى الله حقا. فقال عمر: يا رسول الله كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها؟ قال ﷺ: «**والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا علىّ شيئا**».

ومن الواضح أن سؤال عمر رضى الله عنه لرسول ﷺ لم يكن اعتراضا أو استنكارا، وإنما كان يريد أن يفهم ويتعلم مالم يكن يعلم، لذلك أعطاه رسول الله ﷺ ما كان يريد، وبيّن له الحقيقة التى لم يكن يعلمها.

إذن فالموتى يسمعون. ولكن سمعهم ليس كسمعنا نحن فى الدنيا، فهم يسمعون بقانون آخر، ذلك أن الأنفس لا تموت (بمعنى العدم) وكذلك العقل والروح، وجاء فى الصحيح أيضا أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الميت يسمع وقع أقدام مشيعيه**». وليس لنا أن نبحث فى ذلك بحثا علميا لأن هذا من علم الغيب الذى أطلعنا الله ورسوله عليه، مما هو خارج عن نطاق علومنا التجريبية.

هل الجن يسمعون؟

والجن كذلك تسمع، ولكنها تسمع بحواس غير حواسنا نحن، فذلك قول الله تعالى:

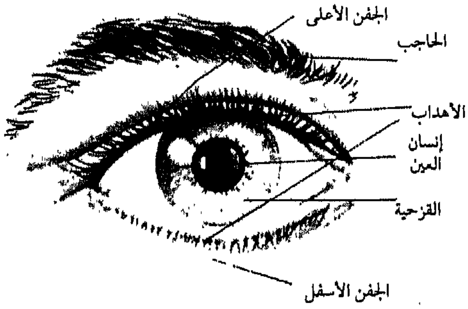
﴿**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا** ①﴾ [الجن]

وهكذا جعل الله عز وجل لكل خلق من خلقه سمعا، إلا أن سمع أى خلق يختلف عن سمع الخلق الآخر، فجعل الله تعالى لكل خلق من خلقه سمعا يناسب ظروف حياته وبيئته التى يعيش فيها مما يعينه على استمرار حياته والحصول على رزقه والسعى فى طاعة الله تعالى ورسوله، لذلك نجد أن السمع يختلف من خلق إلى خلق، ولا يحيط سمع أى مخلوق بكل الأصوات فى هذا الوجود، ولا يحيط بكل الأصوات إلا الذى خلقها وهو الله عز وجل، فذلك حديث السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: (الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات).

حاسة البصر

كما أن الجلد هو العضو الذى يستقبل الأحاسيس باللمس والألم والضغط والحرارة والبرودة، ثم تُوصل بعد ذلك عبر الألياف العصبية إلى مراكز الإحساس بالمخ، فكذلك العين هى العضو الذى يستقبل أشعة الضوء الصادرة من المرئيات فتنظرها، ثم تُوصل بعد ذلك عبر العصب البصرى إلى مركز الإبصار فى مؤخرة المخ فيبصرها. فالعين عضو استقبال لحاسة البصر، ولقد حاول العلماء تقليد العين فصنعوا آلة التصوير. فلكل من العين وآلة التصوير عدسة لتجميع أشعة الضوء.. كما أن لكل منهما سطحا يستجيب للضوء هو الشبكية فى قاع العين، وهو الفيلم الحساس فى آلة التصوير. إلا أن عدّسة العين تختلف اختلافا كبيرا عن عدسة آلة التصوير، فعدسة العين تغير من شكلها ودرجة تحدبها حتى تجمع أشعة الضوء فى بؤرة على الشبكية أما عدسة آلة التصوير فلا تتغير، وتجمع أشعة الضوء الصادرة من الجسم المرئى على الفيلم الحساس بتغيير بعد العدسة عنه.

وإذا نظرنا إلى عين الإنسان فسنرى القزحية فى وسطها وفى وسط القزحية ثقب أسود صغير مستدير هو «إنسان العين»، ولماذا يبدو أسود اللون؟ لأننا نشاهد من خلاله الجزء



الداخلى المظلم لكرة العين. وتحيط القزحية بإنسان العين، وحول القزحية من كل اتجاه توجد «الصلبة» البيضاء، وأمام القزحية بروز تغطية القرنية الشفافة.

وجدار العين مكون من ثلاث طبقات هما من الخارج إلى الداخل: **الصلبة، والغلاف المشيمى، والشبكية.** ومعظم الجزء الداخلى ملىء بسائل لزج ويسمى «الجسم الزجاجى».

والصلبة (بياض العين) هى الطبقة الخارجية للعين. وتتصل اتصالا كاملا بالقرنية.

جدار العين: تحت الصلبة مباشرة توجد الطبقة الثانية وهى «الغلاف المشيمى».

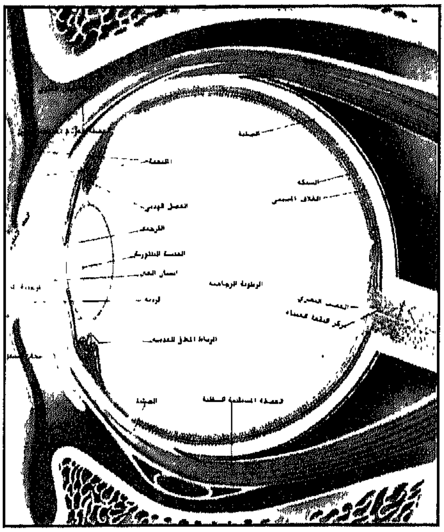
وهى غنية بالأوعية الدموية، وخلاياها قاتمة اللون لاحتوائها على مادة قاتمة اللون. وتتصل طبقة الغلاف المشيمى. فى الجزء الأمامى للعين بـ «القزحية» و«الجسم الهدبى». أو العضلة الهدبية.

• وتتكون **القزحية** خلايا عضلية بداخلها مادة ملونة (زرقاء أو خضراء أو بنية أو سوداء) وتتحكم الخلايا العضلية بالقزحية فى حجم إنسان العين، وبالتالى تحدد كمية الضوء التى تصل عبر إنسان العين إلى العدسة، وفي الضوء الخافت يتسع إنسان العين وفى الضوء الساطع يضيق.

أما عدسة العين: فهى تقع خلف القزحية وإنسان العين، والعدسة قرص شفاف ومرن تماما وتشبه العدسة التى يصنعها الإنسان إلا أنها مرنة وهي تجمع أشعة الضوء الداخلة إلى العين حتى تتركز فى بؤرة لها على الشبكية. وتوجد العدسة داخل كيس متصل من جميع حوافة بالجسم الهدبى، وانقباض الجسم الهدبى وانبساطه يغير من درجة تحدب العدسة وبالتالى يغير من بؤرتها.

الشبكية: هى الطبقة الداخلية لجدار العين، وتحتوى على خلايا الرؤية، وهذه الخلايا نوعان: **العصبات والمخروطات:** وهذه تستقبل أشعة الضوء من المرئيات وترسلها على شكل ومضات كهربائية إلى مركز الإبصار فى مؤخرة المخ عن طريق العصب البصرى. وفوق الشبكية بقعتان عجيبتان.

أولهما: المكان الذى يتصل فيه العصب البصرى بالعين، وهذا المكان خال من خلايا الرؤية وهو بقعة مستديرة تختلف عما حولها من أجزاء الشبكية وأفتح منها لونا، وهذه هى البقعة الوحيدة التى منها تشاهد جزءًا من المخ بالعين



المجردة بواسطة منظار قاع العين، ولما كانت خالية من خلايا الرؤية فإنها تسمى «البقعة العمياء».

وثانيهما: «**البقعة الصفراء**» وهى بجوار البقعة العمياء، ولا تحتوى على خلايا عصوية وفى هذه المنطقة تبلغ الرؤية أوج قوتها.

ووظيفة الخلايا المخروطية رؤية التفاصيل الرقيقة واللون، أما الخلايا العصوية فهى هامة جدا لرؤية المرئيات فى اللون الخافت، لذلك نجد أن شبكية الحيوانات الليلية كالخفاش مثلا تتكون من الخلايا العصوية فقط، لذلك فلديها عمى الوان، لا ترى إلا اللونين الأبيض والأسود.

حركة العينين: تحرك العين ست عضلات صغيرة تغذيها ثلاثة من الأعصاب المخية. ولماذا لا تتحرك كل عين حركات مختلفة عن العين الأخرى، ولابد أن تتحرك العينان معا فى نفس اتجاه الحركات؟ ذلك لأن مراكز الأعصاب المخية التى تغذى عضلات العينين متصلة ببعضها

البعض فى جذع المخ. وإذا لم تكن مراكز الأعصاب المخية متصلة بعضها البعض فى جذع المخ، فإن كل عين تتحرك فى أى اتجاه مستقلة تماما عن العين الأخرى. ويحدث ذلك فى بعض الزواحف. وجعلها الله تعالى كذلك لفائدتها فى حياتها وسبل معيشتها.

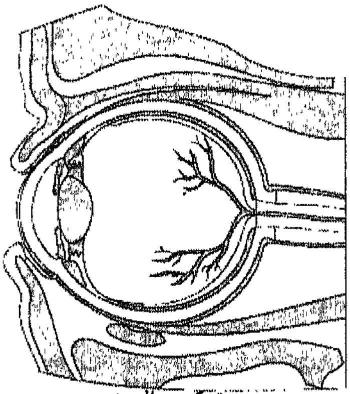
تكون الشبكية الطبقة الداخلية لجدار العين، وبها نحو ١٢٥ مليون خلية عصوية و٧ ملايين خلية مخروطية. والخلايا العصوية ليست حساسة للألوان ولا تستقبلها، أما الخلايا المخروطية فهى حساسة للألوان.

إدراك صور المرئيات: تسقط صور المرئيات على الشبكية مقلوبة. ثم تنتقل إلى مركز الإبصار فى المخ عبر العصب البصرى وهناك تستعيد وضعها الطبيعى.

حاسة البصر في الإنسان والحيوان والحشرات:

لا يوجد اختلاف جذري فى التصميم الهندسى للعين فى كل من الإنسان والحيوان والحشرات. كما لا يوجد اختلاف جذرى فى وظيفة العين وأجزائها المختلفة فى كل تلك المخلوقات الحية.

ولكن الاختلاف فى حاسة البصر فى كل مخلوق حى، هى فى مواءمة حاسة البصر للبيئة، ونوع الحياة التى يعيشها المخلوق، فحاسة البصر فى كل مخلوق تتناسب مع ظروف حياته، بحيث تعينه تماما على القيام بها.


تركيب العين

وتتركز الاختلافات، فى شكل العدسة البلورية، وشكل إنسان العين، ونوع الخلايا البصرية الموجودة فى الشبكية، وكذلك وضع العين فى الرأس، ومجال البصر، ومجالات حركة العين، مما تتوافق مع حاجة المخلوق لحاسة البصر فى طبيعة حياته.

كما تختلف قوة الإبصار فى المخلوقات الحية مما يتوافق مع ظروف حياة المخلوق.

فعين الإنسان مثلا ترى فى الليل أقل مما ترى فى النهار. والعكس صحيح في عين القط مثلا، لأن القط يصطاد فريسته ليلا، وعين الثور مثلا، بها عمى الألوان. فالثور فى مصارعة الثيران، لا يثيره الرداء الأحمر كما يتبادر إلى ذهن الناس، ولكنه يثار بتلويح الرداء له، سواء كان أحمر أو أبيض أو أسود، فعين الثور لا تميز الألوان، وعين الصقر أقوى كثيرا من عين الإنسان.

ويتألف الضوء من إشعاعات ذات أطوال مختلفة، تقاس بالأنجستروم، والأنجستروم وحدة

قياس تساوى واحد على ألف مليون من المتر (ج . ب . م) جزء من بليون من المتر»، فعين الإنسان تدرك الطيف من أشعة الشمس الواقع بين ٣٨٠ - ٧٨٠ ج. ب م.

والإشعاعات التى أطوال أمواجها ما بين ٧٨٠ ، ١٢٠٠ ج . ب م.

والعين البشرية لا ترى الأشعة تحت الحمراء، ولا الأشعة فوق البنفسجية. ولكن عين القط ترى منها الإشعاعات ذات الأطوال ١٧٠، ٣٩٠ ج . ب م. أما عيون الحشرات فهى عيون مركبة فى أغلب الحشرات.

وقد بحث أستاذ علم الحيوان فى جامعة ميونخ ڤون فريش، حواس النحل ونال عن ذلك جائزة نوبل للعلوم سنة ١٩٧٣ وخرج من دراسته أن النحل **لا يرى الإشعاعات التى لها أطوال موجات تتعدى الـ ٦٥٠ ج. ب م** إلا أنها تحس بالإشعاعات فوق البنفسجية الموجودة فيما بين ٣٠٠ ، ٣٨٠ ج . ب م والتى لا تحس بها عين الإنسان.

والأزهار ذات اللون الأحمر، لها موجات ما بين ٦٥٠، ٧٥٠ ج. ب م وهذه تتعدى مقدرة إدراك الألوان عند النحل، ولكن تلك الأزهار لها إشعاعات فوق بنفسجية أطوالها ما بين ٣٠٠ ، ٣٨٠ ج . ب م لذلك تراها عيون النحل، فالزهرة التى نراها نحن حمراء تراها النحلة بنفسجية اللون، فعين الإنسان وعين النحلة تريا نفس الأشياء بلون مختلف، فعين الإنسان ترى الأزهار البيضاء بيضاء اللون. بينما تراه عيون النحل بلون أزرق مخضر. وعين الإنسان ترى النبات الأخضر، أخضر اللون. بينما تراها عيون النحل بلون رمادى. ولا ندرى ما هى الألوان الحقيقية للأشياء التى نراها، هل هى الألوان التى تراها عيون النحل أم هى الألوان التي تراها أعيننا نحن؟ أم هى ألوان لا تراها أعيننا ولا تراها أعين النحل؟ إنه سؤال لا نعرف الإجابة عليه.

إذن فالعين البشرية: تستقبل ألوانا معينة ولا تستقبل الألوان الأخرى. وذلك يتوقف على الخلايا المسئولة عن استقبال الألوان فى شبكية العين. إن لها حدودا لا تتعداها؛ لذلك تستقبل ألوانا لا تستقبلها شبكية عين النحلة أو شبكية عين الحصان.

وهناك فى الكون أشياء بألوان لا نراها على حقيقتها، فقد نراها مثلا حمراء اللون وهى ليست كذلك أو نراها خضراء اللون، وهى فى حقيقتها بلون آخر، مامعنى هذا؟ معناه أن الله تعالى خلق مخلوقاته الحية بأبصار ذات قدرات مختلفة، كل حسب البيئة التى يعيش فيها، وحسب متطلبات حياته، والحصول على رزقه، ووظيفته فى هذا الوجود.

ما يبصره الإنسان وما لا يبصره:

الله تعالى خلق حواس الإنسان بقدرات وحدود تتناسب واستمرار حياته الدنيا تماما لا تزيد عن ذلك ولا تنقص. فالإنسان لا يبصر كل شيء أمامه، فهناك من الأشياء أمامنا نبصره،

وهناك من الأشياء أمامنا لا نبصره، وما لا نبصره أكثر كثيرا مما نبصره. فلقد خلقنا الله تعالى فى عالم نرى منه ما يعيننا فقط على حياتنا، كما خلق باقى الأحياء، وأنشأ فيهم السمع والأبصار وباقي الحواس بما يعينهم فقط على حياتهم، ولا يبصر كل شيء إلا الله عز وجل الذي قال فى سورة الأنعام:

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

أما إذا تحدث عن حاسة إبصارنا فإنه تعالى يخبرنا بحقيقتها بقول:

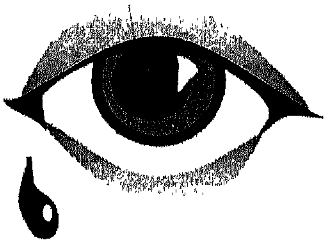
﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحاقة].

علاقة البصر بمدارك الإنسان الأخرى:

قال الله عز وجل:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾. [النحل]

فالإنسان أخرجه الله تعالى من بطن أمه، لا يعلم شيئا عن الحياة التى خرج إليها. لذلك جعل الله تعالى له مدارك يدرك بها ما حوله. أول المدارك هى الفطرة وثانى المدارك هى الحواس، وكل هذه ترتبط بأهم مدارك الإنسان وهى الأفئدة. والأفئدة جمع فؤاد. وهي كناية عن العقل وقدرات التفكير، فإذا سمعنا كلمة أفئدة فهمنا أنها تدل على مجموع مدارك الإنسان الواعية العاقلة.



وقد يعبر عن الفؤاد بالقلب. كما قال تعالى:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف].

والعين تستقبل أشعة الضوء الصادرة من المرئيات، وتحول الصورة إلى ومضات عصبية كهربائية، تجرى فى العصب البصرى حتى تصل إلى مركز الإبصار فى مؤخرة المخ. حينئذ يبصر الإنسان الصورة. ثم بعد ذلك يفهم معناها، فالعين تنظر الصور. والمخ هو الذى يبصر الصور، وكذلك الحواس جميعا تستقبل الأحاسيس، ولكنها لا تحس بها إلا بواسطة مراكز خاصة فى المخ، وبواسطة المخ يحس الإنسان بكل الأحاسيس التى تستقبلها الحواس. لذلك نجد أن الحواس، لابد أن ترتبط بمجموع مدارك الإنسان والتى يعبر عنها بالأفئدة. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [النحل: ٧٨].

وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون].

وقال تعالى:

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ [الملك: ٢٣]

وتعلق الفؤاد بالجسم تعلق لا ندرى كنهه، مثل تعلق النفس بالجسم، وتعلق العقل بالجسم، وتعلق الروح بالإنسان، إنه تعلق لا يُدرك بالعمل التجريبى. وبالتالى فهو من الغيبيات. إذن الفؤاد والعقل والفكر والإدراك كلها مترادفات لفظية لشىء واحد هو الأمانة التى منحها الله تعالى للإنسان دون سائر خلقه، كما قال تعالى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب].

وكل المخلوقات الثديية والتى هى تشبه جسم الإنسان تشريحيا كالقردة، لها مخ يشبه مخ الإنسان تشريحيا وفيه مراكز لاستقبال الحواس جميعا ولكن ليس فيها ما يعرف بالفؤاد، والذى يعنى العقل والعاطفة والنفس والروح.. فالدواب تعيش على الفطرة وليس لها عقل ولا عاطفة ولا روح.

والوحى إنما يكون للعقل كما فى قوله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾

[القصص: ٧]

وبعد ذلك قال:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾

[القصص: ١٠]

أى فارغا من الوحى، وفؤاد أم موسى كناية عن عقلها وإدراكها.

ويقول تعالى فى سورة هود آية ١٢٠:

﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾

أى نثبت به عقلك وفكرك.

ويقول تعالى فى سورة إبراهيم ٣٧: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ ، أى تُشد إليهم وتتجه إليهم.

فى سورة الهمزة:

﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾﴾

أى على القلوب والعقول والنفوس.

وفى سورة النحل قال الله تعالى:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل]

ولماذا لم تذكر الحواس جميعا؟ ذلك لأن ذكر السمع والبصر يدل على الحواس جميعا، ومثل ذلك قول الله عز وجل فى سورة النحل ٨١:

﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾

وتقدير القول: (سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم البرد)؛ لأن السرابيل التى تقى من الحر هى من باب أولى تقى من البرد. فاكتفى بذكر الحر لدلالته على الحر والبرد معا.

إذًا فقوله تعالى:

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ [النحل: ٧٨].

يشير إلى الحواس جميعا وارتباطها بالأفئدة.

وارتباط الحواس بالأفئدة لا توجد إلا فى الإنسان، لأنه هو المخلوق العاقل الوحيد الذى به المدارك العاقلة الواعية والتى عبر القرآن الكريم عنها بالفؤاد.

ولماذا ذكر السمع قبل الأبصار وذكر مفردا وذكرت الأبصار جمعا؟

قد يكون ذلك لأسباب عديدة منها:

١- أن السمع أكثر فائدة للإنسان وأكثر عونا له فى الاتصال بمجتمعه، أكثر مما تفيده العين، فالإنسان الأصم المبصر يكون اتصاله بالمجتمع الذى يعيش فيه، أقل من اتصال الإنسان الضرير الذى يسمع جيدا، وكم من عميان كانوا أساتذة وعلماء، ولكن قلما نجد أساتذة وعلماء ممن بهم صمم ويبصرون. إذن فالسمع أكثر فائدة للإنسان وأكثر أهمية فى اتصاله بمن حوله، يأخذ منهم ويعطى، ويفيد ويستفيد.

٢- حدود حاسة البصر أقل من حدود حاسة السمع فقد أسمع حديثا يدور من وراء جدار، وقد أسمع أصواتا لا أرى مصدرها.

٣- الإنسان الضرير يستمع جيدا ويصغى لما يقال له فى تركيز كبير. لذلك يستوعب ما يسمعه أكثر مما يستوعب المبصر الذى به صمم.

أما لماذا ذكر السمع مفردا والأبصار جمعا؟ لأن السمع لا يختلف من إنسان لآخر فما أسمعه أنا يسمعه غيرى، أما البصر فيختلف من إنسان لآخر، فما أراه أنا قد يراه إنسان آخر بوجه مختلف أو بمعنى مختلف. إذن فالسمع واحد فى الناس جميعا والأبصار تختلف، لأجل ذلك ذكر السمع مفردا بينما ذكر البصر جمعا.

علاقة السمع والبصر والحواس بالمخ ومجموع مدارك الإنسان:

تتصل الحواس جميعا بمراكز الحس بالمخ، وبمراكز ذاكرة الأشياء فيه. فمركز البصر فى المخ مثلا لا يبصر إلا صورة ولكنه لا يفهم معناها، ولكن الإنسان يفهم معنى ما يرى بالاستعانة بمركز الذاكرة، وكذلك الأمر فى باقى الحواس، وفى طور الطفولة، يكون مركز الذاكرة فارغا، لذلك يرى الطفل ما أمامه ويسمع الأصوات التى حوله ولكنه لا يفهم معنى ما يرى وما يسمع، فقد يقبض على سكين أو يمسك بقطعة من الجمر، أو قد تكون أمامه حفرة عميقة فى الأرض ويراها جيدا. ولكنه لا يفهم معنى ما يرى، فيتقدم إليها ويقع فيها.

المخ هو الذى يبصر. أما العين فجهاز ينقل الصورة فقط، فهو مركز النظر، بينما المخ مركز البصر. وكان الناس قديما يظنون أن العين تبصر وما علموا أن العين هى الجزء من حاسة البصر الذى يستقبل المرئيات ويرسلها إلى المخ. وإذا كانت العين مريضة بمرض يمنع توصيل المرئيات إلى العصب البصرى فالإنسان لا يرى.

وإذا كانت العين سليمة والمخ مشتتًا والفكر مضطربًا، فالعين تنظر ولكن المخ لا يبصر.

وكذلك الأمر فيمن يتناول المخدرات والمسكرات. هو ينظر بعينيه ولكنه لا يبصر شيئا بسبب تشتت فكره، فالمخ يبصر والعين تنظر فقط.

ونجد هذه الحقيقة فى القرآن الكريم مجازا؛ فذكر عقول الكفار والمشركين ودلل على تشتتها واضطرابها بأنها لا تبصر شيئا شأن أى مخ مضطرب مشتت لا يبصر شيئا، فالعين تنظر المرئيات ولكن المخ المشتت المضطرب لا يبصرها. قال الله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾.

فاستخدم الحقيقة العلمية بطريق المجاز، لتصور المعنى المطلوب بيانه عن اضطراب مجموع مدارك الكفار.

وذكرت نفس الحقيقة العلمية فى الحديث النبوى الشريف، من قبل أن يعلم الناس عن كل ذلك شيئا. فقد روى الأئمة مسلم والترمذى ومالك أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه خرجت كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء فإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء، وإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء حتى يخرج نقيا من الذنوب**». نلاحظ دقة الحقيقة العلمية فى حاسة البصر فى قوله ﷺ: «**كل خطيئة نظر إليها بعينيه**».

وفى سورة الأعراف يقول الله تعالى:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾.

وفى سورة يس يقول الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾.

وأمر الله تعالى بغض البصر وليس بغض النظر؛ لأن الإنسان قد ينظر إلى شىء بعينيه، وعقله وفكره منصرفان إلى شىء آخر، فلا يفكر فيما ينظر إليه. لذلك لا يبصره. من أجل ذلك جاء الأمر بغض البصر. وهو الكف عن النظر إلى المحرمات وإعمالُ الفكر والعقل فيما يُنظر إليه. كما فى سورة النور فى قوله تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾.

ولم يقل يغضوا من أنظارهم، أو يغضضن من أنظارهن.

وروى الإمام مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**إياكم والجلوس فى الطرقات**». قالوا: يا رسول الله مالنا بد من مجالسنا نتحدث فيها. فقال ﷺ: «**إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه**»، قالوا: وما حقه؟ قال ﷺ: «**غض البصر. وكف الأذى. ورد السلام. والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر**»، ولم يقل غض النظر. والذى ينظر إلى داخل بيت جاره مثلا، وهو يعمل فكره وعقله فيما ينظر إليه، هنا يكون البصر، وهنا تكون المسئولية، ويكون النهى.

وروى الإمام الترمذى فى باب من اطلع على دار قوم بغير إذنهم، قال النبى ﷺ: «**إنما جُعِل الاستئذان من أجل البصر**».

ما الفرق بين بصر الإنسان فى حياته وبصره عند موته؟

إن الإنسان بعد موته يكون أحدّ بصرا وأكثر سمعا فذلك قول الله عز وجل:

﴿**فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾ [ق: ٢٢].

وفى يوم بدر وقف رسول الله ﷺ على قتلى المشركين وناداهم بأسمائهم فسأله عمر رضى الله عنه: يا رسول الله ما تكلم إلا أجسادا لا أرواح فيها. فقال ﷺ: «**والذى نفسى بيده إنهم لأسمع لما أقول منك**»، فالإنسان بعد موته يكون أكثر سمعا وأحدّ بصرا.

والإنسان عندما يُتوفى يأتيه ملك الموت، وتكون ملائكة آخرون حاضرين، منهم ملك عن يمين وملك عن شمال، ويكون أهله حاضرين أيضا، وينظرون، ولكنهم لا يبصرون هذا الجمع من الملائكة. الإنسان الذى يُتوفى هو وحده الذى يبصرهم لأن الله تعالى كشف عنه الغطاء فصار بصره حديدا، وفى ذلك يقول الله عز وجل عن الإنسان حين يُتوفى وأهله حوله:

﴿**فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾**﴾ [الواقعة].

وهنا حقائق علمية لم تكتشف إلا حديثا. ومن هنا فهى إعجاز علمى قرآنى عظيم.

فلولا إذا بلغت الحلقوم: لولا حرف تحضيض إذا دخل على الفعل المضارع، يحض على القيام بالفعل وعدم التهاون فيه مثل القول: ﴿**لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ**﴾، وإذا دخل الحرف لولا على الماضى كما قال تعالى: ﴿**فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾**﴾ يكون حرف تنديم لينذم الفاعل على فوات الأمر والتهاون فيه. وكما قال الله تعالى أيضا: ﴿**وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ**﴾ وكما نقول: (فلولا استغفرت اللّه).

إن كل إنسان يعيش فى حياته الدنيا فى إطار مادى هو الجسد. أنشأه الله تعالى له، وجعل فيه الحواس، وعندما يموت الإنسان تموت مع جسده حواسه المادية المحدودة الضيقة،

وينطلق إلى ربه عز وجل بذاته البشرية التى تتكون من النفس والعقل والوعى والروح. فالإنسان يسمع ويبصر بعد موته، بغير حواسه المادية، فيكون أشد سمعا وأحد بصرا، وفى قمة الوعى والفهم والإدراك.

عمى الأبصار وعمى القلوب:

ذكر العمى فى القرآن الكريم على الحقيقة تارة وعلى المجاز تارة أخرى.

ويقال فى اللغة: أين ذهب قلبك، القلب هنا مجار عن العقل. والمعنى أين ذهب قلبك. ويعبر بالقلب عن النفس أيضا كما فى سورة البقرة ٢٨٣:

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾.

وهذه كناية لأن النفس هى ما يلزم من القلب. ومثل ذلك قوله تعالى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وجاء ذكر عمى الأبصار وعمى القلوب فى قول الله عز وجل:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج].

والمراد أنه لا يعتد بعمى الأبصار؛ لأن العمى الحقيقى؛ هو عمى القلوب. و«عمى القلوب» كناية عن الضلال المبين، فعمى القلوب هو العمى الحقيقى؛ لأن عمى الأبصار يمكن الاستعاضة عنه بالحواس الأخرى، فعمل حواس السمع واللمس والشم والتذوق يعوض الإنسان الضرير عن فقد بصره، أما عمى القلوب فهو العمى الحقيقى الذى لا يعوضه شىء ولا يستعاض عنه بحواس أخرى. فذلك قول الله عز وجل:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

والمراد نفى العمى الحقيقى عن حاسة البصر وإثبات مكانه فى القلوب ونجد فى الآية الكريمة كناية واستعارة. الكناية، قوله تعالى: ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ﴾، القلوب كناية عن النفس والعقل والإدراك. والاستعارة فى قوله تعالى: ﴿فِي الصُّدُورِ﴾.

ولما كان المراد نفى العمى الحقيقى عن الأبصار وإثبات وجوده فى القلوب، فقد احتاج التعبير اللغوى إلى التصوير فى زيادة التعيين لمكان العمى فى القلوب وليس فى الأبصار. فقال: ﴿تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، كما نقول: «ليست الحدة فى السيف ولكن الحدة فى لسانك الذى بين فكيك»، والقول «لسانك الذى بين فكيك» زيادة فى التعيين وتأكيد لما تعنيه الجملة فى وصف اللسان بحدة السيف، فلم يكن ذلك فلتة لسان وإنما تعمدت ذلك تعمدا. فذلك قول الله عز وجل:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

دل الأسلوب اللغوى فى الآية الكريمة على أن ضلال القلب والكفر بالله تعالى ورسوله هو العمى الحقيقى، وليس العمى الحقيقى فى الأبصار.

واستعمل البصر فى اللغة فى بعض المعانى الأخرى.

فالبصر فى اللغة: رؤية الشىء والإحاطة بحقيقته ومعناه، ويقال أيضا: **أبصر الرجل** إذا فهم بعد جهل، وآمن بعد كفر. واستعمل البصر كناية، لأن العلم والإيمان هو ما يلزم من البصر.

والبصيرة: هى ما وقر فى القلب، واستقر فيه من اعتقاد.

وهى أيضا الفطنة، ونور القلب، وتدل أيضا على الثبات فى الدين، كما قال تعالى:

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]

مستبصرين: أى إنهم كانوا قد عرفوا الحق من الباطل بواسطة الرسل. ويقال: فلان مستبصر، إذا عرف الشىء على حقيقته.

والبصائر: فطنة القلوب وسداد الرأى وما استقر فى القلب من اعتقاد كما قال الله تعالى:

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤]

البصائر هنا كناية عن الآيات والبراهين التى يُبصر بها ويستدل بها على الحق ويعرف بها الفرق بين الحق والباطل، فمن أبصر: أى فهم بعد جهل وآمن بعد كفر.

وجاء فى الأثر أن معاوية قال لقوم من بنى هاشم: (يا بنى هاشم تصابون فى أبصاركم) قالوا له: (وأنتم يا بنى أمية تصابون فى أبصاركم) تصابون فى أبصاركم: كناية أى لا ترون الشىء على حقيقته وتصابون بفساد الرأى وفساد العقيدة.

الضوء والبصر:

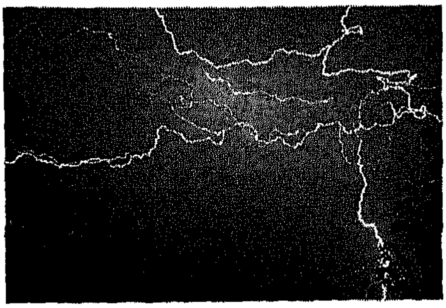
لا تصل المرئيات إلى شبكية العين إلا بواسطة أشعة الضوء الصادرة من تلك المرئيات. وإذا نظر إنسان إلى شجرة مثلا فإنه يراها بحاسة بصره، ولكنه إذا أغلق عينيه لم يعد يراها؛ ذلك لأن أشعة الضوء المنبعثة من الشجرة لم تعد تصل إلى شبكية العين.

ولا يمكن لأحد أن يرى أى جسم إلا إذا دخل الضوء المنبعث من ذلك الجسم إلى عينيه. وإذا تلبدت السماء بالسحب الركامية قد يحدث تفريغ كهربائى بين تلك السحب، على شكل شرارات هائلة؛ تسمى البرق، وفى نفس الوقت تصطدم السحب وتحدث عمليات من التفريغ الهوائى الذى يسبب ما يسمى بالرعد. والإنسان على سطح الأرض يشاهد البرق أولا ثم بعد عدد من الثوانى يسمع الرعد، مع أن كلا من البرق والرعد، يحدث فى نفس الوقت؛ ذلك لأن الضوء أسرع كثيرا من الصوت. فالضوء يجرى بسرعة تبلغ ١٨٦,٠٠٠ ميل فى الثانية، أما سرعة الصوت فهى نحو ١/٥ ميل فى الثانية.

يكاد البرق يخطف أبصارهم:

﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [البقرة].

تضرب الآية الكريمة المثل للكفار بالبرق وما يحدث للناس منه، فما هو البرق؟ البرق تفريغ كهربائى بين سحابتين مختلفتى الشحن الكهربائية أو بين أجزاء من السحابة الركامية نفسها، فبعض أجزاء السحابة الركامية تحمل شحنا كهربائية تختلف عن الشحن الكهربائية التى تحملها الأجزاء الأخرى فيها، ففى أعلى السحابة الركامية تكون درجة الحرارة منخفضة جدا دون درجة الصفر المئوى بكثير فتتكون حبات البرد فيها، وتكتسب هذه المنطقة من السحابة شحنا كهربائية موجبة، وفى المناطق السفلى من السحابة نفسها - وتبعد عن المناطق العليا فيها عدة كيلو مترات - تكون درجة البرودة أقل تحمل شحنا كهربائية سالبة، لذلك يحدث تفريغ كهربائى مئات المرات كل ثانية من الثوانى، وقد يكون شديدا، وتحدث شرارة البرق الهائلة من أعلى السحابة إلى أسفلها، وطول شرارة البرق الهائلة تدل على الكمية العظيمة من الكهرباء فى السحابة الركامية، نفهم ذلك إذا علمنا أن طول شرارة البرق تصل أحيانا إلى خمسة كيلو مترات وأن أكبر شرارة كهربائية أحدثها الإنسان فى أسلاك الضغط الكهربائى العالى لا تزيد فى الطول عن متر واحد.



وينتج عن البرق ضوء ساطع جدا يكاد يخطف الأبصار، ولو استمر البرق عدة دقائق ونظر إليه إنسان لخطف بصره حقا، ولكن شرارة البرق لا تستغرق إلا نحو ثانية واحدة، لذلك جاء التعبير القرآنى ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾، وكلمة (يكاد) تدل على أن الشيء قارب الفعل ولم يفعل. والجو فى طبقاته العليا مشحون بالكهرباء ويكتسبها من مصادر شتى، لذلك تكتسب السحب الشحن الكهربائية من الجو المحيط بها، وتولّد السحب الركامية نفسها المزيد من الكهرباء وكأنها مولد كهربائى كبير. وبالسحابة الركامية اضطرابات جوية عنيفة وعدم استقرار فجائى، كما أن فيها تباينا كبيرا فى درجات الحرارة، وفيها أيضا تتكون حبات البَرَد، وتلعب حبات البَرَد دورا كبيرا فى زيادة الشحن الكهربائية فى السحابة الركامية حتى تصل إلى قدر هائل من الكهرباء يؤدى إلى حدوث تفريغ كهربائى على شكل برق.

وبالآية لفتة علمية لم ينتبه إليها المفسرون قديما لأن فهمها يحتاج إلى فهم الفرق بين الضوء والنور، الأمر الذى لم يكتشف إلا حديثا جدا، فالضوء يصدر من مصدر مضيء بذاته كالشمس

والنار والمصباح والبرق، أما النور فهو الضوء ينعكس عن جسم غير مضيء، وإنما ينعكس عنه الضوء نورا، كما ينعكس ضوء الشمس عن القمر نورا، ونجد في الآية الكريمة التعبير العلمي الصحيح عن البرق كمصدر للضوء، فلم يقل (كلما أنار البرق لهم) وإنما قال ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم﴾ وكلمة (كلما) كلمة مركبة من (كل) و(ما) المصدرية الظرفية. (فكلما) أداة شرط تفيد التكرار، ومتعلقة بالجواب، ولا يأتي بعدها إلا فعل ماضي جوابه فعل ماضي أيضا. قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾ شرط لفعل متكرر بصيغة الماضي. وجاء جوابه بصيغة الماضي أيضا. لأن شرارات البرق تحدث متكررة، والبرق نفسه ظاهرة جوية متكررة.

ويصاحب البرق الذي يكاد يخطف الأبصار رعد يصم الأذان، ولو شاء الله تعالى لاستمر البرق وقتا أطول فخطف الأبصار ولاشتد الرعد قوة وعنفا فصم الآذان، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾، وهذه إشارة إلى سمع الكفار وأبصارهم التي لا يرون فيها إلا ظلمات الجهل والضلال.

وتصور الآية الكريمة أحوال الكفار تصويرا بلاغيا فريدا، فتصور مشاهد محسوسة لما هم فيه من حيرة وخوف وقلق، فبعد أن صورت الآية السابقة عليها مشهدا حافلا بالحركة السريعة المضطربة، المشوبة بعدم الاستقرار والخوف والفزع، تصور هذه الآية الكريمة مشهدا آخر للكفار والمنافقين فضرب بالبرق مثلا بخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم توقفوا وهم في خوف وحيرة، فالكفار إذا اطلعوا على نور الهداية الإسلامية، وضح لهم الطريق الصحيح ومشوا فيه منبهرين، وإذا رجعوا في كفرهم وضلالهم، رجعوا إلى الظلمات التي لا يقدرون فيها على الحركة، والتي لا يرون فيها شيئا.

وبذلك صورت الآية الكريمة أحوال الكفار غير المحسوسة إلى مشهد علمي واقع محسوس هو من آيات الله الكونية التي تشاهد للعيان.

الظلال:

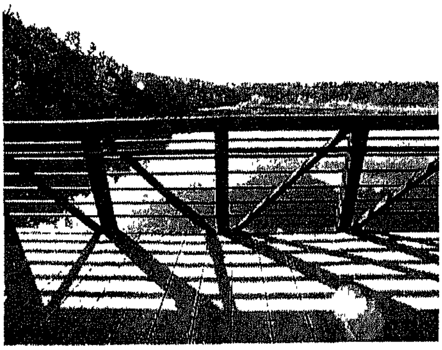
كل ما هو مصنوع من مادة معتمة يلقى ظلا إذا سقط عليه ضوء أو نور في اتجاه واحد وقد يكون الظل أطول أو أقصر، أو أعرض أو أضيق، ويمكن معرفة ذلك، لأن الدليل على الظل هو الشيء الذي يلقى الظل من ناحية، ومصدر الضوء من ناحية أخرى، فالشمس إذا سقطت على بنيان مرتفع مثلا، فإن ظلا يشاهد لذلك البنيان في الاتجاه المعاكس للشمس، فالدليل على وجود الظل هو مصدر الضوء الساقط على البنيان وهو الشمس، ولو كانت الشمس مرتفعة، فإن الظل يكون قصيرا، وإذا كانت الشمس منخفضة كما يحدث في أول النهار وآخره فإن الظل يكون طويلا. ولما كانت الأرض تدور حول نفسها أمام الشمس، فإن ظلال الأجسام التي على الأرض تطول ظلالها وتقصر، والدليل عليها ضوء الشمس الساقط

عليها، والدليل على طولها وقصرها حركة دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس، وقد يكون ذلك من بعض المعانى فى قول الله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴿٤٥﴾﴾ [الفرقان]، وجاء ذكر الظل فى قول الله، عز وجل: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً﴾ [النحل: ٨١]، أى جعل لكم أماكن تستظلون بها من حرارة الشمس. ولكن المعنى فى الآية أبعد من ذلك، فإن أشعة الشمس إذا كانت لا تدخل الظل مباشرة، فلماذا نرى المرئيات الموجودة فى الظل بوضوح تام، مع أن المرئيات لا تحس بها شبكية العين إلا بواسطة أشعة الضوء الصادرة من المرئيات إليها؟؛ ذلك لأن بالهواء جسيمات دقيقة من الغبار وجزيئات الغازات، وكل هذه تعمل على تشتيت أشعة ضوء الشمس، فيكون فى الأماكن المظللة نهارا جزءٌ من الضوء المشت، بواسطته تشاهد المرئيات فى الظل.

وجاء ذكر الظل في الجنة فى آيات كثيرة إشارة إلى أن الظل كناية عن الراحة والنعيم، لأن الظل على الحقيقة يمنع حر الشمس الذى يجهد الإنسان ويرهقه، فالظل إذن يكون كناية عن الراحة والنعيم. كما قال تعالى عن أصحاب الجنة:

﴿لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴿٥٧﴾﴾ [النساء].



وقال عن أصحاب الجنة أيضا: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس].

وقال عن أصحاب الجنة أيضا: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾ [المرسلات]

وقال عن أصحاب الجنة أيضا:

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان].

وقال أيضا عن الجنة: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾

[الرعد: ٣٥]

أكلها دائم لا ينقطع وظلها دائم أيضا، أى لا يتقلص ولا تنسخه شمس كما يحدث فى الظلال فى الدنيا.

والظل يكون كناية عن الراحة والاستقرار والنعيم تقرأ عن ذلك فى قصة النبى موسى عليه السلام وابنتى النبى شعيب قال الله عز وجل: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص]، أى انصرف إلى الظل طلبا للراحة بعد بذل جهد

عضلى، وطلبا للطمأنينة بعد بذل جهد نفسى كبير مع فرعون وجنوده فى مصر.

والظل له علاقة بحاسة الإبصار، الجانب المادى والجانب غير المادى منها، والذى هو النفس والعقل والروح، أو ما عبر عنه القرآن الكريم بالفؤاد.

انكسار الضوء:

هو انحراف أشعة الضوء عندما تمر من مادة شفافة إلى مادة شفافة أخرى مختلفة عنها فى الكثافة، فإذا وقف صياد مثلا على شاطئ نهر، وشاهد سمكة تسبح فى ماء النهر، فإن صورة السمكة فى الماء ستكون منحرفة قليلا عن موضع السمكة الحقيقى فى الماء، فإذا صوب الصياد حربة إلى السمكة فلن يصيبها، فالصياد يرى السمكة لأن الضوء المنعكس منها يدخل عينيه ويصل إلى شبكية العين، ولكى يصل الضوء إلى عينيه، فإنه يمر خلال مادتين شفافتين مختلفتين فى الكثافة هما الماء والهواء. فإذا صوب الصياد نظره وكان فوق السمكة مباشرة، فإن السمكة تبدو حيث هى فى مكانها، لأن الضوء الذى يصدر عنها يصل إلى عينى الصياد بلا انكسار، ولكن الصياد إذا وقف على شاطئ النهر، فإن أشعة الضوء التى تصدر عن جسم السمكة تسير فى مسار مائل، لذلك تنكسر، لذلك تبدو السمكة لعين الصياد فى مكان أعلى من مكانها الحقيقى.

وإذا وضعنا ملعقة فى كوب ممتلئ إلى نصفه بالماء، فإننا إذا نظرنا إلى الملعقة فى الكوب فإنها تبدو لنا وكأنها مكسورة عن سطح الماء، وما هى مكسورة، ولكن أشعة الضوء الصادرة منها حدث لها انكسار فى الماء.

ويبدو الجزء المغمور فى الماء من الملعقة أكبر حجما من الجزء غير المغمور منها، لأن الماء في الكوب المستدير صار كأنه عدسة محدبة تكبر المرئيات إذا نظر الإنسان لها.

والعدسات الزجاجية المستوية تعمل على انكسار الضوء، والعدسات المحدبة تكبر المرئيات والعدسات المقعرة تصغرها.

العدسات التي تساعدنا على الإبصار:

نستعملها فى النظارة الطبية والميكروسكوب العلمى والتلسكوب الفلكى.

فإذا كانت قوة إبصار العين ضعيفة، فإن النظارات الطبية تساعد على تقوية الإبصار. وبواسطة الميكروسكوب نرى الميكروبات وندرسها، ونشاهد الأجسام الدقيقة التى لا يمكن أن نراها بالعين المجردة، أما التلسكوب الفلكى فهو يساعدنا على مشاهدة صور الكواكب



والنجوم ودراستها، ولولاها ما تقدم علم الفلك، وما اكتشفنا من بعض أسرار الكواكب والنجوم شيئا.

الضوء وسلوك الإنسان:

لا تعمل حاسة الإبصار إلا بوجود الضوء الصادر من المرئيات والذى يصل إلى شبكية العين، فهناك اتصال وثيق بين الضوء والإبصار. وحديثا اكتشف العلماء أن للضوء تأثيرا كبيرا على سلوك الإنسان، وبالتالى فإن فى تعاقب الليل والنهار تأثيرا هاما على سلوك الإنسان وذلك عن طريق حاسة الإبصار فيه.

وتعتمد حياة الإنسان على ثلاثة عوامل هامة: الهواء. والماء. والشمس.

وإذا فقد عامل منها تتعذر الحياة وتصعب وقد لا تستمر، والشمس مصدر الضوء الأكبر على الأرض، وبالتالى فلها دور كبير فى تنظيم الحياة العملية للأفراد وسلوكياتهم فى حياتهم. فالضوء يجعل المرئيات واضحة أمام حاسة الإبصار، وذلك يضفى على الإنسان الحيوية والنشاط وقد يكون تأثيرها أكبر فى المخلوقات الأخرى.

ويقول العلماء أن للضوء آثارا نفسية وبدنية، وله تأثير على الإنتاج اليومى للإنسان. وأجريت العديد من التجارب لمعرفة مدى تأثير الضوء على إنتاج الفرد وعلى سلوك الإنسان تحت نسب مختلفة من فترة الإضاءة، فوجدوا أن إنتاج النساء يزداد عندما تكون نسبة الإضاءة عالية، وعللوا هذا بأنهن يشعرن أنهن مراقبات فى الضوء الساطع، وهذا يدفعهن إلى زيادة إنتاجهن. وقد تكون الزيادة فى الإنتاج بسبب الراحة النفسية أو زيادة الحيوية التى تشعر بها المرأة في الضوء الساطع، لأن المرأة بطبيعتها تحب تسليط الأضواء عليها.

وللضوء تأثير على الأفراد يختلف باختلاف الأعمار. وأثبتت دراسة قامت بها باحثة تدعى «جين واين» بأن الضوء الساطع أكثر تأثيرا على الأفراد فى سن الخامسة والعشرين من الأفراد فوق سن الأربعين.

ودلت دراسة أخرى قام بها «طوسون نيلسون» و«مارجريت جونسون» بجامعة «ألبرتا» أن الضوء الساطع إذا كان يزيد من إنتاج النساء، فإنه يقلل من إنتاج الشباب بسبب شعورهم بالضجر والضيق النفسى. أما الضوء الخافت مثل ضوء الشموع فإنه يضفى على المكان جوا من الشاعرية، وراحة الأعصاب، لذلك يتكلم الإنسان فى الضوء الخافت ليلا بصوت خافت، ولكنه قلما يتكلم همسا مع غيره فى مكان شديد الإضاءة.

ودلت الدراسات على وجود علاقة بين الضوء ومرض الاكتئاب النفسى، وقد يكون ذلك

لتأثير ضوء النهار على نشاط الغدد الصماء، وعلى خمولها أثناء الظلام. ودلت دراسات نفسية على أن فى بدء حلول الظلام ليلا يشعر الإنسان بنوع من الضيق النفسى، وعند بزوغ ضوء الفجر يشعر بارتياح نفسى، لذلك يستعمل الأطباء النفسيون الضوء الشديد فى الأماكن التى يكون فيها المصاب بالاكتئاب النفسى ووجدوا أن ذلك يريحهم نفسيا. وأشار باحث آخر يدعى «وانيال كريك»، بأن مرض الاكتئاب النفسى يزداد فى الشتاء نظرا لطول الليل فى الشتاء، وبالتالى طول فترة الضوء الخافت أو الظلام.

وكما أن شدة الإضاءة وخفوتها تؤثر على سلوك ونفسية الإنسان فكذلك الألوان لها تأثير واضح على نفسية الإنسان.

من كل ما سبق ندرك أن حاسة البصر فى الإنسان ليست منحصرة فى العين والشبكية والعصب البصرى ومنطقة الإبصار فى مؤخرة المخ فحسب، ولكنها متصلة اتصالا وثيقا بملكات أخرى فى الإنسان، غير مادية، لا تكتمل حاسة البصر إلا بها.

إذا اخترقت أشعة ضوء الشمس منشورا زجاجيا من زاوية معينة، نشاهد حزمة من ألوان الطيف السبعة، وهذه الألوان المتفرقة لو اجتمعت كونت ضوء الشمس. فضوء الشمس يتكون من ألوان مختلفة هى: البنفسجى والنيلى والأزرق والأخضر والأصفر والبرتقالى والأحمر. . واللون النيلى لا يظهر كلون متميز، فهو لون أزرق مشوب بحمرة. وهو بين اللونين البنفسجى والأزرق. وقد يكون مندمجا فيهما، ونرى هذه الألوان كظاهرة طبيعية فى السماء فى قوس قزح الطبيعى، عندما تسقط أشعة الشمس خلال قطرات الماء فى الهواء، ويشاهد اللون الأحمر فى قمة قوس قزح، إذا كان قريبا من الأرض، أما إذا كان مرتفعا عن سطح الأرض كثيرا فيكون اللون البنفسجى فى القمة.

والألوان لها الأهمية القصوى فى إظهار جمال المخلوقات للناظرين، نفهم ذلك إذا تخيلنا عالما بدون ألوان، إنه يكون عالما يفتقر إلى كل معانى الجمال، ولا تستمتع به الأنظار، لذلك خلق الله تعالى عين الإنسان، وفى الشبكية خلايا تستقبل الألوان، وتنقلها إلى مراكز حاسة الإبصار فى المخ.

سيكولوچية الألوان:

للألوان علاقة وثيقة بصحة الإنسان، ولها تأثير نفسى عليه وعلى مزاجه وتصرفاته، وتؤثر الألوان على مراكز المشاعر بالمخ، كما تؤثر على منطقة تحت المهاد البصرى، الأمر الذى يؤثر فى إفراز الهرمونات من الغدد الصماء فى الجسم. كما تؤثر الألوان على حاسة البصر تأثيرا مباشرا. ولقد درس العلماء تأثير الألوان على نفسية الإنسان، فقالوا إن اللون الأخضر يحدث استقرارا نفسيا. لذلك جعله الله تعالى فى الحقول والغابات والنباتات. إلا أن اللون الأخضر الداكن يحدث فى نفسية الإنسان نفورا، أما طلاء جدران الغرفة باللون الأحمر، فإنه يسبب التوتر العصبى والانفعال النفسى، وقال أحد علماء الفيزياء: إن الإضاءة باللون الأحمر تشعر الإنسان بثقل الزمن وطوله، والإضاءة باللون الأخضر والأزرق الفاتح تشعر الإنسان بسرعة مرور الزمن، كما أن الإنسان يشعر أن الأشياء إذا طليت بهذين اللونين تبدو أخف وزنا، ولو طليت باللون الأسود لبدت وكأنها أثقل وزنا.

أما اللون الأصفر فربما يبعث على الغثيان، ولذلك تتحاشى مصانع الطائرات والسفن استخدام اللون الأصفر فى طلاء الجدران الداخلية بها.

إلا أنه ينبغى أن ندرك أن اختيار الألوان، وتفضيل لون على لون آخر، ليس من المسائل الثابتة فى جميع الأزمان والظروف، وفى عصرنا هذا يفضل الرجال اللون الأزرق فى ملابسهم والبيئة المحيطة بهم، يليه اللون الأحمر، فالأخضر، فالبنفسجى، فالبرتقالى، ويأتى الأصفر فى آخر الألوان التى يفضلها الرجال. أما النساء فإن معظمهن يفضلن الألوان بنفس الترتيب السابق باستثناء اللون الأصفر فإنه يسبق اللون البرتقالى.

أما اللون الأزرق الفاتح، فيريح الأعصاب، ويعمل على استرخائها، يشعر بذلك الإنسان الذى يستلقى على شاطئ البحر ويطالع زرقة لون البحر. أما اللون الأزرق الداكن فيثير الرهبة فى النفس، ويشعر بذلك الإنسان الذى يطالع السماء فى الليل.

أما اللون الأسود، فيرمز إلى الحزن لدى بعض الشعوب، إلا أن بعضَ الشعوب يستخدم اللون الأبيض رمزا لأحزانهم، مثل الشعب الصينى. وذلك لاعتبارات خاصة ومفاهيم فلسفية خاصة بهم. ويسمى العلماء البحث فى تأثير الألوان على نفسية الإنسان، «سيكولوچية الألوان».

الألوان وجمال الخلق:

الذى يطالع السموات والأرض، يجد أن فطرة الخلق قد أسست على الكمال والجمال والبهاء، وأن الله تعالى أحسن كل شىء وجمّله.

كما قال تعالى:

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]

وقال تعالى:

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [غافر: ٦٤].

ويجد الإنسان لمسات من الجمال فى كل شىء فى الكون كله. وآيات من الرونق والبهاء، كلها تغذى حاسة الذوق الجمالى فى الإنسان، وربما فى غيره من المخلوقات الأخرى أيضا.

ولقد جعل الله تعالى لكل خلق من مخلوقاته لونا من الألوان، حتى يكمل جماله وحسنه، ولو لم يخلق الله تعالى الألوان، وجعل حاسة الإبصار تحس بها وتدركها، ما كان بالمخلوقات فى هذا الكون كل هذا الجمال الذى نراه، وكل هذا الإبداع والسحر الذى نحس به.

يقول: الله عز وجل: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل].

وما ذرأ لكم: أى وما خلق وسخر لكم فى الأرض من مخلوقات، ووصف ذلك بأنه آية، فاختلاف ألوان المخلوقات آية من آيات الله تعالى.

ويمن الله تعالى على عباده بجعل الألوان مختلفة فى كل ما خلق، حتى تكون الحياة أكثر متعة وأكثر جمالا. قال الله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر].

غرابيب سود: أى شديدة السواد. كررت الآية الكريمة القول: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾، ثلاث مرات صفة للثمرات، وصفة للجبال، وصفة للناس والدواب والأنعام. وتطوف بنا الآية الكريمة فى آيات الله تعالى فى كتابه المنظور الدالة على قدرة الله تعالى فى خلقه، وجمال فطرة خلقه، إشارة إلى أن الله تعالى ما خلق شيئا إلا وجمله فى عيون الناظرين؛ ذلك لأن الله تعالى جميل يحب الجمال؛ لذلك يتمتع الناس بما حولهم فى العالم الذى يعيشون فيه عن طريق حواس البصر.

وكما تختلف صور الجمال فى ألوان الثمار والجبال، فهى تختلف أيضا فى ألوان الناس والدواب والأنعام. ونظرا لأهمية الألوان فى المخلوقات، فقد رأى «داروين» أن ألوان المخلوقات هى أحد أسس الانتخاب الطبيعى، عندما لاحظ الأهمية الكبرى للألوان فى هذا الوجود. فالألوان تلعب دورا هاما فى عملية تكيف الحيوان مع بيئته. فنجد مثلا حيوانات الصحراء فى لون قريب من لون الرمال، وحشرات النباتات يغلب عليها اللون الأخضر، ولا شك أن العلماء يعرفون قدرة الله تعالى فى خلقه لذلك يخشونه، وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله فليس بعالم لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وجمال المخلوقات أمام الناظرين، مرتبط بالألوان ارتباطا وثيقا، والضوء لالون له. ولكنه إذا تفرق صار ألوانا، هى ألوان الطيف السبعة، وهى الجملة الكونية الأساسية التى تتكون منها سائر الألوان. وجعل الله تعالى من فطرة خلق كل مخلوق أن يمتص من كل ألوان الطيف إلا لونا معينا، فإنه يظهر به، بما يناسب جماله للناظرين، أما إذا امتص جميع الألوان فإنه يبدو أسود اللون، وإذا لم يمتص كل الألوان فإنه يبدو أبيض اللون.

ومن العجيب أن الغواصين الذين يصلون إلى قاع البحر، يجدون أنفسهم فى ظلام، ولكنهم بواسطة الأنوار الصناعية يشاهدون قاع البحر، فإذا هو لوحة جميلة من صور الجمال، فالنباتات البحرية بألوان مختلفة والمرجان بألوان شتى، وأسماك البحار تكون بألوان زاهية تسر الناظرين. وكل هذا الجمال لا يراه الإنسان، ولا يراه أحد من الخلق، فهو فى ظلام قاع البحر. على ماذا يدل ذلك؟ إنه يدل على أن الجمال فى المخلوقات لم يخلقه الله تعالى لنظر مخلوقاته فحسب، ولكن لأن الجمال في الخلق مقصود قصدا. فالجمال من فطرة الخلق التى فطر الله تعالى خلقه عليها، ونقرأ قول الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر].

فالله تعالى زين السماء بكل صنوف الزينة والجمال. وبيّن الهدف من ذلك قال: ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾، وقال تعالى أيضا:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق]

الألوان لغة الفطرة:

إن أى رسام يرسم لوحة، لا غنى له عن الألوان. فالألوان لغة تحدث الناظر إليها من الناس بالكثير من المعانى. وهى لغة يعرفها العلماء المتخصصون فى فن الرسم والزخرفة والتصوير. ولا شك أن الجمال الذى يضفيه الخالق تعالى على مخلوقاته ليس منحصرا فى الصورة فحسب، ولكنه جمال يتصل بجمال المخلوقات الأخرى جميعا، فيكمل بعضه بعضا، ويرتبط به ارتباطا وثيقا. وكأن الكون لوحة فنية جميلة تسر الناظرين إليها، وقد توزعت فيها الألوان بحيث ينسجم لون كل مخلوق مع ألوان المخلوقات الأخرى التى حوله، ويتناغم معها. فلا نشاهد لونا منها يتنافر مع لون آخر. إذن فجمال أى مخلوق ليس جمالا فى ذاته فحسب، بل هو جمال له أبعاد فى جمال المخلوقات الأخرى أيضا، وله صلات تربطه بها، ارتباطا كاملا ووثيقا.

ونضرب بالأزهار مثلا: إنها مختلفة الألوان، متنوعة الجمال، والجمال فى كل زهرة جمال ذاتى. إلا أنها فى الوقت نفسه تعطى رونقا بديعا لما حولها من أجزاء النبات، بحيث تكوّن الزهرة وما حولها، لوحة فنية جميلة. وفضلا عن كل ذلك، فجمال الزهرة مرتبط بوظيفتها وبوظائف المخلوقات الأخرى وسلوكها، فإذا كنا نرى فى زهرة ما منظرا جميلا ونشم منها رائحة جميلة، فإن النحلة تشاهد فى نفس الزهرة ألوانا أخرى، ومعانى أخرى من الجمال لا نحسها ولا نراها.

فالزهرة تؤدى وظيفتها من خلال جمال ألوانها ورائحتها، وذلك فى تلقيح النبات، وإكمال دورة حياته. فهناك إذن ارتباط وثيق بين الجمال فى الأزهار، وبين وظيفتها فى إخراج الثمرات.

من ذلك نفهم أن اختلاف الألوان آية من آيات الله فى خلقه، وليست مجرد منظر جميل فقط. كما قال الله عز وجل:

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل]

وكما أن الألوان فى الأزهار، تجذب الحشرات إليها، فتعمل على تلقيحها واستمرار دورة حياتها، فكذلك الألوان الجذابة فى الطيور والدواب جميعا، فى كلٍّ من الإناث والذكور، تجذب الجنس فيها إلى الجنس الآخر، فلم يكن إذن اختلاف الألوان فى المخلوقات عبثا، وإنما كان آية من آيات الله في خلقه.

وإذا نظرنا إلى الجمال التجريدى فى صور المخلوقات فى هذا الوجود، لوجدنا أن الألوان ضرورية لاكتمال جمال صور المخلوقات جميعا، ولو لم يخلق الله تعالى الألوان، ما كان فى

الكون كل هذا الجمال والجلال والبهاء. وإذا تخيلنا الوجود كله بدون ألوان، فإننا سنرى المخلوقات بلا ألوان. تبدو كئيبة المنظر تفتقر إلى كل أثر للجمال. وما يرى الإنسان شيئا جميلا، إلا قرن جماله بالألوان، فالجمال والألوان فى المخلوقات لا يفترقان. ونقرأ قول الله عز وجل:

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩]. فقرن جمال البقرة بجمال لونها ومسرة الناظرين إليها.

ويدلل الله ـ عز وجل ـ على جمال الأرض، بجمال ألوانها. كما قال الله، عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]. ولقد دخل رسول الله ﷺ الجنة ورأى جمالها، فربط جمال ما يرى بالألوان فقال لما سألوه عما رأى فى الجنة: «**فيها ألوان لا أدرى ما هى**».

وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال فى حديث له: «**أول زمرة تدخل الجنة على مثل صورة القمر ليلة البدر. والزمرة الثانية على لون أحسن من كوكب درى فى السماء**»، إلى آخر الحديث. وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود رضى الله عنه من حديث رسول الله ﷺ عن نعيم أهل الجنة قال: قال الأنصارى يا رسول الله ﷺ هل من ثمر فى الجنة؟ قال: «**نعم، ألوان الجوهر. وماؤها أشد بياضا من اللبن. وأحلى من العسل**» إلخ الحديث الشريف.

وروى الإمام أحمد والإمام الترمذى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الدنيا حلوة خضرة**»، فربط جمال الدنيا، باللون الأخضر.

وفى الجنة يلبس المؤمنون ملابس تبعث السرور فى نفوسهم. قال الله عز وجل:

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١]، فربط جمال الثياب بلونها.

واللون الأبيض أنسب ألوان الملابس فى فصل الصيف الحار لأنه يعكس ٤٥٪ من أشعة الشمس فلا تصل إلى الجسم. أما الألوان الداكنة، فتعكس ١٦٪ من أشعة الشمس فقط. فالملابس البيضاء أفضل لصحة الإنسان فى المناطق الحارة، ولما كانت الجزيرة العربية من المناطق الحارة، فقد نصح رسول الله ﷺ بلبس الملابس البيضاء. فقد روى الإمام الترمذى عن سَمُرَة بن جُندب أن رسول الله ﷺ قال: «**البسوا البياض فإنها أطهر وأطيب**».

عمى الألوان:

تميز العين الألوان بواسطة الخلايا المخروطية فى الشبكية، فإذا قلّت تلك الخلايا أو اختلت وظائفها، فإنها تفقد القدرة على تمييز الألوان أو بعض الألوان. وبعض الناس مصابون بعمى الألوان، وهذا يقلل كفاءة حاسة البصر لديهم، ويحرمهم من متعة النظر إلى الأشياء الملونة فى هذا العالم الذى يعيشون فيه.

وقد يكون عمى الألوان جزئيا.. فلا يرى الإنسان اللون الأحمر، ويراه بلون رمادى. أو لا يرى اللون الأخضر ويراه بلون رمادى أيضا، بينما يرى جميع الألوان الأخرى.. أو لا يرى لونين الأزرق والبنفسجي.. أو قد يكون عمى الألوان عمى كاملا، فلا يرى الألوان جميعا ويبدو العالم من حوله بلا ألوان.

إلا أن العين البشرية السليمة فى الناس جميعا لا ترى الأشعة فوق البنفسية ولا ترى الأشعة تحت الحمراء. إذن فوراء عمى بعض الناس للألوان أسرار علمية عجيبة، ووراء عدم إبصار العين البشرية لإشعاعات ضوئية أخرى، أسرار علمية عجيبة أخرى، ويصدق فيهم قول الله عز وجل:

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحاقة].

عمى الألوان في الدواب والطيور:

وإذا كان عمى الألوان فى الإنسان يضره ويحرمه من جزء من متع الدنيا، فإنه لا يضر الدواب والطيور بل قد يفيدها، فمعظم الدواب لديها عمى الألوان، إما عمى جزئى وإما عمى كامل، وبعض الطيور البحرية لديها عمى جزئى للون الأزرق. وهذا يساعدها على الحصول على رزقها، فهى تطير فوق سطح الماء، ويبدو الماء أمام نظرها شفافا لا لون له، لذلك ترى الأسماك واضحة في البحر، وهذا هو السر فى أن الطيور البحرية تنقض وهى فى الجو إلى عمق البحر، وتخرج وفى فمها سمكة تتغذى عليها، ففى عمى الألوان لدى تلك الطيور فوائد لها، وفيه للأسماك مصائب، وينطبق على ذلك المثل القائل (مصائب قوم عن قوم فوائد).

كيف نميز الألوان ونراها؟

تبطن الشبكية كرة العين من الداخل، وتركيب الشبكية بالغ الدقة والتعقيد، بالغ الإعجاز فى الخلق، والشبكية حساسة للضوء، وهى التى تستقبل صور المرئيات، وتحولها إلى مراكز الإبصار فى المخ عبر العصب البصرى، والشبكية مكونة من عشر طبقات على الأقل من الخلايا المختلفة فى الشكل والوظيفة، وأهم خلايا الشبكية هى الخلايا العصوية Rods. والخلايا المخروطية Cones، والخلايا العصوية تعمل على الرؤية فى الضوء العادى والخافت، وأما الخلايا المخروطية فتعمل على الرؤية فى الضوء الشديد وتميز الألوان.



وإذا دخل الإنسان مكانا مظلما فجأة بعد أن كان في ضياء، فإنه لا يرى من المكان المظلم شيئا. وشيئا فشيئا تتضح أمامه صور الأشياء التى أمامه فى المكان المظلم، وتوضيح الصور تدريجيا فى الظلام هو بواسطة الخلايا المخروطية، التى تزيد من قوة إبصار العين عشرات الأضعاف، إلا أن الخلايا العصوية هى المسئولة عن الرؤية الليلية، فتقوى قدرة الشبكية على تمييز المرئيات فى الضوء الخافت ليلا مئات الأضعاف.

ولكن ما الذى يقوى قدرة الخلايا العصوية على الرؤية الليلية مئات المرات؟ إنها مادة الـ Ro-dopsin الرودوبسين، وهى مادة بروتينية تتفكك فى وجود الضوء، إلى مادتين، أحدهما فيتامين A غير الفعال، أما أثناء الضوء الخافت فى الليل أو فى الأماكن المظلمة، فإن مادة الرودوبسين يعاد تركيبها من جديد، ويتحول فيتامن A إلى فيتامين فعال، فتحدث القدرة على الرؤية الليلية، ونذكر قول الله عز وجل:

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات]

وإذا نقصت كمية فيتامين A الفعال إلى درجة كبيرة، حدث ما يسمى بالعشى الليلى أو العمى.

وأجسام المرئيات فيها من أسرار الخلق ما لم يكتشف بعد، فبعض الأجسام تمتص كل الوان الطيف الشمسى، لذلك تبدو سوداء اللون، وإذا عكست كل الألوان بدت للعين بلون أبيض، وإذا امتصت كل الألوان ما عدا اللون الأخضر، بدت بلون أخضر، وإذا امتصت كل الألوان ما عدا اللون الأصفر، بدت بلون أصفر.. وهكذا بقية الألوان فى المخلوقات والمرئيات. وألوان الرسم والطلاء لها نفس الأسرار فى الخلق؛ منها ما يمتص جميع ألوان الضوء فيبدو طلاء أسود اللون، ومنها ما يمتص كل الألوان ما عدا اللون الأزرق فتراه طلاء أزرق اللون.. وهكذا كل الألوان.

وإذا تفكرنا فى الألوان فى الجنة نعلم أنها تختلف عن الألوان التى نعرفها فى الدنيا لأن الرسول ﷺ اطلع على الجنة.. ولما سألوه ماذا رأى قال «**فيها ألوان لا أدرى ما هى**»، وقال فى أحاديث أخرى، إن ماء أنهار الجنة أشد بياضا من اللبن، وهذه حقيقة فوق طاقة فهمنا، فنحن لا نعلم شيئا أشد بياضا من اللبن؛ لأن اللبن يعكس كل الوان الضوء، فيبدو أبيض اللون ناصعًا، فإذا كان الماء في الجنة أشد بياضا من اللبن، فإن ذلك يدل على أن الضوء فى الجنة مختلف عن الضوء الذى نعرفه فى الدنيا، **ولكن كيف**؟ يخرجنا من هذه الحيرة الحديث القدسى الشريف، قال رسول الله ﷺ عن الجنة يحكى عن ربه عز وجل: «**أعددت فيها لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**».

اختلاف رؤية الألوان في الحشرات عن الإنسان:

تتميز الزهور بألوانها الزاهية الجميلة، وبرائحتها الجذابة، ولما كانت الزهور تحتوى على الأعضاء الجنسية فى النبات، فإنها فى حاجة إلى

زيارة الحشرات لها لتعمل على تلقيحها، من هذا ندرك أن ألوان الزهور وروائحها، مصممة أساسا لجذب الحشرات، فهى تخاطب الحشرات بالدرجة الأولى، ثم تخاطب الإنسان وتعطيه صورة من صور الجمال فى هذا الوجود؛ ذلك أن الله تعالى جميل يحب الجمال. وتركيب الزهرة يتناسب تماما مع سلوك الحشرة التى تزورها، وتلعب ألوان أوراقها دورا هاما فى جذب الحشرات إلى الزهرة. ومن الجدير بالذكر أن الحشرات لا ترى ألوان الزهور بحاسة بصرها بالألوان التى نراها نحن بحاسة بصرنا، فالزهور التى نراها نحن بلون أبيض تراها الحشرات بلون أزرق مخضر، ولا ندرى أيهما يرى اللون الحقيقى للزهرة أهى حاسة البصر فى الحشرة، أم هى حاسة البصر فى الإنسان، أم أن الله عز وجل خلق حواس البصر فى مخلوقاته بحيث ترى حاسة البصر فى كل منها من الوجود حولها ما يسعدها ويبهجها. وهذه قدرة عجيبة فى فطرة خلق حواس البصر فى المخلوقات، لا يقدر عليها إلا الله تعالى الحكيم المبدع العظيم الذى قال:

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى].

وقدرة تمييز الألوان عند الطيور والحشرات، يجعل بعضها يعجب بألوان معينة وينجذب إليها، لذلك نجد بعض الطيور تقوم بعملية تلقيح نبات العايق الأحمر فى أمريكا، بينما يقوم النحل بتلقيح السلالات الزرقاء من نفس النبات فى بريطانيا، بالرغم من أن كلا من السلالتين له نفس الشكل ونفس تركيب الزهور، والفرق الوحيد بينهما هو اختلاف اللون.

ولما كانت حشرات النحل تقوم بالجانب الأكبر من عمليات تلقيح النباتات بمقارنتها ببقية الحشرات، فإننا نجد أنه من المناسب أن ندرس ظاهرة تمييز الألوان عند النحل.

النحل وتمييز الألوان:

فى سنة ١٧٩٣ نشر العالم كريستيان سبرنجل كتابا قال فيه: «إن تعدد الألوان فى الزهور هو من أجل الحشرات، وجذب اهتمامها لتقبل على الزهور، وتمتص الرحيق وتأخذ حبوب اللقاح، وهى إذ تفعل ذلك تسبب عملية تلقيح النباتات بانتقالها من زهرة إلى أخرى، دون أن تتعمد هى ذلك، ودون أن تشعر، إلا أنه اعتقد أن ألوان الأزهار تراها حاستا البصر فى كل من الإنسان والنحل بنفس اللون. ولم يخطر بباله قط أن حاسة البصر فى النحل ترى الألوان مختلفة عن رؤية حاسة بصر الإنسان لها».

وفى سنة ١٩١٢ نشر العالم الألمانى ڤون هس نتائج تجاربه العلمية التى أثبتت أن النحل لا يميز الألوان. وكتب قائلا: «إن التجارب العلمية التى أجراها سبرنجل كان ترتكز على أن زيارات النحل للزهور بسبب ألوانها، وأنها ترى ألوان الزهور كما تراها حاسة البصر فى الإنسان، ولكننا لا نستطيع أن نجزم بأن الألوان البديعة فى الزهرة التى تراها عين الإنسان، تراها أيضا عين الحشرة. إذ لا يمكن أن نتصور أن إدراك الألوان لدى الشجرات تماثل إدراك الإنسان لها».

والضـوء مكون من إشعـاعات مـرئيـة، أمواجهـا ذات أطوال مختلفة، تقـاس بأجزاء من البليـون من المتـر أى أنجسـتـروم (ج .ب م) فالإنسان يدرك الطيف من الأشعة الشمسية الواقع مـا بـين ٣٨٠ - ٧٨٠ (ج.ب م) ، ولا يدرك الإشعـاعات التى أطوال أمواجهـا ما بين ٣٠٠، ٣٨٠ (ج. ب م) والتى تسـمى الأشـعـة فـوق البنفسجية، والإشعـاعات التى أطوال أمواجها ما بين ٧٨٠، ١٢٠٠ (ج.ب م) والـتى تسـمى الأشـعة تحت الحـمـراء، ومن هذا يتـضح لنا أن حاسة بصر الإنسان لا تـرى الأشعة تحت الحمراء ولا الأشعة فوق البنفسجية.

ونأخـذ مثـلا زهرة نبات الخـشخـاش إننا نراها بلون أحمـر، فهل هى حمراء اللون حـقا، إن سطح أوراق تلك الزهرة تسـتطيع امـتصـاص اللون البنفسجى والأزرق والأخـضر والأصفر من ألوان الطيف، ولا تسـتـطيع امـتـصـاص اللون الأحمر فيرتد منها، لذلك يصل إلى حاسة بصرنا لون أحـمـر، فكل مـا نرى من ألوان للأشـيـاء المحـيطة بنـا، إن هى إلا تلك الألوان الـتى لم تمتص .

أمـا الألوان التى امتـصت فلا ترى. أمـا كيف يراها النحل فهذا كان موضوع بحث طويل قام به العالم الألمانى كارل ڤون فريش أستاذ علم الحـيوان بجـامعـة ميـونيخ ونال به جـائزة نوبل للعلوم سنة ١٩٧٣.

واستعمل «كارل ڤون فريش» فى تجاربه، الماء المحلى والعسل فى أوعية زجاجية، واستخدم ألوانا ملونة لقياس ردود فعل النحل تجاه الألوان، وبواسطة تجـارب عديدة استطاع ذلـك العالم أن يكتشف أن حـاسة البصر فـى النحل تستطيع أن تميز بعـض الألوان حتى تلك الألوان القـريبة من بعـضـهـا البـعض، مـثـل اللون الأزرق واللون الرمـادى، واكتشـف أيضا أن حاسـة البصـر فى النحل لا تستقبل الإشـعاعات ذات أطوال تتعدى ٦٥٠ ج.ب م، بينما تسـتقبل حاسة الـبصر فى الإنسان إشعـاعات تصل أطوالها إلى ٧٨٠، إلا أن حاسة البـصر فى النحل تستقبل الأشـعة فوق البنفسجية الموجودة ما بين ٣٠٠، ٣٨٠ ج. ب. م (والتى لا تسـتقـبلهـا حاسـة بصر الإنسـان)، ولاحظ ذلك العـالم أن النـحل يحط على أوراق زهرة الخشخاش الحمراء (كما نراها نحن)، ولا يمكن لـلنحل أن يراهـا بذلك اللـون، لأن اللون الأحـمر ذو أمـواج أطولها مـا بين ٦٥٠، ٧٥٠ ج.ب م، وهذه لا تستـقبلهـا حاسة البـصر فى النحل، لذلك لا تراها حـمراء، بل إن النحل لا يرى اللـون الأحـمـر أبدا، ولـكن أوراق زهرة الخـشـخاش تـعكس أيضـا الإشعـاعـات فـوق البنفـسجـيـة التى أطوالها مـا بين ٣٠٠، ٣٨٠ ج.ب.م (والتى لا تستـقبلهـا حاسة البـصر فى الإنسان) لـذلك ترى حاسـة البصر فـى الإنسان زهرة الخشخـاش بلون أحمر، بينما تـراها حاسة بصر النحل بلون بنفـسجى، إذن فحاسـة البصر فى كل من الإنـسـان والنحل ترى نـفس الشيء بلونين مـخـتلفين، ولا يمكن أن يـكون الشيء الواحد بلونين مختلـفين، إذن فلزهرة الخشخاش

لون واحد. ولكن ما هـو؟ هل هو الأحمر الذى يراه الإنسان، أم هو البنفسجى الذى يراه النحل؟ أم إن لزهرة الخشـخاش لونا آخـر. أم إن حواس البصر فى المخلوقات المختلفة قد فطرها الله تعالى على أن ترى مـنهـا الألـوان التى تروق لهـا؟، وألوان الزهور البيضاء تراها حـاسة بصر الإنسان بيضـاء ولكن حاسة بصـر النحل تراها ذات لون أزرق مـخـضر، واللون الأخـضـر لون العـشب وأوراق النباتات الخضـراء تحسه حاسـة البصر فى الإنسان بلون أخـضر، إلا أن حاسـة بصر النحل تراه بلون رمادى.

أما اللون الأصفر فتحـسه حاسة البصر فى كل من النحل والإنسان بنفس اللون، ولو ظهرت زهور صفراء اللون وسط حقل من الحقول لشاهد الإنسان الحقـل بلون أخضر وفيـه زهور صفراء. أما حـاسة البصر فى النحل، فـترى تلك الأزهار بقعا صفراء متناثرة على أرضية رمادية اللون.

والنحل يميز اللـون الأزرق كما تميزه حاسة بصـر الإنسان، ولكنهـا فى بصر الإنسـان تكون زرقـاء باهتـة. وعلى أية حـال فـإن الألوان فى الزهور لم توجد مـن أجل عيون الإنسـان فقط، وأما قبل كل شىء من أجل عيون الحشرات، لأن العـلاقة بين الحـشرات والزهور عـلاقة حـتمـية لضرورة استمرار حياة كل منهما، فسبحان الخالق المبدع العظيم. وسبحان الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى كما قال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى]، وسـبحـان من أحـسن كل شىء خـلقـه والذى قـال: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧].

الألوان في الجنة:

فى الجنة ألوان جميلة مخـتلفة أخبرنا الله تعالى عنها فى الوحى الإلهى في القرآن والسنة. منها الأبيض والأحمر والأخـضر وغير ذلك من الألوان. ولقد اطّلع رسـول الله ﷺ على الجنة، ورأى فيها ما رأى عيـانا ليلة المعراج فقد قال الله عز وجل فى سورة النجم:

﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾.

وسدرة المنتـهى ملكوت من ملكوتات الله تعـالى. وسؤال رسـول الله ﷺ: ما غـشيهـا يا رسول الله؟ قال: «**غشيها نور من الله عز وجل ما يستطيع أحد أن ينظر إليها**». ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾: أى لم يوجه بصـره إلى غيـر ما رأى، ولم يلتفت يمينا ولا شمالا.

ولقـد اطلع رسـول الله ﷺ عـلى الجنة ورآها. ولما سألوه ماذا رأى فى الجنة. قال: «**فيها ألوان لا أدرى ما هى**» إلخ الحديث الشريف.

اختلاف رؤية الناس في جمال المخلوقات:

الله تعالى خلق خلقه وجمّله، فكان خلق الله تعالى جميلا، ذلك لأن الله تعالى جميل يحب الجمال. وجمال المخلوقات يسر الناظرين إليه. ولما كان الجمال يشمل كل المخلوقات فى هذا الكون، فإن الجمال صار علما من العلوم، وكل علم له جانب إلهى وجانب بشرى. والجانب الإلهى فى علم الجمال جمال مطلق، وحق مطلق، يتصف بالكمال والشمول، وتتجمع فيه كل صفات الجمال لا تتفرق أبدا. أما الجانب البشرى فى علم الجمال فشأنه شأن أى علم آخر من علوم البشر، يصل إلى بعض الحقائق ولا يصل إلى الحقائق كلها، لأن عقل الإنسان يبحث فى الجزئيات ولا يحيط علما بالكليات، لذلك يعبر عما يصل إليه من حقائق العلم تعبيرا جزئيا، وفى فهم وإدراك يختلف من إنسان إلى إنسان. وحتى نفهم ذلك نأخذ مثلا حديقة جميلة، فيها الكثير من النباتات الجميلة، يدخلها الناس: الطبيب والرسام والشاعر والمصور السينمائى وعالم النبات، وغيرهم كثير، فيعجب كل منهم بالصور التى تراها عيناه وتسره، إلا أن كلا منهم يسر بجانب معين مختلف عن الجوانب الأخرى التى تسر غيره من الناظرين.

فالطبيب مثلا يرى صور الجمال فى أشعة الشمس الساقطة بين الأشجار مما يفيد صحة الجسم، أما الشاعر فيتغنى بجمال النباتات وروعة زهورها وعطرها الأخاذ وتغريد الطيور فوق الأغصان. أما الرسام فيعجب بجمال مناظر وتناسق الألوان، وتوزيع الظلال وخلفياتها وما يحيط بها من أشياء. أما عالم النبات: فيرى جمال الحديقة فى صحة النباتات فيها، واختلاف أنواعها وأجناسها، وفى إبداع خلق ثمارها وأوراقها. أما عالم البيئة فيرى جمال الأشجار فى أهميتها لصحته البيئة وفوائدها فى تنقية الجو من غار ثانى أكسيد الكربون، وضخ غار الأكسجين فيه.

فكل واحد من البشر يشاهد بحاسة البصر فيه، من جمال الخلق جانبا، وإذا تحدث عنه فإنه يتحدث عن جزء من هذه الجوانب.

إذن فالجانب البشرى لا يصل إلا إلى بعض صفات الجمال فقط، ولا يعبر بالتالى عن جمال الخلق إلا تعبيرا جزئيا وفى قول مختلف.

وإذا تفكرنا فى حاسة البصر، فإننا ندرك أنها ليست العين والعصب البصرى ومراكز الإحساس بالبصر فى المخ فقط، وإنما لها اتصال بملكات أخرى للإنسان غير مادية؛ هى النفس

والعقل والإدراك والروح. ولعل باقى حواس الإنسان لها نفس الامتداد المادى وغير المادى فى الإنسان.

من هنا نفهم أن إدراك الجمال يختلف من إنسان لإنسان، فليس الجمال فى جمال المرئيات فحسب، ولكن فى فوائدها للإنسان، وفى تلبيتها لحاجة النفس البشرية وسعادتها.

آراء الفلاسفة فى علم الجمال: هم لم يدركوا المعانى الحقيقية فى جمال هذا الموجود الذى أبدعه الله عز وجل، ولم يستطيعوا أن يتبينوا الفرق الكبير بينه وبين الجمال الذى يظهر فى أعمال الإنسان كالرسم والزخرفة والبناء وغير ذلك من صور الجمال التي تصنعها يد الإنسان.

أما الجانب الإلهى فى علم الجمال: فهو حق مطلق يجمع الحقائق كلها. وصفات الجمال جميعا فى ترابط كامل ، وحضور دائم، وفى عطاء متجدد، ملبيا احتياجات البشر من الجمال على اختلاف مستوياتهم الفكرية فى كل عصر من العصور.

إن الذى ينظر إلى ما أمامه فى هذه الأرض، ويتفكر فيما يرى، فإنه يرى فى كل شيء أمامه زينة رائعة وجمالا، ورونقا مبدعا وبهاء. وإذا تحدث الإنسان عما يشاهد من صور الجمال فإنه يتحدث عن بعض جوانبها فقط، أما عندما يذكر الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى جمال الأرض وزينتها، فإنه يربط كل المعانى الجمالية، بكل أبعادها الأخرى فى جمال الوجود كله وجمال المخلوقات جميعا. قال الله عز وجل:

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس].

فعندما يبلغ الجمال والزينة غايتهما، وعندما يظن الناس أنهم قادرون على أن يفعلوا ما يشاءون بعلمهم وقدرتهم ولا سلطان لأحد عليهم، أتاها أمر الله عز وجل ليلا أو نهارا فينتهى كل ما على الأرض ويزول.

وإذا عبر الإنسان - أىُّ إنسان - عن جمال الأرض وما فيها من زينة، فإنه يعبر عنها تعبيرا جزئيا، وفى وصف ناقص، وفى قول مختلف. أما الآية الكريمة، فقد عبرت عن جمال الأرض وزينتها وبينت أفعال الإنسان المتعلقة بزخرف الأرض وصور الزينة والجمال فيها، وجمعت كل هذه الحقائق فى هداية دينية جامعة هى لخير الإنسان فى الدنيا والآخرة.

وفى التعبير عن جمال المخلوقات: نأخذ مثلا جمال خلق الحيوان، ولو وصفه أى إنسان لوصفه فى قول ناقص وفى تعبير يختلف من إنسان لإنسان. أما التعبير القرآنى فهو تعبير شامل كامل ومترابط، ففى الحديث عن بعض أنواع الحيوان قال الله عز وجل:

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ

تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [النحل].

نجد الآيات الكريمة قد عبرت عن جمال الأنعام تعبيرا كاملا لا نقص فيه ولا قصور، فبينت أن الجمال إذا كان فى الصورة والهيئة فإنه يكون فى تركيب الخلقة كذلك، وفى نفس الوقت يكون فى الأفعال والصفات والفوائد أيضا.

فجمال الصورة: تراها العيون وتدركها الأبصار وتسر بها الأنفس والقلوب.

وجمال الأفعال: يكمن فى ملاءمتها لمصالح الخلق ومنافع البشر، فالآية الكريمة بدأت بالصفات الجمالية فى الصورة والهيئة، وقرنت كل ذلك بالهدف العملى فى فائدة الإنسان منها، وبذلك جاء التعبير القرآنى عن معنى الجمال تعبيرا كاملا وصحيحا.

وربطت الآية الكريمة كل صور الجمال فى خلق الأنعام، بالسبب الأصيل فيها، والإبداع الإلهى الذى أبدعها والحقيقة الكبرى ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]. وسكتت الآية عن ذكر صور الجمال في تركيب الخلقة فى الخيل وفى جمال ألوانها، ولكن الحديث النبوى الشريف ذكرها. فقد روى أبو داود أن رسول الله ﷺ قال:

«عليكم بكل كُميت أغرّ محجل، أو أشقر أغرّ محجل، أو أدهم أغرّ محجل».

الكميت: أسود فى لونه حمرة. **أدهم:** أسود. **أغر** : فى جبهته بياض.

محجل: فى ثلاث من قوائمه بياض.

وهكذا ذكر الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى كل صفات الجمال فى الخيل، جملة وتفصيلا. وعبر عنها فى تعبير كامل، وفى قول مكتمل.

الجمال الذي لا تراه العيون:

علمنا رسول الله ﷺ حقيقة الجمال فى هذا الوجود فقال: «**إن الله جميل يحب الجمال**». فالجمال يكون صفة ويكون سلوكا، ويكون وصفا ويكون عملا، ويكون ظاهرا ويكون باطنا. والجمال الباطن جمال لا تراه العيون وهو جمال النفس، جمال القلب.

ولابد أن يقترن الجمال الظاهر بالجمال الباطن حتى يكون الجمال كاملا، أما إذا كان الجمال الظاهر موجودا بدون الجمال الباطن، أو كان الجمال الباطن موجودا بدون الجمال الظاهر، فإن الجمال يكون ناقصا، وأقرب إلى القبح منه إلى الجمال. روى ابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك**». فأى صفة من صفات الجمال الظاهر غير مؤسسة على الدين لا تكون جمالا وإنما تكون قبحا. وفى هذا المجال أيضا روى ابن ماجه عن ابن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تزوجوا النساء لحسنهن،**

فـعسى حـسنهـن أن يرديهن، ولا تزوجـوهن لأمـوالهن، فعسى أموالـهن أن يطغيـهن. ولكن تزوجـوهن علـى الدين، ولأمـة سـوداء ذات دين أفضل».

فالإنسـان لا يرى بحاسة بصـره كل صور الجمـال، وإنما يرى جزءا يسـيرا منه فـقط، وقد يكون الجمال الذى لا يراه أكثـر روعة وأوفر بهاء وأعظم جلالا.

والإسـلام يضع الجـمـال فى مـوضـعـه الصـحيح، ويبـين أبعاده وحـدوده. ولاشك أن جمال خلق الإنسان فى الجنة، أكـثر بهاء وجلالا من جمـال خلق الإنسـان فى الدنيا. فـقد روى مسلم فى صحـيحه، عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ تحدث عن الجنة فقال: **«إن لأهل الجنة سوقا يأتونها كل جمعـة، فيها كثبان المسك، فإذا خـرجوا إليهـا، هبت الريح، فتمـلأ وجوههم وثيابهم وبيوتهم مسكا، فيزدادون حسنا وجمالا. فيأتون أهليـهم فيقولون: لقـد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا. فـيقـولون لهم: وأنتم قد ازددتم بعـدنا حسنا وجمالا»**.

إن الناس عندما يدرسون الجمال، يحولونه إلى قواعد نظرية، تهتم بـبـعض جوانب الجمال، وتهمل بعض جوانبه الأخرى، وقد يهتم بعضهم بالجـانب الشكلى، وينسى المعـانى الجـمـيلة فى جوهر الأشياء. وقد يهتم بعضهم الآخر بالجانب الكمى، مثل انسـجام النسب، وترتيب أجـزائها وينسى مثلا الجـانب العملى فى سلوك الإنسان. وقد يهـتم بعضـهم بالجانب الـنفعى من الجـمال وينسى مثلا الجانب الأخلاقى وهكذا.

ففهم الإنـسان ورؤيته للجمـال بحواسه، فهم ناقص دائما، وأهم جوانب الجمال لا يراها. وإذا أراد أن يتفهم الجمال الحقيقى فلابد أن يعود إلى القـرآن والسنة، وإلى إبداع الله تعـالى فى السنن الكونية، حينئذ سيشاهد جـمالا حقيقيا لم يكن يفهمه، وسـيرى جلالا وبهاء لم يكن يراه، وسيبصر ببصره وببصيرته، نورا على نور.

التركيب التشريحي للعين:

لا يوجد اختلاف كبير فى نظام خلق العين فى المخلوقات الفقارية جميعا (الإنسان والثدييات والطيور والأسمـاك والبرمائيات)، كـما لا يوجد أى اختلاف كبير فى وظـيفة حاسة الإبصار، ولا فى الصفـات التشريحـية لأجزاء العين المخـتلفة، ولا فى وظائف تلك الأجزاء، ولكنها تختلف فى تطور وظائفـهـا. فى العـدسـة البلّورية، وشكل إنســان العين، ونوع وعدد الخـلايا البصـرية التى تستقـر فى الشبكية، فى مؤخـرة كرة العين، من عصيـات أو مخروطات. والعصـيات هى الخلايا البصـرية الحسـاسة للرؤية الليليـة، أو الرؤية فى الظلام. أما الخلايا المخروطية فهى الخلايا البصرية الحساسة للرؤية النهارية أو الرؤية فى الضوء.

وكـذلك الأمر فى جـفن العين والأهداب والغدد الدمعية والعـضلات المحركة للعين وموقع العين فى الرأس، كل هذه الاختـلافات تبع لنوع الحياة التى يحـياها المخلوق والظروف التى تمر به والبيئة المحطية به، إن كان فى صحراء أو فى غابة أو كـان طائرا فى الجو أو كـان سابحـا فى الماء، ونأخذ مثلا على تلك الاخـتلافات فى الصفات، عين القط.

إنسان العين:

من المعروف أن عيون الفقاريات تشبهها آلة التـصوير، وربما توصل الإنـسان إلى صناعـة آلة التصوير بعـد معرفته لنظـام خلق العين، فالضوء الصادر من المرئيات يدخل من فـتحة إنسان العين وتنكسر أشعة الضوء فى العـدسة، فتركز الضوء الصـادر من المـرئيـات فى بؤرة على الشـبكيـة الحسـاسة للضوء، ولكـن آلات التصوير تحـتوى على عدد من العدسـات يتغير البعد بين بعـضها البعض حسب بعد الشىء المرئى أو قربه، كما أن فـتحـة إنسان العين تتـغيـر هى الأخرى ضـيـقـا واتساعا، تبـعا لشدة الإضاءة أو ضعفـها، فهذه الفتحة تضيق إذا استـقبلت ضوءًا شديدا، وتتسع فى الضوء الخـافت أو فى الظلام. ففتحـة إنسان العين تنظم مرور أشعة الضوء التى تدخل العين. ولماذا يضيـق إنسان العين فى الضـوء القوى؟ إنه يضيق حتـى يمنع الأشعة المشتتـة المؤذية الوهاجة من دخول العين. ولماذا يتسع فى الضوء الخافت؟ ذلك لتدخل خـلال إنسان العين أكـبر كمـية من الأشـعة الضـوئيـة تكفى لإثارة خلايـا الشبكيـة للإحساس بالضوء، ولرؤية الأشـياء بدقة عالية. كما أن إنسان العين يتسع عند الفزع أو الغضب،

ليدخل أكثر عدد من الحزم الضوئية من الجسم المرئى، فتسهل رؤية الأشياء وتكون أكثر حدة ووضوحا.

ومن الواضح من كل ما سبق، أن العين كباقى أعضاء الجسم تكون فى قمة نشاطها فى حالات التحفز، أما فى حالة الهدوء والاطمئنان، فإن فتحة إنسان العين تعود إلى طبيعتها.

عين القط: إن إنسان العين فى القط له نفس الأوصاف السابقة، إلا أن لعين القط ميزة ليلية، وهى ظاهرة التألق الليلى، فعين القط تشع فى الظلام إذا تعرضت لضوء ساطع وتتألق بلون أصفر مخضر، وتفسير ذلك أن تحت شبكية عين القط طبقة من الخلايا، تحتوى تركيزا عاليا من مادة الريبوفلافين. وهذه المادة تمتص الأشعة الضوئية ذات الأطوال القصيرة ٤٤٥، ٣٧٢، ٢٦٩، ٢٢٥ الجستروم (ج.ب م) فهى قادرة على التألق إذا تعرضت للأشعة فوق البنفسجية ذات الأطوال ١٧٠، ٣٩٠ أنجستروم، فبعد تعرضها لتلك الأشعة، تتهيج جزيئات الريبوفلافين وتختزن قدرا كافيا من أشعة الضوء التى تطلقها عند عودتها لحالة الاتزان، فتعمل كمرآة عاكسة تطلق عبر العصيات بعض أو كل ما امتصته من أشعة الضوء فيتمكن الحيوان من الرؤية الدقيقة الواضحة فى الظلام.

أما عين الإنسان: فهى نهارية ليلية، لأن شبكة العين تحتوي على نوعين من الخلايا الحساسة، العصيات Rods التى ترى في الظلام، والمخروطات Cones التى ترى فى الضوء الساطع، وهى التى تميز الألوان أيضا، فالمصابون بالعشى الليلى تكون العصيات ضامرة فى الشبكية، والمصابون بعمى الألوان تكون المخروطات ضامرة فى شبكية العين.

وقد اكتشف العلماء أن معظم الفقاريات مصابة بعمى جزئى للألوان، فلا ترى كل الألوان، لأن الشبكية لا تحتوى على مخروطات كافية لرؤية جميع الألوان، فالثور مثلا، يظن الناس أن اللون الأحمر يثيره فى حلبة مصارعة الثيران، والحقيقة أن عينه لا تميز اللون الأحمر، ولا تراه، فهى مصابة بعمى الألوان، ولكن ثار بسبب تلويح المصارع لها بالرداء الذى يحمله، وكان يمكن إثارتها بالتلويح بأى شىء آخر. وما يحمل المصارع رداء أحمر يلوح به للثور، إلا ليثير الجمهور من المشاهدين، الذين يربطون بين لون الرداء الذى فى يد المصارع، وبين دم الثور الذى سيسيل غزيرا فى نهاية المصارعة.

ونذكر قول الله عز وجل:

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١].

حاسة البصر والحواس الأخرى في الفضاء الكوني:

جاء ذكر حواس الإنسان في السماء العليا (الفضاء الكونى)، فى معرض الحديث عن عناد الكفار وعدم استعدادهم مطلقا لقبول الحق وتصديقه، مهما رأوا من الآيات، ومهما ساق الله تعالى لهم من الأدلة، وذلك فى قول الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر].

قال المفسرون رحمهم الله فى تفسير هذه الآيات الكريمة: لقد أرسلنا فى الأمم السابقة رسلا يدعونهم إلى الإيمان بالله تعالى. فما قابلوهم إلا بالاستهزاء بهم، وبما جاءوا به من الكتب الإلهية، فلست أيها النبى بدعا من الرسل. **والشيع** جميع شيعة. وهى الفرقة المتفقة على طريقة أو مذهب، وذلك من شاعه أى اتبعه. ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى كما سلكنا كتب الرسل السابقين فى قلوب أولئك المستهزئين، غير مقبولة منهم، كذلك نسلك القرآن الذى أنزلناه عليك فى قلوب المجرمين - كفار أهل مكة - مستهزءا به، غير مقبول منهم، لأنهم أهل كفر لا يقبلون الحق. **والسَّلْك**: مصدر سَلَكَ وهو إدخال الشىء فى الشىء كإدخال الخيط فى الإبرة، وأسلكته أى أدخلته ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾، أى سنة الله فيهم وهو الإهلاك والتعذيب، والآية وعيد لأهل الكفر فى مكة. ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾:

أى لو فتحنا على الكفار بابا من السماء فظلوا يصعدون فى السماء ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾، وذلك لفرط عنادهم وتصميمهم على إنكار الحق، ولفسروا كل ما يرونه فى السماء بأنه بتأثير سحر محمد. ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾، الواو واو العطف (لو) امتناعية شرطية أو حرف امتناع الشرط لامتناع الجواب، فلن يحدث أن يفتح الله تعالى عليهم بابا من السماء ولكنه ذكر ذلك لبيان شدة عنادهم وإنكارهم للحق ولو شاهدوه بأعينهم.

وفى عصر العلم الحالى: اكتشف العلماء فى الفضاء الكونى أسرارا علمية مدهشة.. وهى

أن الفضاء الكونى فى ظلمة تامة.. ولا يوجد فيه هواء، ولا توجد فيه قوى جاذبية. وبالتالى فالإنسان الذى يصل إلى الفضاء الكونى يفتح عينيه فلا يرى فى الظلام شيئا إلا النجوم بألوانها الحمراء فى سماء مظلمة، كما قال الله تعالى عن السماء ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ [النازعات: ٢٩] أى جعل السماء فى ليل دائم وفى ظلمة حالكة، ولو تكلم إنسان فى الفضاء الكونى فلا يسمعه، لأن الأصوات لا تنتقل إلا بوجود الهواء، فحيث لا هواء، لا ينتقل صوت، فيرى الإنسان صاحبه يحرك لسانه وشفتيه - وهو بجواره - لا يسمع له كلاما، والإنسان فى الفضاء الكونى لا وزن له فهو فى حالة انعدام وزن، فهو إذن لا يبصر بعينيه ولا يسمع بأذنية ولا يحس لنفسه وزنا ولا يستقر، له قرار. فيظن الجاهل أنه مسحور، أو مسه سحر، ويعلم العالم أن ذلك من أسرار الله الكونية التى خلقها الله عز وجل عن علم وحكمة وإبداع.

والذى يتحرك فى السماء لا يمكن أن يتحرك فى خط مستقيم أبدا؛ ذلك لأن قوى جاذبية الكواكب والنجوم تؤثر على حركته، فتراه يتحرك فى الكون فى خط متعرج فذلك قوله تعالى:

﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

والآيات الكريمة تصور ما تستقبله حواس الإنسان فى الفضاء الكونى، وكيف تتعطل وظائفها هناك؛ لأن الله تعالى ما خلقها فى الإنسان إلا ليعيش على الأرض وليس فى الفضاء الكونى.

والآيات الكريمة تصور عناد الكفار تصويرا فنيا، وقد سلك الله تعالى القرآن فى قلوبهم كما سلكه فى قلوب المؤمنين، فكفر به الكفار، وآمن به المؤمنون، فكل منهم على علم وبينة، فلا يكون للكفار حجة على الله بأنهم ما فهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن من الناس، وبين لهم القرآن الكريم على سبيل التصوير والتمثيل، بأنه لو أوضح لهم الحق بالمعاينة والمشاهدة ما ردوا ذلك إلى قدرة الله تعالى وإنما ردوه إلى أنهم سحروا، فلو فتح الله عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون، وتعطلت أعمال حواسهم هناك لما ردوا ذلك إلى الحق ولقالوا ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾، (إنما) تفيد الحصر فى المذكور آخرا فيكون الحصر فى الإبصار لا فى التسكير، فكانهم قالوا: سكوت أبصارنا لا عقولنا، ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ (بل) تفيد الإضراب عما سبق، وكأنهم أضربوا عن الحصر فى الإبصار وقالوا بل إن الأمر جاوز الأبصار الحواس إلى عقولنا بسحر صنعه محمد.

إن هذه الآيات الكريمة تتحدث عن حقائق علمية هى من سنن الله الكونية فى الفضاء الكونى لم يكتشفها العلماء إلا فى عصر العلم الحالى فقط، دلالة على أن الذى خلق الفضاء الكونى وما به من أسرار فى الخلق، هو الذى أنزل هذا القرآن الكريم على عبده ورسوله وليس هناك احتمال علمى آخر.



هل يبصر الإنسان فى حياته الدنيا كل شىء أمامه؟

لا، إنه لا يبصر إلا أقل القليل مما يتناسب والمهمة التى خلق من أجلها فى الدنيا، أما أكثر الكثير من الأشياء فى هذا الوجود، والتى أمام بصر الإنسان، فلا يبصرها، إما لصغر حجمها، وإما لخروجها عن مجال بصره، وإما لبعدها السحيق عنه. وعن ذلك يقول الله عز وجل:

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحاقة].

وفهم المفسرون قديما من الآية الكريمة أن الإنسان يبصر كل شىء أمامه إلا الجن والملائكة فلا يبصرهم.

وجاء لنا التقدم العلمى فى عصر العلم الحالى بمزيد من الفهم للآية الكريمة، فحاسة بصر الإنسان لها حدود لا تتعداها. فالإنسان لا يبصر البكتريا بعينه المجردة؛ وذلك لصغر حجمها جدا، ولكنه يستطيع أن يبصرها بالاستعانة بالميكروسكوب. وهو لا يستطيع أن يبصر الفيروسات لدقة حجمها، حتى إن الميكروسكوب العلمى العادى لا يعين الدارس على أن يبصرها، ولكن العلماء فى عصر العلم الحالى اخترعوا الميكروسكوب الإلكترونى الذى يكبر الصورة آلاف المرات، فهو أقوى مما يكبر الميكروسكوب العادى بكثير، وبه استطاع العلماء أن يبصروا الفيروسات. ولكن الميكروسكوب الإليكترونى مع قوة تكبيره للأشياء لا يعين الدارس على أن يبصر الذرة، لأن الذرة صغيرة للغاية. فلا يزيد قطرها عن ١/ ١٠ مليون من المللى متر. والجزيئات والذرات يتكون منها كل خلق فى الوجود كله، تدخل فى قوله تعالى: ﴿وَمَا لا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحاقة]، فالذرات هى لبنات

خلق كل مخلوق حى أو جماد، فهى أساس الخلق، ونحن لا نبصر منها شيئا، وقد يقال إن العلماء فى المستقبل قد يخترعون آلات بصرية ترى بواسطتها الجزيئات والذرات، وهذا من الخيال العلمى، ومع افتراض تحقيق ذلك، فإن الآية الكريمة ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحاقة]، قائمة كحقيقة مطلقة، تعلمنا أن بالكون أشياء مادية لا نبصرها، بل ويستحيل علينا أن نبصرها، مهما اخترعنا من آلات بصرية ومناظير.

فكيف يكون ذلك؟ إن بالسماء أجراما ننظر إليها ونعتقد أننا نبصرها، ولكننا فى الحقيقة ننظرها ولكن لا نبصرها ولا نشاهدها، ونطالع من خلال التلسكوب الفلكى نجوما تتلألأ فى السماء ونعتقد أننا نشاهدها، ولكن العلم يقول لنا إننا لا نشاهدها ولا نبصر منها شيئا، ولكن كيف لا نشاهد النجوم فى السماء، ونحن ننظرها بأعيننا ونراها تتلألأ فى السماء فوقنا، نعم، إنا فى الحقيقة لا نشاهدها، ولكن كيف؟ وما حل هذا اللغز العلمى؟

ندرك الحل إذا فهمنا جيدا ما هو **علم الشهادة**. كثير من العلماء لا يعرفون ما هو علم الشهادة، ويظنونه علم كل ما نشاهد فى الكون. وليس هذا هو علم الشهادة، إنما علم الشهادة **هوالعلم بالشيء المشاهد حال النظر إليه**. بمعنى أن أشاهد الحال التى هو عليها وقت إلقاء نظرى عليه. فأنا عندى علم الشهادة بما فى القاعة التى أمامى، ومن فيها، لأننى أشاهد الحال التى هم عليها حال نظرى الآن إليهم. وعندى علم الشهادة بما فى الطريق، لاننى أشاهد المارة والسيارات، والحال التى هم عليها فى الطريق، وقت إلقاء نظرى عليهم.

أما فى مشاهدة النجوم والكواكب والشمس والقمر، فالأمر يختلف تماما، فليس عندى علم الشهادة لها، وهى ليست عالم الشهادة بالنسبة لى، بمعنى أنه يستحيل علىّ أن أشاهد الحال التى هى عليها حال نظرى الآن إليها. وهذا المستوى من العلم الصحيح يقودنا إلى بحث العلاقة بين الزمن والبصر. وهذا موضوع يطول الحديث فيه، إلا أننا يمكن أن نوجز ذلك إيجازا شديدا، ولكنه إيجاز لا يخل بالمعنى المطلوب فهمه. إن الأشياء والمرئيات جميعا بشتى أنواعها، تصدر عنها أشعة ضوء تحمل صورها إلى عيوننا فنراها، ولا يمكننا أن نرى المرئيات إلا إذا وصلت أشعة الضوء الصادرة منها إلى عيوننا، أو بالأحرى شبكية العين السليمة. وإذا أغمضنا عيوننا فإننا لا نرى شيئا، لأن الجفون المقفلة تحول دون وصول أشعة المرئيات إلى شبكية العين.

وفوتونات الضوء تجرى بسرعة معينة يقول العلماء إنها نحو ٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر فى الثانية الواحدة أى ثمانية عشر مليونا من الكيلومترات فى الدقيقة الواحدة، أو ألف مليون كيلو متر

تقريبا فى الساعة الواحدة. فإذا كان كوكب من الكواكب يبعد عن كوكب الأرض ألف مليون كيلو متر، فإننا نشاهد - ونحن على الأرض - صورته بعد ساعة كاملة من صدورها منه، بمعنى أننا نشاهد - إذا نظرنا إليه الآن - الصورة التى كان عليها منذ ساعة من الزمن مضت، فإذا كان الكوكب الذى ننظر إليه فى التلسكوب بعيدا جدا مثل كوكب بلوتو، فإننا نرى صورته التى كان عليها منذ خمس ساعات مضت، أما صورته حال نظرى إليه، والحال التى هو عليها وقت إلقاء نظرى عليه خلال التلسكوب، فيستحيل عليّ مشاهدته الآن، ولكننى سوف أراها مستقبلا عندما تصل الأشعة الصادرة منها إلى عينى، بعد خمس ساعات مستقبلا.

أما النجوم فهى أبعد كثيرا من الكواكب عنا، فهى تبعد عنا بالسنين الضوئية، والصور التى هى عليها الآن سوف تصلنا بواسطة أشعة الضوء بعد سنوات عديدة مستقبلا أما صورها التى نراها الآن، فهى صورها التى كانت عليها منذ سنوات مضت.

ولماذا لا نشاهد الحال التى هى عليها الآن؟: لأن حاجز الزمن يقف حائلا دون ذلك، أى إننا لا نرى صور الحاضر للكون، وإنما نرى منه صور الماضى فقط. إذن **فنحن لا نعلم علم الشهادة لما فى الكون**. نحن ننظر إلى النجوم ونراها تتلألأ فى السماء، ولكن ما نراه هى صورها التى كانت عليها فى الماضى البعيد جدا، أما صورها فى الحال التى هى عليها الآن؛ فيستحيل علينا مشاهدتها. أى إنه **يستحيل علينا علم الشهادة بها**، إذن فعلم الشهادة يتساوى مع علم الغيب، ويستأثر الله تعالى بعلمه كما قال تعالى:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد].

ومن هذا الفهم العلمى ندرك أبعادا علمية أخرى فى تفسير قوله تعالى:

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لا تُبْصِرُونَ ۝٣٩﴾ [الحاقة]، وستظل الحقيقة العلمية فى قوله تعالى:

﴿وَمَا لا تُبْصِرُونَ ۝٣٩﴾

قائمة دائما لكل ما هو فى الكون.

حاسة بصر الإنسان لا ترى من الكون إلا صور الماضى

أشعة الضوء تجرى بسرعة ثابتة وتستغرق زمنا، فالضوء يقطع ثمانية عشر مليونا من الكيلو مترات كل دقيقة. والنجوم والمجرات تقع على أبعاد شاسعة جدا فى الفضاء؛ لذلك لا تصل إلينا وقت نظرنا إليها إلا صور الماضى البعيد منها، فنحن لا نشاهد مطلقا ما يجرى فى الكون الآن فنحن فى الأرض معزولون عن الكون تماما بحاجز الزمن، وكل كوكب وكل نجم معزول أيضا بحاجز الزمن، عن الكواكب الأخرى والنجوم الأخرى، لذلك لا يشاهد الكون بعضه بعضا أبدا.

وهناك مجرات تبعد عنا بعدا سحيقا فى أعماق السماء حتى إن أشعة الضوء الصادرة منها لم تصلنا بعد إلى الآن فلا نراها، فليس كل ما هو موجود فى الكون نراه، وليس كل ما نراه فيه موجودا. ونحن نفهم أن كل ما هو موجود لا نراه، مثل المجرات التى تقع فى أعماق السماء ولم تصلنا بعد أشعة الضوء الصادرة منها، **ولكن كيف لا يكون كل ما نراه فى السماء موجودا؟** وكيف أرى شيئا وهو غير موجود؟

مثال ذلك مجرة يسميها العلماء ٨٢ب تبعد عنا خمسة ملايين سنة ضوئية قالوا أنهم يشاهدونها وهى الآن تنفجر عن بكرة أبيها انفجارا هائلا ومروعا، إنهم فى ذلك مخطئون، فذلك الانفجار لا يحدث الآن، وإنما حدث منذ خمسة ملايين سنة مضت، فالصورة التى يراها العلماء الآن، هى حالة تلك المجرة منذ خمسة ملايين سنة مضت، ولكن ما هو الحال التى هى عليها الآن، ربما تكون قد تحولت الآن إلى سديم كونى وانتهت تماما ولم يعد لها وجود، ويستحيل علينا أن نشاهد الحال التى هى عليها الآن، فلن نشاهد الحال التى هى عليها الآن؟ إلا بعد أن تصل الأشعة التى تصدر منها الآن، والتى ستصل إلينا بعد خمسة ملايين سنة مستقبلا إذن **فليس كل ما نراه فى السماء موجودا.**

وإذا علمنا أن علم الشهادة، هو علم الحال الذى عليه الشىء المرئى حال النظر إليه، ولما كان ذلك مستحيلا، فإن علم الشهادة مستحيل للإنسان، ويتساوى مع علمه بالغيب، ولا يعلم علم الشهادة وعلم الغيب إلا الله عز وجل الذى قال فى سورة الرعد: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ** ﴿٩﴾﴾ [الرعد]، وجاء فى السنة أن رسول الله ﷺ كان يناجى ربه يقول: «**اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شىء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت**».

ولطالما كتب المفسرون فى معنى علم الشهادة، ولم يفهموا ما هو عالم الشهادة، وظنوه العالم المشاهد لهم. وما علموا أن قوانين الزمن تجعل عالم الشهادة فى الكون يتساوى مع عالم الغيب بالنسبة لنا. أما بالنسبة لله تعالى، فهو يشاهد كل شىء فى التو واللحظة لأن قوانين الزمن مخلوقة ولا تجرى القوانين المخلوقة على قدرة الخالق.

البصير

من أسماء الله الحسنى (البصير)، وهى فى اللغة كلمة تدل على المبالغة من المبصر. ولكن أسماء الله الحسنى أسماء مطلقة فهى منزهة عن المبالغة؛ لأن المبالغة إذا دخلت على صفة فإنها تدل على أن بتلك الصفة نقصا، وأسماء الله وصفاته كمال مطلق. وإنما المبالغة فى كلمة (البصير)، مبالغة فى كثرة مواقع البصر الإلهى المطلق فى خلقه.

فالله عز وجل يشاهد كل شىء فى خلقه فى الكون كله، والحال التى عليها كل مخلوق فى التو واللحظة وجملة وتفصيلا، لا يغيب عن بصره فى الكون خردله، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات والأرض. ولا يجرى على إرادته أى قانون من قوانين الخلق.

من المؤكد أن أصحاب الجنة سيرون ربهم عز وجل عيانا، لأن الله تعالى أخبرهم ووعدهم بذلك، قال الله عز وجل:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة].

والوجوه الناضرة الجميلة، هي وجوه المؤمنين في الجنة كما قال الله عنهم: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين]، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ قول كريم يدل على أن المؤمنين في الجنة يتطلعون بوجوههم وينظرون بأعينهم إلى نور ربهم. قال الله عز وجل عن أصحاب الجنة ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. ﴿الذين أحسنوا﴾، هم المؤمنون ﴿والحسنى﴾ الجنة (والزيادة) النظر إلى جمال النور الإلهي بأعينهم.

وفي حديث حسن صحيح رواه الإمامان أبو داود والترمذي عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ. فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «**إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر**»، إلى آخر الحديث الشريف.

وروى الإمام أبو داود عن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله ﷺ: أكلنا يرى ربه؟ قال: «**نعم يا أبا رزين**». قال: وما آية ذلك في خلقه؟ قال ﷺ: «**يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر؟**» قال قلت: بلى. قال: «**فالله تعالى أعظم**».

وفي رواية الإمام النسائي عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: «**فيكشف الحجاب فينظرون إليه** - أي ينظر أهل الجنة إلى نور الله تعالى- **فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقرّ لأعينهم**».

وتجادل بعض المعتزلة في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، وقالوا: إن النظر غير البصر. فهم ينظرون إلى النور الإلهي، ولكنهم لا يبصرون ربهم، لأن الله تعالى لا تدركه الأبصار. وقالوا: إن النظر في الآية الكريمة، مقرون بحرف (إلى) وهذا لا يدل على الرؤية، لأنه لو كان المراد رؤية الله تعالى، لما انحصرت بتقديم المفعول. كما قال الله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧]

فنفى الله تعالى نظره إليهم ولم ينف رؤيته لهم، فدل ذلك على المغايرة؛ لذلك قال بعض المفسرين: إن معنى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أن نظر أصحاب الجنة ليس إلا إلى الله، ولا يسألون إلا الله. ونحن نرى أن جدل المعتزلة مع أهل السنة فى تفسير الآية الكريمة، كان جدلا غير مؤسس على علم صحيح، لأنهم كانوا يقيسون الأمور فى الجنة، بمقاييس الأمور فى الدنيا، وهم فى ذلك مخطئون.

والذى يحسم الخلاف تماما، الحديث النبوى الصحيح الذى يقرر أن أصحاب الجنة سينظرون إلى الجمال الإلهى عيانا وسيرونه بحاسة أبصارهم، إذن فمعنى قوله تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة]

دل على أن الله تعالى يتفضل على أهل الجنة، ويطّلع عليهم ويقول لهم: «**السلام عليك أهل الجنة**» كما قال تعالى فى سورة يس:

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾

فالله عز وجل يطّلع على أهل الجنة ويقول لهم: السلام عليكم أهل الجنة، ويكشف الحجاب عن النور الإلهى فيراه أصحاب الجنة، وسيرون فيه جمالا ليس كمثله جمال، وأصحاب الجنة حينئذ لا يتجهون إلا إلى الله عز وجل، ولا يسألون غيره، ولا ينظرون إلى سواه.

وهناك دليل آخر على أن النظر إلى الله تعالى، هو رؤية نور وجهه الكريم، ففى سورة الأعراف ١٤٣ يقول الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، إذن فمعنى «النظر إلى الله» هو توجه النظر إلى الله تعالى وليس إلى سواه وطلب رؤيته أيضا.

وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن صهيب أن النبى ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم، فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب. فما أُعطوا شيئا أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل**»، فذلك قول الله عز وجل:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة]

فأثبت الله تعالى لأهل الجنة أمرين:

الأول: نَضْرة الوجوه. والنضرة هى التنعم وهى الحسن.

الثانى: النظر إلى جمال النور الإلهى.

ولا نتفق مع رأى بعض المعتزلة الذين قالوا إن رؤية الله تعالى ممتنعة اعتمادا على قوله عز وجل: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، لأن المعنى: لا تدركه معظم الأبصار، ولكن تدركه بعض الأبصار. فهو نفىَ العموم وليس عمومَ النفى. ولم يقم أى دليل على امتناع رؤية الله تعالى. ولو كانت رؤية الإنسان لربه ممتنعة، ما سأل النبى موسى عليه السلام ربه أن يجعله يراه، كما قال تعالى عنه ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولاشك أن النبى موسى عليه السلام إذ سأل رؤية ربه، كان مدركا وعالما تماما بما يجوز وبما يمتنع على الله تعالى، فلو كانت رؤية الله تعالى ممتنعة على خلقه ما سألها النبى موسى عليه السلام، وحيث سألها. فإن رؤية الله تعالى جائزة لعباده.

وأدلة أخرى نجدها أيضا فى الآية الكريمة: فلو كانت رؤية الله تعالى ممتنعة على عباده لقال الله تعالى لموسى إذ سأله (إنى لا أُرى) ولكنه تعالى قال: ﴿لَن تَرَانِي﴾، فدل ذلك على أن الرؤية جائزة، فلقد علّق الله تعالى رؤية النبى موسى له على أمر جائز، والمعلّق على الجائز جائز. قال تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]

واستقرار الجبل أمر جائز الحصول، فثبت أن رؤية الله عز وجل جائزة الحصول، بدليل أن الجبل عندما تجلى الله تعالى له، صار دكا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقد يقال: إن الجبل جماد لا يرى ولا يسمع. نقول: لا. إن الجبال ترى لأن الله تعالى لما تجلى للجبل دك من أساسه، والجبال تسمع أيضا، لأن الله تعالى خاطبها قال: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]، إذن فالجبال ترى وتسمع ولكنها رؤية وسمع بقانون آخر لا نعلم عنه شيئا.

إذن فرؤية الله تعالى جائزة لعباد الله الذين اصطفى، إلا أن الله عز وجل لا يحيزه زمان ولا يحيزه مكان، وذلك أمر منطقى فالزمان والمكان مخلوقان، ولا يحيز المخلوق خالقه، فوجب أن يكون الحائز الذى يُرى ويشاهده أهل الجنة هو جمال النور الإلهى، وليس الذات الإلهية، وإذا قيل أن الله تعالى لا يُرى بحاسة البصر فى الإنسان، لوجب أن تكون رؤية الله تعالى بغير حاسة البصر ممكنة، والله تعالى سيخلق لأهل الجنة أجسادا غير الأجساد التى كانوا عليها فى الدنيا ولهم حواس أخرى يستطيعون بها أن يروا نور الجمال الإلهى.

قال الله عز وجل: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وهذه الآية لا تنفى رؤية أهل

الجنة لجمال النور الإلهى فهناك فرق بين الإدراك والرؤية. فأنى إذا رأيت شيئا بجميع حدوده وجوانبه، وأوله وآخر تكون الرؤية إدراكا، أما إذا لم يحط البصر بكل جوانب المرئى ولا بأوله ولا بآخره، لا تسمى الرؤية إدراكا، فالمعنى أن الرؤية نوعان:

رؤية مع الإحاطة والإدراك، ورؤية بلا إحاطة ولا إدراك، والرؤية بلا إحاطة وبلا إدراك لا تنفى الرؤية أصلا، ولكنها تنفى الإحاطة بالمرئى وإدراكه، إذن فلا يُلزم نفيُ الإدراك والإحاطة بالله عز وجل، نفى الرؤية له تعالى، فذلك قول الله عز وجل: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾، وإذا كانت عموم الأبصار لا تدركه ولا تحيط به، فليس معنى هذا أن كل الأبصار لا تراه لأن نفى العموم لا يدل على عموم النفى كما ذكرنا من قبل.

ومهما يكن من أمر، فإن حواس الأبصار المعهودة لنا فى الدنيا لا ترى الله تعالى، وإنما تراه تلك الأبصار التى تبدلت صفاتها وتغيرت قدراتها فصارت أقوى وأحدّ، وحتى لو لم تكن رؤية الله تعالى جائزة بحاسة البصر التى نعرفها فى الدنيا، لكانت جائزة بحاسة سادسة أخرى، يخلقها الله تعالى فى الإنسان الذى اصطفاه لرؤيته، لذلك يراه أهل الجنة ولا يراه أهل النار الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين]. وتخصيص الكفار بالحجب عن رؤية الله تعالى، يدل على أن المؤمنين لن يكونوا محجوبين عن رؤيته.

وهل رأى رسول الله ﷺ ربه ليلة المعراج؟

لطالما فكر كثير من الناس فى هذا السؤال، ولطالما اختلفوا فى هذا الأمر، ولكن الرسول ﷺ لما رجع سألوه: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: «**نور أنى أراه**»، هذا الحديث الشريف يدل على أنه ﷺ رأى نور وجه الله عز وجل، أما الذات الإلهية فلم يرها، فلا يراها أحد سواه عز وجل وفى رواية أخرى قال ﷺ «**رأيت نورا**»، والرسول ﷺ من طبيعته النبوية، أنه يرى فى الدنيا ما لا نرى، ويسمع ما لا نسمع. فقد ثبت فى الصحيح أنه ﷺ قال فى حديث له: «**إنى أرى ما لا ترون. وأسمع ما لا تسمعون**».

إن مـا حدث لعـينى النبى يعـقوب عليـه السلام من فقدان البصـر، ورد البصر إليه بعد أن ألقوا بقميص يوسف على وجـهه، كان من قبيل المعجزات التى يجريها الله تعالى على يد أنبيائه. فليس لابيضاض العين شـفاء، وليس فى قميص يوسف مادة تسـبب أى شفاء. وزعمـوا أن عرق يوسف كـان له تأثير شـفـائى، ولكن أين يكون العرق فى قـميص أُرسل من مصـر إلى فلسطين على ظهـور الإبل فى رحلة استـغرقت شـهورا، إنهـا مـعجـزة لا شك فـيـها. وهى من قـبـيل المعجـزات التى أجراها الله تعالى على الأنبـياء، مثل مـعجـزة النبى يونس عليه السـلام وهو فى بطن الحوت، وظل حيا يرزق.

ومعجزات كثيرة أجراها الله تعالى على يد سيـد المرسلين ﷺ، مثل مـعجـزة حنين الجزع، ومعجزة الضـرع الجاف، الذى امتلأ لبنا بين يديه وسقى القوم جميعا ومعجزة نبع الماء بين يديه فى الحديبـية، وشرب منه المسلمـون جميعـا، وكانوا نحو ثلاثمائة وهى معـجزات لم ينكرها الكفار، لأن جميع الناس رأوها فلا سبيل إلى إنكارها.

والمعجزة: من العجز، أى يعـجز الإنسان عن أن يأتى بمثلهـا. فالمعـجزة أمر خـارق لفطرة الخلق ولقوانين الوجود. وإتيان المعجزة فوق قدرة الإنسان ليس وقت وقوعها فحسب ولكن فى كل عصر من الـعصور وإلى يوم القيـامة، ولا يقدر على إحـداث المعجـزة إلا فاطر الفطرة، وخـالق قوانين الكون وهـو الله عز وجل. . فهـو وحده القـادر عـلى أن يخـرق قـوانين الـفطرة. . وهو وحده القـادر على أن يعطل قوانين الكون. . ولا تجرى قـوانين الوجود التى خلقـها الخـالق تعالى على قدرته عز وجل. ولا تحول دون إرادته. ولا يسـتطيع أى عالم أن يفسرها ويفـسر أسـبابهـا ونتائجها بعلوم البشـر، لأن أسباب المعجزة فوق قوانين الوجود وخارج علوم البشر.

وهذا خطأ وقع فيـه كثير من العلمـاء، ما كان يـجب أن يقعـوا فيـه. فلا تفـسر المعـجزة بقوانين علومنا التجريبية لأن كل هذه معطلة تماما فى المعجزة وكل ما يحدث فيها.

وما حدث للنبى يعقـوب عليه السلام كان من قـبيل المعـجزة التى يجـريها الله تعـالى على أنبيائه.

فى سورة يوسف حكاية عن النبى يعقوب عليه السلام يقول الله عز وجل:

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾.

وقـال بعض المفسـرين: إن النبى يعقـوب كان يناجى ربه تعالى، ويتراءى يوسف بين يديه،

ويتصوره أمامه، فيبكى بكاء شديدا. ولامه الله تعالى على ذلك، وأوحى الله عز وجل إلى ملائكته أن انظروا إلى يعقوب يلتفت إلى غيرى وهو قائم فى مناجاتى. وعزتى وجلالى لأنزعن الحدقتين اللتين التفت بهما، ولأفرقن بينه وبين يوسف ثمانين عاما، ليعلم العالمون أن من قام بين يدى، لا ينبغى له أن ينظر إلى سواى.

وحدث بعد ذلك أن ابيضت عينا النبى يعقوب وفقد البصر، وحكايةً عن النبى يوسف نقرأ فى سورة يوسف ٩٣ قول الله عز وجل:

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً ﴾.

قال الحسن: كان ذلك وحيا من الله تعالى إلى يوسف، فأعلمه أن قميصه سيكون أداة المعجزة فى رد البصر إلى أبيه بقدرة الله. إن ما حدث للنبى يعقوب ورد البصر إليه بواسطة قميص يوسف كان من قبيل المعجزات التى يجريها الله تعالى وإتيان فوق قدرة النبى الذى تجرى على يديه، وفوق قدرة غيره من البشر، ليس فى وقت وقوعها فحسب، ولكن فى كل العصور.

وقد أخطأ بعض العلماء الذين فسروا ما حدث، أن الحزن الشديد أصاب النبى يعقوب بالمياه البيضاء فى عينيه Cataraet، وهذا تفسير غير صحيح لأربعة أسباب: الأول: الحزن الشديد لا يسبب حدوث المياه البيضاء فى العين. والسبب الثانى: المياه البيضاء لا تحدث بياضا فى العينين. فالعين المصابة بالمياه البيضاء تبدو لمن ينظر إليها من الناس وكأنها سليمة، فسواد العين ظاهر وواضح ولا يلاحظ المياه البيضاء فى العين إلا الأطباء بعد فحص العين.

والسبب الثالث: المياه البيضاء فى العين تضعف البصر، وربما إلى حد كبير، ولكن لا تؤدى إلى فقدان البصر تماما إلا نادرا جدا، والذى حدث للنبى يعقوب أنه فقد البصر تماما، ودليل ذلك قول الله عز وجل حكاية على يوسف:

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً ﴾، إذن فالنبى يعقوب لم يكن بصيرا، بل إنه فقد البصر، ولا يكون ذلك بسبب مرض المياه البيضاء فى العينين، فأغلب الناس بعد سن الخمسين يصابون بالمياه البيضاء فى عيونهم، وتقل قوة إبصارهم، ولكنهم لا يفقدون البصر تماما.

السبب الرابع: قوله تعالى:

﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾

يعنى أن العينين ابيضتا واختفى سوادهما. وهذا يحدث إذا ابيضت القرنية وصارت فى مثل بياض الصلبة، وهذا يحدث لبعض أمراض القرنية التى لاشفاء منها، وإذا شفى منها النبى يعقوب فلا يكون ذلك بأى سبب من أسباب البشر وإنما هى معجزة من الله تعالى.

ولو تدبرنا أى معجزة لوجدناها خالصة لله تعالى وحده، ولا دخل فيها لإرادة النبى الذى أجرى الله المعجزة على يديه، ولا دخل فيها لأسباب البشر.

وإذا نظرنا إلى المعجزات التى أجراها الله تعالى على رسله، نجد أنها كانت فيما برع فيه الناس فى عصورهم ولو جاءت المعجزة فى غير ما برع فيه القوم، لقالوا لو فعل مثل ما نفعل لغلبناه، فمثلا برع قوم فرعون فى السحر. فإذا بالمعجزات التى أجراها الله تعالى على يد النبى موسى تبدو فى ظاهرها وكأنها فيما برع فيه القوم فانتصر عليهم انتصارا مبينا، ولجد ذلك فى عصاه التى تحولت ثعبانا مبينا يلقف ما كانوا يأفكون.

وعندما سار النبى موسى بأهله ناداه الله عز وجل من جانب الطور الأيمن وأمره بالذهاب إلى فرعون ومجابهته والانتصار عليه، فيذعن موسى لأمر ربه، وهو أمر لا يقدر عليه أشجع الناس.. وحتى تكون المعجزة خالصة لله عز وجل فى الانتصار على فرعون وقومه لم يجعل الله تعالى من صفات النبى موسى الشجاع التى لا مثيل لها، وإلا ما كان عجيبا أن يعود وحده إلى فرعون مقاتلا له ولجيوشه، وحتى لا يقال إن ما حدث كان لفرط شجاعة النبى موسى وهارون، فقد جعل الله تعالى الخوف يدب فى قلب موسى أمام القوة والبطش. نقرأ عن ذلك فى سورة القصص:

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

وفى سورة النمل ١٠:

﴿يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾.

وفى سورة طه:

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾

وفى سورة طه أيضا: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾. وليس معنى هذا أن النبى موسى لم يكن شجاعا ألبتة - كلا فهو من أولى العزم من الرسل وثابتُ اليقين، إلا أن الله تعالى جعله يشعر بالخوف إذا ما جوبه بالبطش والطغيان من فرعون وقومه، حتى تكون معجزةُ انتصار موسى على فرعون وقومه خالصة لله وحده.

وعصا موسى كانت عصا عادية يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه وله فيها مآرب أخرى، فهى عصا لم تنزل له من السماء، فهى ليست أكثر من فرع شجرة اجتث منها، قال الله عز وجل فى سورة طه:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾

فإذا حدث من هذه العصا العادية قوة هائلة بعد ذلك، تشق البحر أو تتحول إلى ثعبان مبين يلقف سحر السحرة فإنه لا يكون إلا إعجازا من لدن الله عز وجل ولا دخل للنبى موسى فيه بقوة بشرية، فهى معجزة خالصة لله تعالى وحده.

ولقد أنزل الله تعالى على سيدنا رسول الله معجزة القرآن ومعجزة الرسالة، وكان لابد

أن يبعد عنه كل القوى البشرية وكل قوانين الوجود التى قد يُظن أنها أعانته على كتابة القرآن، أو النهوض بتكاليف الرسالة والانتصار على أعداء الله.

فأرسله الله تعالى فى بلد لم يُرسَل فيه نبيٌّ من قبل، وفى بلد لا حضارة فيه، لا فى الماضى ولا فى الحاضر، ولا حتى فى مستقبل منظور، حتى تكون الحضارةُ الإسلامية خالصة لله وحده، وحتى لا يظنَّ أحدٌ أنها كانت ثمرة تطورٍ طبيعى للحضارة التى كانت موجودةً فى بلده. وينزل القرآن والمجتمع يعبد الأوثان حتى لا يقال إن الدين كان ثمرة تطور فكر إنسانى. وجعل الله رسوله أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، حتى لا يقال إنه جاء بالقرآن من عنده. ثم يجرده من قوة المال فكان فقيرا. ويجرده من قوة الوالدين فكان يتيما. ثم يجرده من منعة الأهل وقوتهم، فجعل من عشيرته أشدَّ الناس عداوة له.

كما قدّر الله تعالى أن تقوم أول دولة إسلامية، فى بلد ليس للرسول فيه أهل أو عشيرة، حتى لا يقال لو لم يكن بين أهله وعشيرته ما قامت الدولة الإسلامية.

هكذا أبعد الله تعالى كل القوى البشرية التى أقامت الإسلام وحفظته، وبذلك خلصت معجزة القرآن ومعجزة الحضارة الإسلامية لله تعالى وحده.

وهكذا كل المعجزات التي أجراها الله تعالى على أنبيائه ورسله أجمعين.

فليحذر أى عالم من العلماء، أن يقع فى الخطأ العلمى الفادح فيحاول أن يفسر أى معجزة من المعجزات بقوانين الفطرة، ومناهج البحث والدراسة فى العلوم التجريبية، مثل محاولة تفسير ابيضاض عينى النبى يعقوب وفقدان بصره فيأتى أمر الله عز وجل بأن يرتد بصيرًا عندما ألقوا قميص يوسف على وجهه. ويظن بعض الناس أن معنى ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ أن عدسة العين ابيضت أو ما يسمى بالمياه البيضاء. لا، ليس المعنى هذا ولكن المعنى أن العينين صارتا ذات لون أبيض، ولا يتأتى هذا إلا إذا اختفت القرنية تماما، ابيضاضَ القرنية الصلبة «Sclera»، فهم بذلك لم يفهموا معنى النص القرآنى ووقعوا فى خطأ فادح بتفسير معجزة إلهية بقوانين العلوم التجريبية.. تماما كما حاول بعض الناس تفسير معجزة الإسراء والمعراج بقانون سرعة الضوء وسرعة المادة فى الكون.. إنه جهل بفهم أسرار المعجزة الإلهة.. وجهل بفهم قدرة الله تعالى التى لا تخضع لأى قانون طبيعى تجرى عليها قوانين الفطرة، ولا تخضع لمناهج البحث العلمى.

الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين

روى الإمامان البخارى ومسلم عن عمرو ابن حريث عن سعيد بن زيد رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين**».

وقال الطبرى: إن سبب هذا الحديث الشريف أن الكمأة كثرت فى عهد رسول الله ﷺ فامتنع الناس عن تناولها، وقالوا هى جدرى الأرض، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنطق بالحديث الشريف. والمن ينبت فى الأرض، هو بين المملكة النباتية والمملكة الحيوانية، وهو ينبت كالنبات إلا أنه بلا أوراق ولا جذر ولا ساق، ولا يستزرع كالنبات.

وقام الدكتور معتز المرزوقى أستاذ أمراض العيون بجامعة شبين الكوم بتجارب على المن، ومفعوله فى شفاء بعض أمراض العيون، ومحاولة مشكورة منه لتفسير الحديث النبوى الشريف تفسيرا علميا وعمليا، وعما جاء فيه من علم عظيم. واستخدم فى البحث كمأة تنبت بأرض الكويت، واستخلصت عصارتها فى معمل فيلا توف بأوديسا فى روسيا. ونجحوا فى معامل مصر في تحويل السائل إلى مسحوق، واستعمل فى علاج الرمد الحبيبى (التراكوما) وهو أكثر أمراض العيون شيوعا فى مصر، وقلما نجد إنسانا خاليا من هذا المرض فى العالم العربى. ويسبب أكثر من ربع حالات فقدان البصر إذا لم يعالج علاجا صحيحا. واستعمل ماء الكمأة فى علاج التراكوما ونجح العلاج نجاحا مدهشا، وبذلك ثبت علميا أن ماء الكمأة شفاء للرمد الحبيبى، كما يمنع حدوث مضاعفاته بالعين. وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: «**الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين**».

وقد يقول قائل: إن هناك أمراضا كثيرة تصيب العين، وليس لماء الكمأة تأثير شفائى لها، وقد ثبت أن ماء الكمأة ليس شفاء لمرض المياه الزرقاء فى العين ولا لمرض الكاتاراكت (المياه البيضاء)، والإجابة على ذلك: إن الذى يطالع الحديث النبوى الشريف يجد فيه الجواب على التساؤل؛ فالحديث الشريف ذكر كلمة (شفاء) منكّرة، فلم يقل (الكمأة من المن وماؤها الشفاء للعين) ولكنه قال: (وماؤها شفاء للعين)، وتنكير الكلمة يدل إما على التعظيم وإما على التبعيض، فماء الكمأة شفاء عظيم لبعض أمراض العين، وعلى هذا النحو من الفهم ينبغى أن نفسر الحديث النبوى الشريف.

يغطى الجلد معظم السطح الخارجى لجسم الإنسان، ويعمل الجلد كطبقة واقية حول الجسم فهو يحمى الأنسجة الدقيقة تحته من التلف، وله وظائف كثيرة ضرورية لبقاء جسم الإنسان صحيحا، والجلد من أهم أعضاء الجسم. ويوجد بالجلد فتحات مسامية لا ترى بالعين المجردة تفتح فيها الغدد العرقية. ويخرج العرق من مسام الجلد غزيرا أثناء الجو الحار، وتبخّر العرق الموجود على الجلد، يخفّض من درجة حرارة الجسم، وبذلك يعمل الجلد على حفظ حرارة الجسم فى الحدود الطبيعية.

ونحن إذ نتحدث عن علاقة حواس الجسم بالجلد، نجد أن بالجلد أجهزة استقبال حواس اللمس والضغط والحرارة والبرودة والألم.

إحساس الجلد: إن قدرة الجلد على استقبال تلك الأحاسيس ليست شاملة لكل سطح الجلد فتوجد، نقط معينة بالجلد لاستقبال كل حاسة من الحواس المذكورة، فإذا وخزنا بإبرة وخزة خفيفة وكررنا ذلك على طول خط رفيع، فسنجد أن جزءا كبيرا من سطح الجلد غير حساس نسبيا لوخز الإبرة، وأن هناك مناطق صغيرة حساسة جدا لوخزة الإبرة، وكذلك الإحساس بالملمس والإحساس بالبرودة والحرارة والضغط، والنقط الحساسة مستقلة عن بعضها البعض.

أعضاء استقبال الحواس بالجلد:

يمكن تمييز سبعة أنواع مختلفة من أجهزة الاستقبال فى الجلد، وكل نوع منها حساس لنوع واحد فقط من الإثارة.

استقبال اللمس: إن الإحساس باللمس هام جدا لأنه يقدّم قدرا كبيرا من المعلومات عن الجو المحيط بالجسم، وبواسطة حاسة اللمس يدرك الإنسان الأشياء التى تلامس جلده، ويتعرف عليها. وكل أحاسيس متع الدنيا تمر عبر الجلد من خلال استقبال حواس اللمس والضغط والبرودة والحرارة الألم. وهناك نوعان من أعضاء استقبال إحساس اللمس هما بصيلة مايسنر Capsule of meissner وأقراص مركل Discs of Merkel وكلاهما يوجد قريبا من سطح الجلد فى بشرة الجلد مباشرة.

استقبال البرودة: هى أعضاء تسمى انتفاخ كراوس الطوفى end - bulbs of Krause وهى أعضاء كروية الشكل وتوجد فى الجلد كما تكثر على الشفتين واللسان.

استقبال الحرارة: تسمى أعضاء رافينى الطرفى Ruffini .

استقبال الضغط: يكون ذلك بواسطة عضو مستقبل يسمى بصيلة باكسينى Pacin-ian Corpuscle وتوجد مستقبلات أخرى للضغط، موجودة على سطح الجلد، تسمى بصيلات جولجى ماروني.

استقبال الألم: هو عن طريق إثارة الألياف العصبية العارية المنتشرة فى السطح العلوى من الجلد.

لم يكتشف العلماء أعضاء استقبال أحاسيس اللمس والألم والضغط والحرارة فى الجلد إلا فى عصر العلم الحالى، ذلك لأن أكثر الحقائق العلمية الدالة على ذلك لا تعرف إلا بواسطة الميكروسكوب العلمى، الذى لم يخترعه الإنسان إلا منذ مائتى سنة تقريبا، وقبل ذلك بمائة عام اخترع الميكروسكوب أو العدسات المكبرة على يد صانع العدسات الهولندى «ليفانهوك». ومعنى هذا أن دور الجلد فى استقبال أحاسيس اللمس والألم والحرارة والضغط لم يكتشف إلا حديثا، إلا أننا نجد فى القرآن الكريم عن ذلك إشارات علمية فى بعض الآيات ذكرت تلميحا وفى بعض الآيات الأخرى ذكرت تصريحا.

أعضاء استقبال الحواس بالجلد:

يحس الإنسان بالألم فى أماكن كثيرة من جسمه، فقد يشعر بآلام المغص فى البطن أو ألم شديد إذا حدث انسداد بالأمعاء، أو ألم شديد إذا حدث التهاب بالزائدة أو حصوة بالمرارة أو بالحالب. أو قد يصاب إنسان بالتواء فى قدمه أو كسر فى عظمه فيشعر بألم شديد، إلا أن ألم الحرق لا يشعر به الإنسان إلا عن طريق جلده، فإذا شرب الإنسان سائلا حارا جدا شعر بألم الحرق فى فمه، ولكنه لو ابتلع هذا السائل الحار ووصل إلى المعدة فلا يشعر بألم فى منطقة المعدة، لأن المعدة لا يوجد به أجهزة أو أعصاب تستقبل الإحساس بالألم كما هو الحال فى الجلد والأغشية، نظيره الجلد فى الفم والأعضاء التناسلية الخارجية. وهذه حقيقة علمية لم تكتشف إلا حديثا، ولم يكن أحد من العلماء على أى علم بها. إلا أن القرآن الكريم ذكرها فى سياق الحديث عن عذاب الكفار فى نار جهنم. قال الله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء].

﴿نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾: أى ندخلهم نارا فتحرقهم، وكلما احترقت جلودهم بدلهم الله تعالى جلودا غيرها سليمة وذلك يسبب استمرار إحساس الكفار بألم الحرق، ولماذا يبدلهم الله جلودا غيرها؟ ولماذا قال: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾؟ ذلك لأن الجلد لو احترق كله، فإن الأعصاب المستقبلة للألم فى الجلد ستحترق هى الأخرى، وبالتالى لا يستقبل سطح الجسم أى إحساس بالألم، فإن العضلات لا تحس بألم، ولا تستقبل أى إحساس للألم. ومثال ذلك إذا أحضرنا إبرة طويلة ووخزناها فى جسد إنسان حتى آخرها، ماذا يحدث؟ نجد أن الإنسان شعر بالألم عند وخز الطبقات الخارجية من الجلد - أو بالأحرى السطح العلوى من الجلد، وإذا استمر إدخال الإبرة فى العضلات فإن الإنسان لا يشعر بالألم مع أن الإبرة مستمرة فى دخول لحمه؛ ذلك لأن العضلات لا يوجد بها أعصاب خاصة تستقبل الإحساس بالألم، والأمر نفسه بالنسبة للحرق.

والحرق ثلاث درجات: الدرجة الأولى: يكون إحساس الألم فيها شديدا لأن السطح العلوى من الجلد لم يحرق، وإنما أصابه الحرق، لذلك تثار الأعصاب المستقبلة للألم فيه وبالتالى يشعر الإنسان بألم شديد من جراء الدرجة الأولى من الحرق، أما الدرجة الثانية التى تحرق الطبقات العليا من الجلد فقط فهى تحدث ألما إلا أنه عادة يكون أقل من الألم فى الدرجة الأولى، أما الحرق فى الدرجة الثالثة التى فيها يحرق الجلد كله وجزء من العضلات فإن المصاب لا يشعر بألم الحرق، اللهم إلا فى أماكن الجسم الأخرى المصابة بالدرجة أولى أو الثانية من الحرق.

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]

(كلما) ظرف زمان متضمن معنى الشرط يتعلق (ببدلناهم جلودا غيرها)، (ليذوقوا العذاب)، اللام لام التعليل والجر. و(يذقوا)، فعل مضارع منصوب (بأن) المضمرة بعد لام التعليل. وعلامة نصبه حذف حرف النون (ليذوقوا) وفى الكلام استعارة مكنية فى قوله (ليذقوا العذاب) فقد حذف المشبه، واستعار شيئا من لوازمه وهو الذوق، والمراد بالذوق استمرار العذاب مع استمرار الأبدان حية، واستمرار الجلود محافظ على بقائها بواسطة تبديلها المستمر، بجلد غير محترق مكان الجلد المحترق، وذلك يصيب الكافر بإحباط نفسى لأنه يستبعد ما قد يتوهم أو يتمنى من زوال العذاب وآلامه.

وفى هذه الآية الكريمة ذكر القرآن الكريم حقيقة مرور الإحساس بألم الحرق عن طريق الجلد تصريحا وتوضيحا، كما أشار إلى أن الجلد المحترق لا يوصل الإحساس بالألم، لذلك يبدله الله تعالى بجلد غير محترق ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]

كيف ولماذا يشهد الجلد على صاحبه يوم القيامة؟

قال الله عز وجل:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [فصلت]

حتى إذا ما جاءوها: (ما) هنا مزيدة، للتأكيد على أن وقت إحضارهم إلى النار، هو وقت الشهادة عليهم من قبل أعضاء جسمهم. ويدرك العصاة جيدا أنهم قد استخدموا سمعهم وأبصارهم فى ارتكاب المعاصى، فلا ينكرون شهادة سمعهم وأبصارهم عليهم، ولا يدهشون لها، ولكنهم يدهشون لشهادة جلودهم عليهم.

فما بال جلودهم تشهد عليهم هى الأخرى، وفى ذلك يقول الله عز وجل:

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت]

إنهم لم يسألوا حواس السمع والبصر لأنهم يعلمون جيدا أنهم استخدموها فى ارتكاب المعاصى فى الدنيا، ولكنهم سألوا جلودهم وهى تشهد عليهم وتنطق بكل ما ارتكبوه من الخطايا والكبائر، لماذا تفعل ذلك، وهى قد تمتعت معهم

فى الدنيا. وإذا ألقوا فى النار فستكون جلودهم أول ما يحرق ويذوق العذاب. ولماذا تنطق بما قاموا به من الأعمال، ومن أين لجلودهم أن تعلم ذلك؟

وما كان أعداء الله قديما يعلمون السر العلمى فى ذلك، ولو علموه ما سألوا جلودهم لم شهدوا عليهم، فقد اكتشف العلماء فى عصر العلم الحالى أن فى جلد الإنسان مئات الملايين من أعضاء الاستقبال للأحاسيس المختلفة. فما من إحساس بالمتعة مثلا إلا وكان عن طريق الجلد. إن أعضاء استقبال الإحساس بالجلد مجهرية الحجم بالغة الدقة في الصغر، بالغة الكبر فى الإتقان فى الصنع، حتى أن كل عضو منها جهاز فى قمة الإحكام فى الخلق، وأحكم وأدق من أعظم كمبيوتر صنعه الإنسان. وهذه الأجهزة التى لا ترى بالعين المجردة تستقبل أحاسيس اللمس والدفء والبرودة والضغط والألم - وقد سبق أن تحدثنا عنها. وتكثر تلك الأجهزة المستقبلة للأحاسيس المختلفة بمتع الدنيا فى أماكن الجلد فى الجسم، التى يحتاج الإنسان فيها إلى كثرة تلك الأحاسيس، مثل أطراف الأصابع والوجه واليدين والشفتين والأعضاء الجنسية. فتستقبل تلك الأجهزة فى الجلد - والأغشية نظيرة الجلد - تلك الأحاسيس وتترجمها إلى سيالات أو ومضات عصبية كهربائية تجرى فى ألياف عصبية شتى إلى أن تصل إلى مراكز خاصة بالمخ، فيحس بها الإنسان ويدركها.

فالإحساس يكون فى مراكز المخ، والإدراك يكون بالفؤاد، وتتمتع النفس البشرية، ذلك أن المخ هو رافد النفس البشرية، فلولا وجود الجلد والأغشية نظيرة الجلد فى الفم والشفتين والأعضاء التناسلية فى جسم الإنسان؛ ما أحس الإنسان بأى متعة من متع الدنيا.

لذلك عندما يحاسب الإنسان - يوم الحساب- يأمر الله عز وجل أعضاء الجسم بالشهادة على صاحبها، فتنطق أعضاء الجسم وتنطق الحواس وينطق الجلد وما به من أجهزة استقبال الحواس، ويحكى كلٌّ منها عن كل ما مر به من أحاسيس. ولو علم العصاة دور الجلد فى استقبال متع الدنيا، ما استنكروا شهادة جلودهم عليهم، فذلك قول الله عز وجل:

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾ [فصلت]

ويقول تعالى فى الآية التالية:

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) ﴾.

ولماذا ذكر السمع والأبصار والجلود، ولم تذكر باقى الحواس وهى التذوق والشم؟ ذلك لسببين:

الأول: لأن الأجهزة المستقبلة لحاستى الشم والتذوق، موجودة فى الأغشية المخاطية نظيرة الجلد فهى تدخل مع الجلد فى الوظيفة.

الثانى: اكتُفى بذكر الحواس الثلاث، لأن باقى الحواس مفهومة من سياق الحديث، كما فى قول الله عز وجل:

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ١٣]

وتقدير القول: (وله ما سكن وتحرك فى الليل والنهار)؛ لأن السكون لا يعرف إلا بالحركة، فأضمر الحركة لدلالة السكون عليها، وكما قال تعالى أيضا:

﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾

[النحل: ٨١]

وتقدير القول: (سرابيل تقيكم الحر والبرد)، فأضمر البرد لدلالة الحر عليه، فالسرابيل التى تقى من الحر تقى أيضا من البرد.

فكذلك اكتفى بذكر حواس السمع والأبصار والجلود لدلالاتها على باقى الحواس.

أعضاء الجسم تشهد على صاحبها يوم الحساب:

يوم الحساب يُنطق الله عز وجل حواس الجسم لتشهد على صاحبها كيف استعملها فى ارتكاب المعاصى كما تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم أيضا. وروى الإمام مسلم عن أنس رضى الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك. فقال: **«أتدرون مم أضحك؟»**. قال قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: **«من مخاطبة العبد ربه يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم. قال فيقول الله تعالى: بلى. فيقول العبد: فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى. قال فيقول الله عز وجل: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكاتبين شهودا، قال: فيختم على فيه. ويقال لأركانه انطقى. فتنطق بأعماله، ثم يُخلّى بينه وبين الكلام فيقول: بُعداً لكن وسحقًا فعنكن كنت أناضل»**.

وهذا الحديث الشريف تفسير لقول الله عز وجل: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس].

وكل حواس الجسم وأعضائه، تعمل بناء على أوامر من النفس البشرية عن طريق الدماغ، ونأخذ السيارة مثلا يوضح لنا هذا الأمر: جسم الإنسان كمثل جسم السيارة. ودماغ الإنسان كمثل محرك السيارة. والنفس البشرية كمثل سائق السيارة، فإذا انحرفت السيارة أو اصطدمت بشىء، أيحاسبون السيارة والمحرك؟ أم يحاسبون السائق؟ إنهم يحاسبون السائق، وكذلك إذا أخطأ إنسان، لا يحاسب جسمه ولا تحاسب حواسه، ولكن تحاسب النفس البشرية، فذلك قول الله عز وجل:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر]

نفهم إذن أن الإنسان العاصى يستخدم أعضاء جسمه وحواسه فى ارتكاب المعاصى، لذلك تشهد عليه عندما يأمرها الله تعالى بذلك، وينطقها يوم القيامة، قال تعالى:

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

ولكن لماذا أنطق الأيدى والأرجل لتشهد على صاحبها، ولم ينطق اللسان، واللسان آله النطق؟ ذلك لأن إقرار غير الناطق أبلغ فى الحجة من إقرار الناطق. وليزيد المذنب حسرة حين يرى أعضاء جسمه التى كانت أعوانا له فى الدنيا فى حق نفسه، صارت شهودا عليه يوم القيامة فى حق ربه. قال تعالى:

وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]

أسند الكلام إلى الأيدى، وأسندت الشهادة إلى الأرجل، فلماذا جعل ما كان باليد كلاما، وجعل ما كان بالأرجل شهادة؟ ذلك لأن الأيدى مباشرة لعمله، والأرجل مباشرة لسعيه.

ولم يذكر اللسان فى الشهادة على صاحبه إلا فى سورة النور ذلك أن سبب نزول تلك الآية الكريمة أن قوما استخدموا ألسنتهم فيما يغضب الله تعالى، قبل استخدام الأرجل والأيدى وفيما لا دخل للحواس فيه. قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور].

وما ذنب الجلود أن تحرق، وما ذنب الحواس أن تعذب؟

قال الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾ [فصلت]

إنها ستشهد على صاحبها كيف أنه استخدمها فى ارتكاب النفس البشرية للمعاصى فى الدنيا.

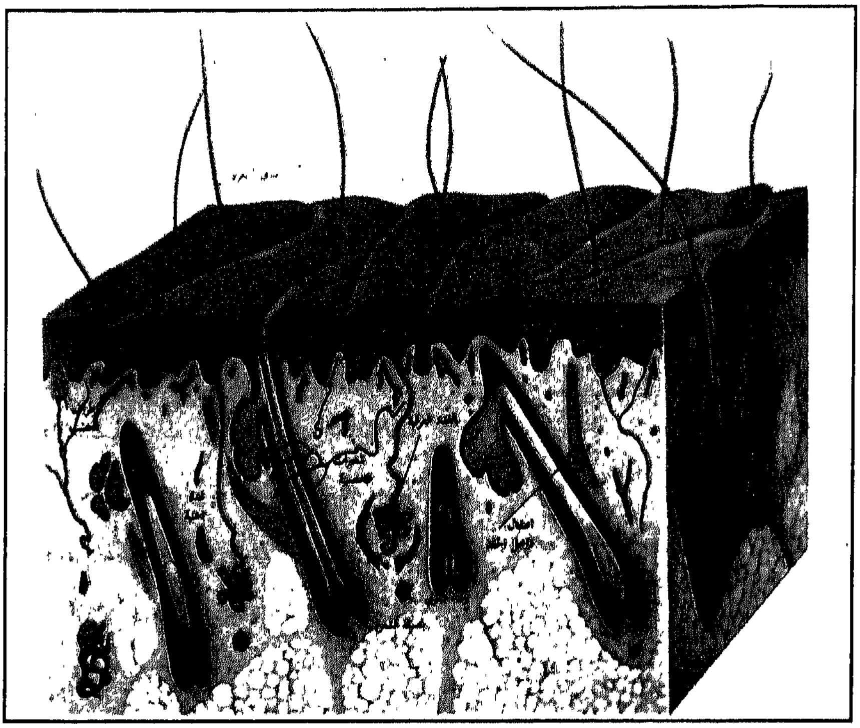
فالنفس البشرية هى التى أذنبت وهى التى عصت ربها، أما الحواس فهى مسخرة لأمر النفس البشرية.

فما ذنب الجلود أن تحرق، وما ذنب الحواس أن تعذب؟ والله تعالى يقول:

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾

[النساء: ٥٦]

الإجابة على ذلك؟ إن الجلد وحواس الجسم جميعا أجهزة استقبال للأحاسيس، وهى نفسها لا تحس شيئا، فالذى يحس، والذى يتألم أو يتمتع، هو النفس البشرية عن طريق الدماغ، ولا يضير الجلد شيئا أن يحرق أو يبرد، فليس فيه مراكز إحساس بالألم، وإنما فيه مراكز استقبال للألم فقط. وإذا خدرنا مخ إنسان، ثم أحرقنا جلده، فإن الجلد نفسه - وهو لم يُخدَّر



تخديرًا مباشرًا - لا يحس بالحرق أو الألم، لذلك قال الله عز وجل:

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]

اللام لام التعليل. والضمير فى قوله تعالى: (ليذوقوا العذاب)، راجع إلى العصاة أنفسهم وليس إلى جلودهم، ولو كانت الجلود هى التى تحس بالعذاب لقال: (بدلناهم جلودا غيرها لتذوق العذاب)، ولكن الجلود لا تحس بالألم، وإنما النفس والذات البشرية هى التى تحس بالألم عن طريق المخ. لذلك قال تعالى:

﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾.

فى أحد المؤتمرات الطبية عن نقل الأعضاء سأل أحد الحاضرين سؤالا قال: لو أننى تبرعت أثناء حياتى بنقل أحد أعضاء جسمى لأنقذ به حياة مريض مشرف على الموت، وعاش هذا المريض بعد ذلك صحيحا، وحدث أن ارتكب المعاصى وأحد أعضاء جسمى فيه، تشارك فى ارتكاب المعاصى، أأحاسب أنا يوم القيامة على معصية ارتكبها غيرى بأحد أعضاء جسمى؟

الجواب على ذلك: أنه لن يحاسب على ذلك، فأعضاء الجسم عابدة ساجدة لله عز

وجل، سواء كانت فى جسد مؤمن أو جسد كافر. فالحساب والعقاب ليس على الجسد، ولكن الحساب للنفس البشرية، ولا دور لأعضاء الجسم يوم الحساب إلا الشهادة على صاحبها.

والإنسان المؤمن إذ يسجد لله تعالى، إنما يسجد سجودين: سجودا بفطرة خلق جسمه وسجودا بنفسه وعقله. أما الإنسان الكافر بربه الذى لا يسجد لله تعالى، فإنه يسجد لله تعالى كرها وقهرا بفطرة خلق جسمه؛ ذلك لأن كل خلية من خلايا جسمه؛ ساجدة عابدة مسبحة لله تعالى. ولسوف ينطق الله تعالى أعضاء الجسم لتشهد على صاحبها يوم الحساب. حينئذ يزداد الكافر أسى وحسرة، عندما يرى أعضاء جسمه التى كانت طوع إرادته ورهن إشارته فى الدنيا فى حق نفسه، صارت يوم الحساب شهود إثبات ضده فى حق ربه كما قال تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [فصلت].

كل حاسة من حواس الجسم لها مركز حس خاص بها فى قشرة المخ، يحس بالأحاسيس الواصلة إليه ويتعرف عليها، إلا حاسة التذوق، فأجهزة استقبال تذوق الأشياء، تقع فى الجدار الداخلى للفم وفى حلمات اللسان. ومن أجهزة استقبال التذوق ترسل أحاسيس التذوق عبر الألياف العصبية إلى المخ، حيث تستقبلها خلايا متناثرة في المنطقة الحسية، والتى بها مراكز حس تحس بأحاسيس الألم واللمس والحرارة والبرودة والضغط. وقد يكون ذلك السبب فى أن الآيات القرآنية ما ذكرت أحاسيس الألم إلا بفعل التذوق. كما قال تعالى فى سورة النساء:

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾.

وفى سورة آل عمران يقول تعالى:

﴿ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾.

وقال تعالى أيضا فى سورة الأنفال:

﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

وفى سورة الحج يقول الله عز وجل:

﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾

وكلمة (يذوقوا) فى الآيات الكريمة يمكن تفسيرها على ظاهر اللفظ، كما يمكن تفسيرها على المجاز.. إلا أن الثابت أن تجمعات الخلايا العصبية التى تحس بالتذوق متأثرة بين مراكز الإحساس بالألم والبرودة والحرارة والضغط فى قشرة المخ.. وحاسة التذوق هى التى تستقبل أحاسيس طعم الأشياء.. وذكر الطعام ومشتقاته فى القرآن الكريم فى مواقع كثيرة.

والأطعمة هى كل غذاء للإنسان ذى طعم. ويتذوق الإنسان بحاسة التذوق. وما ذكر غذاء الإنسان فى القرآن الكريم إلا بصفة الطعام.. أى إن الله تعالى جعل غذاء الإنسان أكلا ذا طعم مستساغ له، يسعده ويرضيه، ويجعله يقبل بشهية على تناول الطعام.. أما إذا جاء ذكر الدواب، فلا يقال «طعام»، وإنما يقال: «أكل».. وكذلك الأمر فى الحديث عن غذاء الكفار.

ففى الحديث عن الطعام، ذكر طعام الإنسان كما فى قول الله عز وجل: فى سورة آل عمران: ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

فى سورة الحاقة: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

وفى سورة الكهف:

﴿ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾.

فى سورة البقرة:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾.

وفى الحديث عن الأكل، ذكر أكل الدواب.. لأن الدواب تأكل بغير إحساس قوى بالتذوق: كما قال الله عز وجل فى سورة هود:

﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾.

كما قال الله عز وجل فى سورة يوسف:

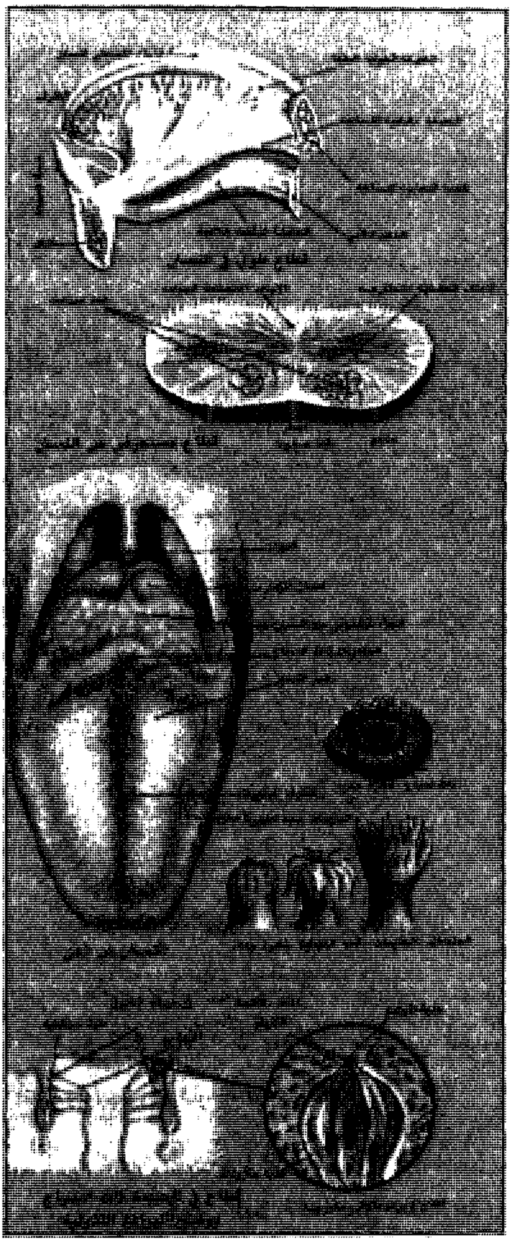
﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾.

كما قال الله عز وجل فى سورة محمد:

﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

حاسة التذوق:

حاسة التذوق من الحواس الهامة فى الجسم، وأعضاء استقبال التذوق تستقر فى اللسان وباطن الفم. وهذه تستقبل ستة أنواع مختلفة من الطعوم: الحلو، والمر، والمالح، والحامض، والطعم المعدنى، والقلوى. وهذه هى المذاقات الأساسية، أما المذاقات الثانوية فهى كثيرة جدا، وكل منها خليط من الطعوم الرئيسية وبنسب مختلفة. ويحدث التقاء بين الطعم والرائحة لطعام ما، وهذا يسبب ما يعرف بالنكهة لذلك الطعام، ولا يمكن أن يشعر إنسان بنكهة مادة ما، إذا فقد ذلك الإنسان حاسة الشم لتلك المادة، فالطعم وحده لا يكفى. وهذا يدل على الارتباط الوثيق بين حاستى التذوق والشم. وجاء ذلك فى السنة المشرفة؛ فقد روى الإمام أحمد عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ سئل عن حوضه فى الجنة فقال: «أشد بياضا من اللبن وأحلى مذاقا



من العسل وأطيب رائحة من المسك». فربط الحديث النبوى الشريف بين التذوق والشم لشراب الجنة.

وتوجد أعضاء استقبال الطعم الحلو فى مقدمة اللسان، واستقبال الطعم المر فى مؤخرة اللسان. أما الطعم المالح فيستقبل على جوانب اللسان، كما تحس به معظم أعضاء الفم، أما الطعم الحامض فيستقبل على جوانب اللسان.

وتوجد أعضاء استقبال الطعوم فى نتوءات فى اللسان، وهى تكون فى اللسان ما يشبه الكهوف الصغيرة العديدة، والنتوءات منها الحليمات الفطرية، والبراعم التذوقية، والحليمات السياجية. ويشبه كل برعم من براعم التذوق شكل القارورة، ولها فتحة فى أعلاها. وداخل البرعم عدد كبير من الخلايا التذوقية. وعندما نأكل، تلامس بعض العناصر الذائبة فى الطعام براعم التذوق وتصل إلى الخلايا التذوقية بالداخل، وتبعث هذه الخلايا بومضات تسرى فى الخيوط العصبية فى قاعدة البرعم، ومنها إلى أعصاب التذوق وهذه توصلها إلى مركز التذوق بالمخ.

والحلمات على اللسان ثلاثة أنواع: الحليمات الخيطية، والكمشية، والحليمات الكأسية. وفى الحليمة الواحدة يصل عدد البراعم التذوقية إلى أكثر من مائتى برعم تذوقى. وقدر عدد البراعم التذوقية فى اللسان تسعة آلاف برعم تذوقى، تستقبل طعم الأكل بأنواعه الأربعة الرئيسية الحلو والمالح والمر والحامض، بالإضافة إلى خليط هائل العدد من هذه الطعوم.

واللسان عضو هام من أعضاء الجسم يقوم بوظائف كثيرة:

١- التذوق.

٢- المساعدة فى عملية المضغ، بأن يحول الطعام فى الفم تحت الأضراس.

٣- المساعدة فى عملية البلع.

٤- هو عضو النطق فى الإنسان، وكل كلمة ينطق بها الإنسان فى الدنيا سيشهد عليه لسانه بها يوم الحساب. كما قال الله عز وجل فى سورة النور:

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

وفى سورة البلد يقول الله عز وجل:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد].

وجاء ذكر حاسة التذوق، في القرآن العظيم، والسنة النبوية الشريفة:

فقد روى الإمام أحمد عن جابر بن سمرة أن النبى ﷺ كان إذا أُتى بطعام أكل منه وبعث بفضله إلى أبى أيوب. فكان أبو أيوب يضع أصابعه حيث يرى أثر أصابع رسول الله ﷺ. فأتى النبى ﷺ بقصعة فوجد فيها رائحة ثوم فلم يذقها. وبعث بها إلى أبى أيوب. فنظر أبو أيوب إلى القصعة فلم ير فيها أثر أصابع النبى ﷺ،

فلم يذقها. فأتاه فقال يا رسول الله: إنى لم أر أثر أصابعك. فقال له: «**إنى وجدت منها ريح ثوم**». قال: فتبعث إليّ بما لا تأكل؟ فقال النبى ﷺ: «**إنى يأتينى الملَك**». (أى إن الملائكة تأتى رسول الله ﷺ وهى تتأذى من رائحة الثوم)،

ولقد ذكرنا من قبل ما رواه الإمام أحمد عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ سأله أحد الصحابة: ما حوضك يا نبى الله؟ قال: «**أشد بياضا من اللبن. ومذاقه أحلى من العسل. وأطيب رائحة من المسك**» إلى آخر الحديث الشريف. نفهم من الحديث النبوى الشريف أن حاستى التذوق والشم مرتبطتان معًا، لا تعمل أحدهما فى غياب الأخرى. كما نفهم أيضا أن التمتع فى الجنة يكون عن طريق الحواس جميعا بما فيها حاستا التذوق والشم. إلا أن حواس الإنسان فى الجنة ليست مثل حواسه فى الدنيا، فلها خلق آخر، ونظام آخر وقدرات أخرى.

ولا تتحقق السعادة للإنسان إلا بعد إدراك، وتختلف المدركات من الأشياء، فما كان يسعد الإنسان المدرك ويسره، فإنه يكون عنده جميلا، وما كان منها لا يسره، يكون عنده قبيحا. وإدراك اللذة والجمال، قد يكون عن طريق الحواس جميعا على العموم، كما فى الحديث عن أهل الجنة فى قول الله تعالى:

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

[الزخرف: ٧١]

وإدراك اللذة والجمال قد يكون عن طريق حاستى الشم والتذوق كما فى الأحاديث النبوية التى ذكرناها من قبل وكما قال تعالى عن الجنة:

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد: ١٥].

وعن أصحاب الجنة وما يمتعون به من مذاق لطعام شهى قال الله عز وجل:

﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

[الواقعة]

وقال تعالى عن أهل الجنة أيضا:

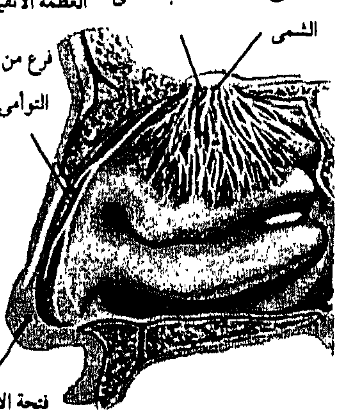
﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المطففين]

ويعذب أصحاب النار شتى أنواع العذاب ومنه العذاب عن طريق حاسة التذوق أيضا كما قال تعالى عنهم:

﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحاقة].

حاسة الشم

اكتشف العلماء أن الخلايا العصبية التى تستقبل الروائح وتميز بينها، توجد فى الجزء العلوى من الأنف. وبدراسة الجدار الداخلى للأنف نجد به ثلاث عظيمات غضروفية مغطاة بغشاء مخاطى، وتسمى تلك العظيمات القرينات، وتشكل كل منها بروزا داخل الأنف، ويعلو بعضها بعضا. والغشاء المغطى لها غنى بالشعيرات الدموية، لذلك فالأنف تعمل على تسخين الهواء أثناء مروره بالأنف شهيقا وزفيرا. والمنطقة الشمية تقع فوق القرين العلوى بمساحة تبلغ ٢,٥ سنتيمترا مربعا. وفى هذه المنطقة تتوزع ألياف العصب الشمى، وكل عدد من الألياف. خلية عصبية وظيفتها استقبال الروائح. فإذا وصلت رائحة ما إلى تلك الألياف العصبية المغطاة بغشاء مخاطى، فإنها تختلط بالسائل المخاطى ومنه إلى تلك الألياف العصبية التى خلقت بطبيعة معينة من شأنها أن تنقل الروائح إلى الخلايا العصبية الموجودة فى المنطقة الشمية فى الجزء العلوى الداخلى من الأنف. ولا ندرى كيف تستقبل الخلايا العصبية الشمية روائح الأشياء، ولا كيف تنقلها عبر حزمة من الأعصاب التى تصل إلى مركز الشم فى أسفل النصف الأمامى للمخ. أما كيف تصل الأعصاب من الأنف إلى داخل عظام الجمجمة، فإن تلك العظام فوق المنطقة الشمية مثقبة ثقوبا رفيعة



وعديدة كالغربال، ولذلك تسمى سبعة الصفيحة العظمية الغربالية. وأخيرا يصل الإحساس بالروائح المختلفة عبر العصب الشمى إلى مركز الشم بالمخ، وهناك يحس الإنسان بالرائحة.

والروائح الأساسية للأشياء سبعة روائح، أما مئات الروائح المختلفة، فهى خليط بين رائحة وأخرى، أو روائح مع بعضها البعض بنسب متفاوتة.

والأعضاء المستقبلة للروائح مختلفة هى الأخرى. أما مركز الشم بالمخ فله اتصال بمراكز المخ الأخرى. لذلك يسيل لعاب الإنسان إذا شم رائحة طعام شهى، أو تدمع عيناه إذا شم رائحة نفاذة، إننا نتكلم هنا كلاما عاما بعيدا عن أى تفصيل علمى، حتى لا ندخل فى متاهات تحير القارئ غير المتخصص ولا يخرج منها بشىء

مفيد، ولقد خلقت حاسة الشم فى منتهى الدقة والتعقيد، حتى إن العلماء فى عصر العلم الحالى لم يكتشفوا منها إلا بقدر قطرة من بحر.

وتختلف قوة الشم فى المخلوقات الحية، كما تختلف أدوات تلك الحواس.

وهى فى الكلاب مثلا أقوى كثيرا منها فى الإنسان.

وكما تختلف مدركات الألوان فى كل من الإنسان والحيوان المختلفة، فكذلك الروائح، فبعض الروائح يجدها الإنسان رائحة جميلة، بينما تنفر منها أنواع من الحشرات مثلا، والعكس صحيح أيضا، ولعلنا نجد ذلك واضحا فى تجمع الذباب فى أماكن تفوح منها روائح كريهة. وجدير بالذكر أن حاسة الشم فى الإنسان ضعيفة، أما الحيوانات الثديية الأخرى فلديها حاسة الشم أقوى بكثير.

بعض الأحاديث النبوية التي ذكرت حاسة الشم في الإنسان:

للثوم والبصل رائحة نفاذة، والذى يأكلها طارجة تصير رائحة فمه كريهة. وكان رسول الله ﷺ يكرهها، وينهى عنها. فقد روى البخارى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: **«من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا، وليقعد فى بيته»**.

- وروى مسلم عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: فى فتح خيبر، وقعنا نحن أصحاب رسول الله ﷺ على تلك البقلة (يعنى الثوم) والناس جياع. فأكلنا منها أكلا شديدا، ثم رحنا إلى المسجد، فوجد رسول الله ﷺ الريح فى القوم فقال: **«من أكل من هذه الشجرة شيئا فلا يقربنا فى المسجد»**، فقال الناس: حُرمت، حُرمت. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: **«يا أيها الناس إنه ليس بى تحريم لما أحل الله لى، ولكنها شجرة أكره ريحها»**.

- روى مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ مر على زراعة بصل هو وأصحابه، فنزل ناس منهم فأكلوا منه، ولم ينزل آخرون، فرحنا إليه. فدعا الذين لم يأكلوا البصل، وآخّر الآخرين حتى يذهب ريحها.

- وروى أبو خزيمة فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: ذُكر الثوم والبصل عند رسول الله ﷺ فأبدى كراهته لهما فقيل: أنحرمها يا رسول الله؟ قال: **«كلوه، ومن أكله منكم فلا يقرب المسجد حتى يذهب ريحه منه»**.

- وروى أبو خزيمة فى صحيحه عن موسى بن يسار قال: مرت بأبى هريرة امرأة وريحا تعصف. فقال لها. أين تريدين؟ قالت: إلى المسجد. قال لها: وتطيبت؟. قالت: نعم. قال: فارجعى فاغتسلى فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يقبل الله من امرأة صلاة خرجت إلى المسجد وريحها تعصف حتى ترجع وتغتسل»**.

الذاكرة والحواس

كل حواس الجسم، تستقبل الأحاسيس من البيئة التى يعيش فيها الإنسان. وترسل بتلك المعلومات إلى مراكز المخ الخاصة بكل حاسة من الحواس، وهناك يحس بها، إلا أن الإنسان لا يفهم معناها إلا إذا حولها لمراكز الذاكرة التى تفهم معناها. فحاسة البصر ترى المرئيات بمركز الإبصار فى مؤخرة المخ، ولكن الإنسان لا يفهم معنى ما يرى إلا بعد أن يحول الصور المرئية إلى مركز الذاكرة الخاص بالمرئيات، حينئذ يفهم الإنسان معنى ما يرى، والأمر نفسه بالنسبة لباقى الحواس جميعا. فمراكز الذاكرة هى التى تعطى معنى الرسائل التى ترسلها الحواس إلى مراكز الحواس بالمخ. ولولا مراكز الذاكرة ما استفاد الإنسان من حواسه شيئا، فلا يفهم معنى ما يرى، ولا يفهم معنى الكلمات التى يسمعها، ولا يدرك معنى ما تستقبله الحواس جميعا من أحاسيس وترسلها إلى مراكز المخ. فالطفل الوليد تكون مراكز الذاكرة لديه فارغة تماما، لذلك لا يفهم عن طريق حواسه أى شىء يحدث فى المحيط الذى يعيش فيه.

فالذاكرة هى التى تتمم عمل الحواس جميعا، ولولاها ما اكتمل عملها، إذن فالذاكرة على قدر كبير من الأهمية فى الإنسان.

إن الذاكرة ليست هى تلك الأشياء التى نقرأها أو نسمعها أو نحسها أو نشمها أو نتذوقها فحسب ثم نسجلها فى قائمة الذكريات، ثم نتذكرها فيما بعد، إن هذه أبسط أنواع الذاكرة، فكثير من أنواع الذاكرة محير إلا أن أكثر ما يحير فى قضية الذاكرة هو مكان اختزان الذاكرة. ولو تخيلنا أن ذاكرة الحواس تختزن فى الخلايا العصبية لأدركنا أن جميع الخلايا العصبية لا تكفى لاختزان جزء صغير من الذاكرة؛ لأن مجموع الخلايا العصبية فى المخ تبلغ تسع مليارات خلية (فى الجهاز العصبى كله اثنا عشر مليار خلية عصبية). وافترض بعض العلماء أن الذاكرة تقع فى منطقة ما بالمخ، وليس فى خلايا المخ كله، إلا أن العلماء لم يعثروا على أى منطقة بالمخ مختصة باختزان الذاكرة، حتى أن استئصال نصف المخ فى بعض الحالات المرضية لم يفقد أولئك المرضى ذاكرتهم. فهل هذا لأن هناك نسخة كاملة للذاكرة فى كل من نصفى المخ؟ أم أن الذاكرة تختزن فى النفس البشرية غير المادية؟ ودليل ذلك علاقة الذاكرة بعقل الإنسان؟. والعقل طاقة هائلة غير مادية فى الإنسان لا توجد فى المخ، إلا أنها على اتصال وثيق به، فالمخ هو رافد العقل البشرى.

إننا لا نعلم عن موضوع الذاكرة إلا القليل، والأمر نفسه بالنسبة للشعور واللاشعور، والذكاء والإرادة، ويمكن تقوية الذاكرة إلا أن ذلك يعتمد على عوامل أخرى كالآتى:

١- **تقوى النفس البشرية:** لأن التقوى تحدث حالة نفسية تتصف بالهدوء والاهتمام والتقدير السليم والتدبر ووزن الأمور على وجهها الصحيح، وهذا الخليط ينتج ذاكرة هائلة.

٢- **التكرار:** ينمى الذاكرة ويقويها.

٣- **الاهتمام:** فكلما أهتم الإنسان بالشيء كلما أزداد حفظه له. والعكس صحيح.

٤- **الارتباط بالأحداث:** كلما كانت الذكريات مرتبطة بأحداث معنية، ازدادت الذاكرة بها قوة.

٥- **سلامة المخ من الناحية الصحية.**

٦- **سلامة النفس البشرية من الأمراض.**

ارتباط الذاكرة والحواس بالإيمان:

الذاكرة تؤدى إلى التذكر، وأهم تذكر هو ذكر الله عز وجل، والذكر هو القرآن، وهو أعظم الذكر، ومع القرآن جاءت السنة النبوية وهى وحى الله تعالى لرسوله، فهى ذكر أيضا. والذكر فى الإنسان يتعلق بذاكرته، وذاكرة الإنسان مستودع علمه كله، إلا أن ذاكرة الإنسان ضعيفة ومحددة، لذلك يغفل الإنسان عن ذكر ربه وينسى. فذلك قول الله عز وجل: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤].

ولولا ذاكرة الإنسان ما عملت حواس الإنسان، وما علم شيئا عن خلقه وخالقه.

والنص فى القرآن الكريم على كلمة «الذكر» بالذات، إعجاز علمى رفيع، لأن كلمة «الذكر» تربط بين ذكر الإنسان لربه وذاكرته، وهى مستودع العلم والتجربة والمعرفة فى الإنسان. والإنسان يتكلم ويسمع ويرى ويحس بذاكرته، وإذا كانت الذاكرة فارغة كما هو الحال فى ذاكرة الطفل الوليد، فإنه لا يستفيد من حواسه إلا بقدر ضئيل جدا، فهو ينظر ولكنه لا يبصر، لأنه لا يفهم ما ينظر إليه، فقد يرى جمرة من النار فيمسكها بيديه وتحترق أصابعه ويداه، فهو وإن كان يراها بواسطة مركز الإبصار فى مخه إلا أن الذاكرة فى مخه وفى فؤاده لم تكتمل بعد، فذلك قول الله عز وجل:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل].

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، اى لتستخدموا حواسكم وذاكرتكم فى مراد الله تعالى فيها، فالشكر «علم» بالنعمة، و«حال» بالشعور بها، و«عمل» فيما يرضى الخالق عز وجل. والله

تعـالى خلق الحـواس والذاكـرة فى الإنسـان ليسـتخـدمها فى ذكـر الله تعالى - فى مـختلف مجالات الذكر - كما قال الله عز وجل:

﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء]

هنا نهى عن أن يقول الإنسان ما لا علم له به، أو يتصرف بغير علم، وهنا أمر باستعمال الحواس والفؤاد (وهو مستودع الذاكرة فى الإنسان)، فى مجالات ذكر الله عز وجل فى الحياة الدنيا؛ لأن صاحبها سوف يسأل عما استعملها فيه.

وذكر الله تعالى متعلق بحواس الإنسان تعلقا كاملا، فلا يذكر الإنسان ربه إلا بالاستعانة بحواسه وأعضاء جسمه. وذكر الله عز وجل يكون بالكلمة ويكون فى النفس ويكون فى القلب، ويكون بالفكر، ويكون بالحواس جميعا.

إذن فهناك ارتباط قوى بين الذاكرة والذكر، وبين الذاكرة والذكر وأعمال الإنسان كلها فالذكر بالقلب، ويكون بالنطق باللسان كما فى قول الله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]

فهم ذكروا الله بقلوبهم، فاستغفروا لذنوبهم نطقا باللسان.

وروى الترمذى وابن ماجه والحاكم أن رجلا أتى النبى ﷺ وقال له: يا رسول الله أخبرنى بشىء أتشبث به. فقال له: «**لا يزال لسانك رطبا بذكر الله**».

والذكر يكون فى النفس عن طريق حواسه كما فى قول الله عز وجل:

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف]

والذكر يكون فى القلب عن طريق الحواس أيضا؛ كما قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد]

والذكر يكون باستعمال الحواس وأعضاء الجسم فى العمل الصالح كما فى قول الله عز وجل:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران]

والذكر يكون صلاة كما فى قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن

يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الجمعة].

والحكمة من خلق الذاكرة والحواس، هو ربط قلب الإنسان وعمله ومنهج حياته بالإيمان بالله تعالى وعبادته، فذلك قول الله عز وجل:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات].

فالذكر يكون منهج الحياة القويم للإنسان: فذلك قول الله عز وجل:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب].

والذكر هو كتاب الله العظيم: كما قال الله عز وجل:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل]

فالذكر هو عمل الإنسان كله، وأعظم الذكر هو القرآن العظيم. وأفضل الذكر الاتجاه إلى الله عز وجل بحواس الجسم جميعا وطاقاته وقدراته كلها.

ولا يكون الذكر باللسان صحيحا، والقلب مشغول بأمور الدنيا، والعقل منصرف إلى أشياء أخرى، ولكن ذكر الله حق الذكر، يكون بالسمع والبصر والحواس جميعا وارتباطها بالفؤاد. (وهو العقل والنفس والروح ومجموع مدارك الإنسان).

الفهرس

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع	٢٠٠١ / ١٧٤٦٣
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 10 - 1517 - 6

الدكتور

أحمد شوقي إبراهيم

- تخرج من كلية الطب جامعة القاهرة ١٩٥٢م
- دبلوم الأمراض الباطنية (القاهرة ١٩٥٦م)
- زمالة [illegible] (إنجلترا ١٩٦٥م)
- عضوية كلية الأطباء الملكية (لندن وأدنبرة ١٩٧١ - ١٩٧٢م)
- مستشار الأمراض الباطنية بمستشفيات الكويت حتى عام ١٩٩٠م
- كانت له أحاديث إذاعية [illegible] في إذاعة الكويت وإذاعات الخليج العربي منذ سنة ١٩٧٨م وحتى ١٩٩٥م
- برنامج تليفزيوني أسبوعي [illegible] القرآن والعلم في تليفزيونات الخليج العربي منذ عام ١٩٧٨م وحتى ١٩٩٠م
- مسئول حلقة تليفزيونية (من القرآن والعلم) مستقبل في كل حلقة [illegible] تبث في تليفزيونات الخليج العربي [illegible] وحتى الآن
- [illegible] في إذاعة القرآن الكريم من القاهرة
- برنامج تليفزيوني عن الإعجاز العلمي في [illegible]
- مسلسلات [illegible] عن الإعجاز العلمي في قنوات التليفزيون المصري
- له العديد من المحاضرات والندوات والمقالات والمؤلفات عن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة منذ سنة ١٩٧٥م وإلى الآن
- يعمل حاليا رئيسا لقسم أمراض القلب [illegible]
- رئيس لجنة الإعجاز العلمي بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية
- عضو اللجنة الوطنية للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)

الجزء الأول عن أطوار خلق الإنسان، وفيه بيان عن أطوار خلق الإنسان مصداقا لقوله تعالى: ﴿وقد خلقكم أطوارا﴾. كما يتناول أطوار خلق الإنسان منذ خلق آدم مرورا بأطوار خلق الإنسان في حياته الدنيا وما بعدها، ثم يتناول ماهية الإنسان وماهية الذات الإنسانية (النفس، والعقل، والروح)، وكذلك أطوار خلق الأجنة وأطوار خلق الإنسان طفلا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا.

أما الجزء الثاني فعن حواس الإنسان، ويتضمن مناقشة الحقائق العلمية في حواس الإنسان وكيف جاء ذكرها في القرآن الكريم والسنة الشريفة، من قبل أن يعلم الناس عن كل ذلك شيئا.

إن كل ما يكتشفه العلماء من حقائق العلم هو نتاج دراساتهم وتدبرهم لفطرة الخالق، والقرآن والسنة وحي فاطر الفطرة، فلا غرو أن نجد كل المعارف العلمية التي توصل إليها العلماء، مذكورة في القرآن أو السنة أو فيهما معا، إما توضيحا وتصريحا، وإما إشارة وتلميحا. ودائما وأبدا يبقى الحق المطلق في كتاب الله وسنة رسوله نورا للعالمين جميعا في كل العصور وإلى ما شاء الله.

I.S.B.N. 977-10-1517-8

تطلب جميع منشوراتنا من وكيلنا الوحيد بالكويت والجزائر
دار الكتاب الحديث